

قصص وأشعار من التراث القديم والشعبي

الجزء الأول

جمع وإعداد

خالد بن عبدالله العساف

الطبعة الثالثة

ح خالد بن عبدالله العساف، ١٤٤٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العساف، خالد بن عبدالله

مآثر الكرام./ خالد بن عبدالله العساف.- الرياض، ١٤٤٣هـ

٣٩٤ص؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٣-١٢٤٣-٠٤-٦٠٣-٩٧٨

١- الشعر الشعبي السعودي ٢- الكرم - شعر أ. العنوان

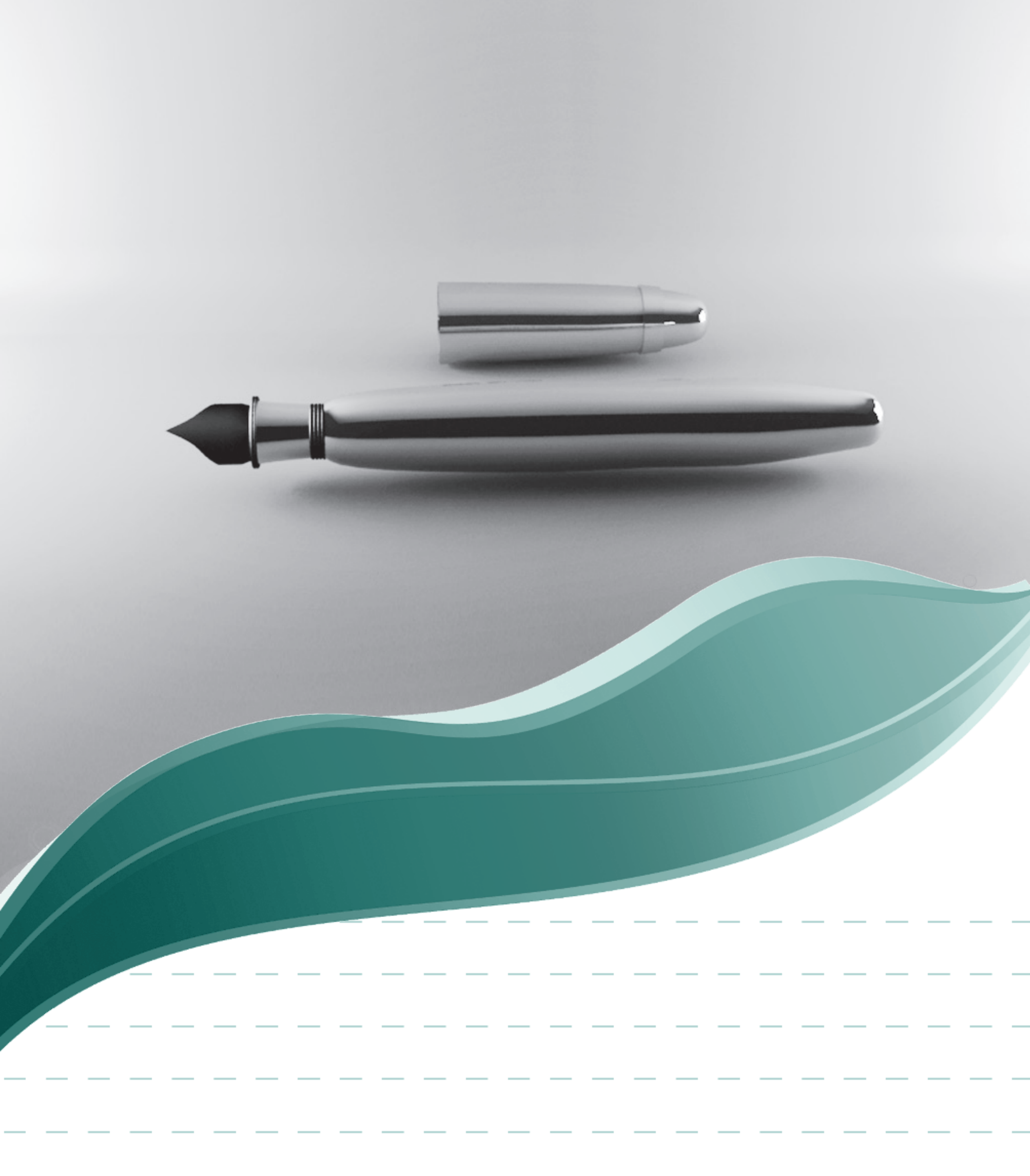
ديوي ٨١١,٩٥٥٣١ ١٤٤٣/٩٣٨١

رقم الإيداع : ١٤٤٣/٩٣٨١

ردمك: ٣-١٢٤٣-٠٤-٦٠٣-٩٧٨


بسم الله الرحمن الرحيم

المحتوى



المُقَدّمة



المقدمة

الحمد لله الجواد الكريم، والصلاة و السلام على المبعوث رحمة للعالمين، وبعد...

فمنذ عدة سنوات برزت فكرة إعداد هذا الكتاب، وكانت البداية تقتصر على جمع القصص التي تبرز ـ بجلاء ـ الصور المشرقة للكرم؛ لما للقصص من شأن عظيم في آداب الأمم. فقد وردت في جميع الكتب السماوية، وعلى لسان خير البرية عليه الصلاة والسلام، ذلك لأنها تحيي النفوس، وتشحذ الهمم، وتحث على معالي الأمور، وتنهى عن دناياها، ثم توسعت في البحث ليتأكد لي أن الكرم أصلٌ عظيم للأخلاق الفاضلة، ويندرج تحت لوائه الكثير من سجايا الخير، وأنه بحرٌ لاساحل له. فالكثير من الآيات في كتاب الله تحث عليه، وحال الرسول صلى الله عليه وسلم وقوله يدعوان إليه. أما أخبار الأجواد فلا يمكن الإحاطة بها.

وبعد جمع ما تيسر جرى تقسيمه إلى ستة فصول كما يلي:

الفصل الأول : اشتمل على تعريف الكرم ومكانته لدى أفراد الأمم، مع إيضاح كرم الله جل جلاله، ثم بيان كرم الرسول صلى الله عليه وسلم، بعد ذلك جرى إبراز مكانة الكرم في الإسلام، كل ذلك بإيجاز واختصار .

الفصل الثاني: أوضحت ما يناقض الكرم ـ وهو البخل ـ وبينت ما ورد فيه من الذم للتنفير منه.

الفصل الثالث: تم تخصيصه للحكم والأقوال والأبيات النادرة التي قيلت في الكرم وبذل المعروف .

الفصل الرابع: ذكرت فيه حال بعض الأنبياء والصحابة في البذل والإنفاق والضيافة.

الفصل الخامس: أدرجت فيه بعض القصص لمن كانوا قمماً في الجود

والسخاء ليستخلص القارئ منها العبر عملاً بقوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

الفصل السادس: ويحوي الكثير من القصص الشعبية، والتي تدور أحداثها حول مكارم الأخلاق من وفاء وكرم وتضحية وإيثار.

ومما تجدر الإشارة إليه أنني كثيراً ما رأيت في المراجع والمصادر تبايناً واختلافاً في القصة الواحدة، فأخذت منها ما رجوت أن يكون فيه فائدة للقارئ؛ لأن الهدف الأسمى أن يكون الكتاب بمثابة موعظة وتذكير لمن يحجم عن البذل والإنفاق بما يفوته من خيري الدنيا والآخرة، وكذلك التأكيد على المنفقين بالتحقق من صدق نياتهم؛ لتكون أعطياتهم عبادة متقبلة عند من لا تضيع عنده مثاقيل الذر.

ولعل القارئ الكريم يشاركني الرأي أنه ما من أبناء بلدة أو قبيلة أو أسرة إلا يتناقلون بفخر قصصاً عجيبة في الجود والكرم لأحد أقاربهم أو معارفهم، وقعت أحداثها في الأزمنة السابقة أو في وقتنا الحاضر. وإذا لم نتعاون ونتدارك تلك القصص بالتقصي والتدوين فسوف تندثر رغم ما فيها من عبر ودلالات عظيمة على الخير.

وأود التنبيه.. إلى ان هذا الكتاب قد صدر بطبعتيه السابقتين بعنوان (الكرم- كنوز وأسرار) وبعد إجراء بعض التعديل والإضافات اخترت لهذه الطبعة عنواناً جديداً يمنح القارئ دلالة واضحة على المحتوى.

سائلاً المولى جلّت قدرته العون والتوفيق والسَداد.. والله ولي التوفيق

خالد بن عبدالله العسّاف

المملكة العربية السعودية

0505818030



الفصل الأول

الــكـــرم



الكـــرم

الكرم سلوك اجتماعي نبيل حظي على مر العصور بتقدير كافة الأمم والشعوب، والتي أجمع أفرادها كلهم على مدح الجود وذم البخل، ولذلك أحب العربي منذ القدم أن يرتبط ذكره بما أحبه الناس؛ لعلمه بأن هذه الخلّة من أكثر الصفات تأثيراً في المشاعر والنفوس، وأقربها إلى الأرواح والقلوب، تجعل من يتحلى بها من أشرح الناس صدراً، وأطيبهم نفساً، وتحقق لصاحبها «المجد والسؤدد، والسيادة والشرف في قومه، فيرتفع بذلك قدره، ويطير بالكرم ذكره، فتعلو مكانته، وتسمو منزلته»[1] . ويتبارى الشعراء في مدحه، ولعل من أجمل ما قيل في مدح أحد الكرماء بيت زهير بن أبي سلمى الذي يقول فيه:

تـراه إذا مـــا جئتـــه متهللاً
كـأنـك تعطيـه الـذي أنـت سـائلُهُ

وقد وصف ابن عبد ربه في كتابه العقد الفريد الكرم بأنه «أشرف ملابس الدنيا، وأزين حللها، وأجلبها لحمد، وأدفعها لذم، وأسترها لعيب».

وأشار الجرجاني في كتابه التعريفات إلى الكرم بقوله «الكرم هو الإعطاء بسهولة».

وقال صاحب كتاب «الخلق الكامل»: «الكرم جامع لمكارم الأخلاق، فكل خصلة من خصال الخير، وخلة من خلال البر، وسجية تضاف إلى

---

(١) الكرم والجود والسخاء ـ سمير حسين حلبي.

محاسن الطبائع والأعراف؛ واقعة على اسم الكرم»[١].

قال بعض الحكماء: «أصل المحاسن كلها الكرم، وأصل الكرم نزاهة النفس عن الحرام، وسخاؤها بما يُملك على الخاص والعام وجميع خصال الخير من فروعه».

وسأل معاوية الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهم عن الكرم فقال: «هو التبرع بالمعروف قبل السؤال، والرأفة بالسائل مع البذل».

«فالكرم مرتبط بالبذل، قرين العطاء، وهو من خلال الخير والفطرة، يدل على سلامة الطبع، ونقاء السريرة.. ويكفي بياناً لمنزلة الكرم أنه لا يُوصف به إلا كلُّ ما سما قدره، وشرفت منزلته، وربت قيمته، ومنه جاء التكريم والإكرام»[٢].

«وإذا نظرنا إلى الكرم في اتساع معناه، ورحابة مفهومه، وثراء دلالته خرجنا من دائرة الكرم بالمال وبذل المادة إلى دوائر أخرى أكثر رحابة، وأعمق قيمة، لا تقل عن كرم المال، وإن كانت توازيه وتفضله أحياناً.

فهناك كرم الخُلق، وكرم العفو، وكرم الصنع، وكرم المعاملة، وكرمَ التضحية، وكرم الإيثار الذي قد يعرض صاحبه للهلاك فداءً لمن آثره، إنه كرم النفس وكرم الروح، ومما لا شك فيه أن النفس أغلى من المال، وبذل الروح أغلى من بذل المادة، ولا يمكن أن يكون الإنسان على هذه الدرجة من التضحية والعطاء إلا إذا كان كريماً جواداً. فهي صفات لا تليق بالبخيل أو

---

(١) الخلق الكامل - محمد أحمد جاد المولى.

(٢) الكرم والجود والسخاء - سمير حسين حلبي « بتصرف ».

الذي يمسك ماله، وعليه فإن الكرم بالمال والعطاء أساس وأصل وجوهر تتفرع منه كل هذه القيم الجميلة، والمكارم النبيلة»[١].

والكرم نقيض البخل الذي يعتبر إحدى الخصال الذميمة، والسجايا الخسيسة التي تجعل صاحبها مكروهاً من الله عز وجل، ومبغوضاً من الناس، لذا فإن الآيات والنصوص قد تضافرت في مناهضته وتقبيحه.

وحيث إن البخل أصل لنقائص كثيرة، ويدعو إلى العديد من الخلال الدنيئة الموجبة لهوان صاحبها ومقته وازدرائه؛ فقد تم إفراد فصل كامل في هذا الكتاب للتحذير منه، وبيان ما ورد فيه.

«وللكرم دواع وأسباب تدعو إليه، وتحث عليه، وتدفع المرء إلى التفاني فيه، والجد في طلبه، والحرص على تحصيله. وقد ظلت بعض هذه الدوافع والأسباب تغرس في الإنسان حب البذل والإنفاق منذ أقدم العصور. واستمرت دواعي الكرم في ضمير البشرية عرفاً تسير عليه، وتقليداً تتوارثه الأجيال المتعاقبة حتى جاء الإسلام حاملاً معه تعاليم الرحمة والهداية.. فأضفى على الكرم معايير جديدة، ووجهه نحو مقاصد سامية سديدة، ونواح عظيمة رشيدة، فاتجه به إلى القيم الروحية والمعاني الدينية... فالمسلم حينما يبذل ماله لا ينظر إلى ثناء الناس، ولا يبغي الشهرة وذيوع الصيت ولا يطلب عرضاً دنيوياً مقابل بذله؛ وإنما يصرف نيته إلى الله فيجعل غايته رضاه، وهدفه الفوز بثوابه»[٢].

---

(١) موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية «الكرم» - أ. د. مرزوق بن صنيتان بن تنباك.

(٢) الكرم والجود والسخاء - سمير حسين حلبي «بتصرف».

كرم الله سبحانه وتعالى

الكريم اسم من أسماء الله الحسنى، والكرم صفة من صفاته جل وعلا، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن ربكم حيي كريم يستحي من عبده أن يرفع إليه يديه فيردهما صفراً ـ أو قال خائبتين» الحاكم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله تعالى جواد يحب الجود ويحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها» البيهقي.

قال صاحب «العقد الفريد»: «ولو لم يكن في الكرم إلا أنه من صفات الله تعالى تسمى بها، فهو الكريم عز وجل، ومن كان كريماً من خلقه فقد تسمى باسمه، واحتذى على صفته».

قال تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ الانفطار «٦» وقال ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ النمل «٤٠» فربنا جلّت قدرته وصف نفسه بالكرم كما أخبر أنه الأكرم بصيغة التفضيل: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ العلق «٣»، فدل على أنه يتصف بغاية الكرم الذي لا شيء فوقه، ولا نقص فيه، فهو الكريم، كثير الخير، المعطي الذي لا ينفد عطاؤه «فهو إذا عُصي غفر، وإذا اطّلع أمهل وستر، وإذا وعد وفى، وإذا أوعد عفا، لايضيع من لجأ إليه، ولا يُسلم من توكل عليه، يداه مبسوطتان بالخيرات، وله خزائن الأرض والسماوات، لا ينازع في قسمة رزقه، ولا يراجع في تدبير خلقه، فهو الكريم بالإطلاق»[1].

---

(١) الخلق الكامل – محمد أحمد جاد المولى.

وقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم إثابته على سائر الأعمال الصالحة إذا اقترنت بالإخلاص، وابتُغي بها وجه الله، وسعى كاسبها إلى رضاه عز وجل قال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ النحل «٩٧».

كما حث عباده على الإنفاق في أوجه الخير من المال الذي جعلهم مستخلفين فيه يقول تعالى: ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ النور «٣٣».

وأوضح سبحانه أن النفقة مخلوفة على المنفق: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ سبأ «٣٩».

كما أخبر ربنا الكريم أنه يُجزل ثواب المنفقين: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة «٢٦١».

إنه ثواب كبير، وعطاء جزيل، وكرم عظيم، فالناس يدركون أن مضاعفة رأس المال «مرة واحدة» تعني أن نسبة الأرباح بلغت ١٠٠٪، ولكن قلة من يتدبر هذه الآية ويتأمل مقدار المضاعفة فيها «سبعمائة مرة» إلى اضعافاً كثيرة.

ولكن.. مع هذا الكرم الواسع فإن الله سبحانه لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً له، وقد ضرب لنا مثلاً يشتمل على تحذير بالغ الأهمية يستوجب كثيراً من التدبر والتفكير يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لا

﴿يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّه لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ البقرة «٢٦٤».

أي أن الذي ينفق ماله رياءً وحباً للظهور مثله في انكشاف أمره وعدم انتفاعه بما ينفقه كمثل (صفوان) حجر أملس لا ينبت شيئا، ولكن عليه قليل من التراب الموهم للناظر إليه أنه منتج، فنزل المطر الشديد فأزال ما عليه من تراب، فانكشفت حقيقته، وتبين للناظر أنه حجر أملس صلد لا يصلح لإنبات أي شيء عليه.

كما ورد في السنة النبوية ما يؤيد ذلك، ويؤكد الحذر من الانزلاق في مهاوي الرياء رغبة في غايات دنيوية كمحبة الثناء وطيب الذكر فقط، لأنها تفسد معنى الكرم، وتبطل أجور الإنفاق، بل توجب العقوبة، وتحبط العمل، يقول عليه الصلاة والسلام: «إن أول الناس يُقضى فيه يوم القيامة ثلاثة ـ وذكر منهم ـ ورجل وسّع اللّه عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأُتي به، فعرّفه نعمه فعرفها، فقال: ما عملت فيها؟

فقال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت لك.

فقال: كذبت! ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل.

ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. وفي لفظ: فهؤلاء أول خلق اللّه تسعر بهم النار يوم القيامة» مسلم.

أما إذا أنفق العبد نفقة خالصة لوجه اللّه، ثم اطلع الناس عليها، وأثنوا عليه بها، فإن ذلك لا ينقص أجره ولا يضره، لأنه أساساً لم يعمل هذا العمل لأجل أن يراه الناس، ولعل هذا من البشرى العاجلة، فقد قيل لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس

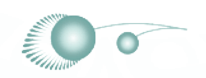
عليه؟ فقال: «تلك عاجل بشرى المؤمن» مسلم.

وقد قال الشاعر/ سهل بن هارون في هذا المعنى:

يخفي صنائعه والله يظهرها إن الجميل إذا أخفيته ظهرا

إن كرم الله ليس له حدود، فبعض الناس يعتقد أن الأجور والحسنات تكون كثيرة لمن ينفقون الأموال الطائلة فقط، في حين أن قليلي المال الذين يعطون اليسير لاينالون إلا القليل من الأجر، وهذا اعتقاد خاطئ؛ حيث ورد ما يدل على أن الصدقة حتى وإن كانت قليلة فإنها ستكون عند الله عظيمة إذا كانت من كسب طيب، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:«من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوّه حتى تكون مثل الجبل» البخاري.

وعلى هذا يتبين لنا أن الرب الكريم جلّت قدرته يحث عباده حتى قليلي المال على الإنفاق، ويرغّب فيه، ويجعل لمن أطاعه ثواباً جزيلاً قد يصل إلى سبعمائة ضعف، بل إلى أضعافٍ كثيرة، فالله يضاعف لمن يشاء.... فأي كرم أعظم من هذا؟.



كرم الرسول عليه الصلاة والسلام

يقول المولى عز وجل مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء «١٠٧» ثم مدحه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ القلم «٤» .

فقد كانت سجاياه عليه الصلاة والسلام تربية إلهية كان الكرم إحداها، «ولا عجب في ذلك فقد كانت تلك الخصلة خلقاً أصيلاً جبله الله عليه، ثم ازدادت رسوخاً من خلال البيئة العربية التي نشأ فيها، وتربى في أحضانها، والشهيرة بألوان الجود والعطاء.

وتبيّن لنا أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها في الحديث الوارد في صحيح البخاري تحلّيه بهذه الخصلة قبل بعثته عليه الصلاة والسلام بقولها الشهير: (إنك لتصل الرحمَ، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدومَ، وتُقري الضيفَ) وكلها صفات تحمل في طياتها معاني الكرم والجود»[(١)]، ولأنه عليه الصلاة والسلام أكثر الناس إيماناً، فقد كان أكثرهم كرماً وعطاءً.. نعم لقد كان أكرم ولد آدم على الإطلاق.

«ولكن كرم النبي عليه الصلاة والسلام كان لوناً آخر جديداً لم يعرفه العرب، ولم يألفه غيرهم، فلم يكن جوده لكسب محمدة، أو اتقاء منقصة، ولم يكن للمباهاة، أو الاستغلال، أو لاجتذاب المادحين، بل كان في سبيل الله، وابتغاء مرضاة الله»[(٢)].

---

(١) الشبكة الإسلامية مقالة بعنوان ـ كرم النبي ـ تم نشرها بتاريخ ١٠/٤/٢٠٠٨م

(٢) من أخلاق النبي ـ د. أحمد محمد الحوفي.

«ولذا فقد كان كرمه عليه الصلاة والسلام إيثاراً على نفسه وأهل بيته، فكان يبذل الكثير وهو محتاج إلى القليل، يطوي الأيام جائعاً ولا يرد سائلاً، يعيش عيشة الفقراء وهو يعطي عطاء الملوك والأمراء»[١].

روى البيهقي أن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث ليال متوالية، ولو شئنا لشبعنا، ولكنه كان يؤثر على نفسه».

ولقد نال النبي صلى الله عليه وسلم أعظم المنازل وأشرفها في صفوف أهل الكرم والجود، فكان يعطي بسخاء قلّ أن يوجد مثله، فقد أعطى أحد الأعراب غنماً بين جبلين، فرجع الأعرابي إلى قومه، وقال: «يا قوم أسلموا! فوالله إن محمداً ليعطي عطاء من لا يخاف الفقر» مسلم.

وكان لمثل هذه المواقف أثر بالغ في نفوس الذين كانوا يأتون إلى النبي صلى الله عليه وسلم قاصدين بادئ الأمر العودة بالشاة والبعير والدينار والدرهم، فسرعان ما تنشرح صدورهم لقبول الإسلام والتمسك به، ولذلك يقول أنس رضي الله عنه معلقاً على الموقف السابق: «إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها» مسلم.

وكثيراً ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يمنح العطايا يتألف بها قلوب المسلمين الجدد؛ ففي غزوة حنين أعطى كلاً من عيينة بن حصن والأقرع ابن حابس والعباس بن مرداس وأبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية رضي

---

(١) الكرم والجود والسخاء ـ سمير حلبي.

الله عنهم عدداً كبيراً من الإبل، وعند عودته عليه الصلاة والسلام من تلك الغزوة تبعه جمع من الناس يسألونه فقال لهم: «أتخشون عليّ البخل؟ فو الله لو كان لي بعدد شجر تهامة نعماً ـ أي أنعاماً ـ لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا جباناً ولا كذوباً» أحمد.

وأُتي بمال من البحرين فقال عليه الصلاة والسلام: «انثروه في المسجد»، وكان أكثر مال أُتي به، فخرج إلى الصلاة ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه فما كان يرى أحداً إلا أعطاه.. وما قام وثمّ منها درهم. البخاري.

وكان جوده عليه الصلاة والسلام يتضاعف في مواسم الخير والأزمنة الفاضلة كشهر رمضان، فعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: «كان النبي صلى الله عليه وسلم أجود الناس، وأجود ما يكون في رمضان.. فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة» متفق عليه.

وعن جابر رضي الله عنه قال: «ما سُئل النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء قط فقال: لا.» البخاري.

جاءت امرأة إلى النبي عليه الصلاة والسلام ببردة فقالت: يا رسول الله! أكسوك هذه. فأخذها النبي صلى الله عليه وسلم مُحتاجاً إليها، فلبسها، فرآها عليه رجل من الصحابة فقال: يا رسول الله ما أحسن هذه! فاكسنيها. فقال عليه الصلاة والسلام: «نعم»، فلما قام النبي عليه الصلاة والسلام لامهُ أصحابه فقالوا: ما أحسنت حين رأيت النبي صلى الله عليه وسلم أخذها محتاجاً إليها، ثم سألته إياها وقد عرفت أنهُ لا يُسأل شيئاً

فيمنعه. فقال: رجوت بركتها لعلي أكفّن فيها. البخاري.

وحين جاء وفد هوازن بعد هزيمتهم في غزوة حنين للقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم:«ما فعل مالك بن عوف»؟ قالوا: هو بالطائف مع ثقيف. فقال:«أخبروا مالكاً أنه إن أتاني مسلماً رددت إليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل». فأُتي مالك بذلك. فخرج من الطائف فلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم، فأدركه بالجعرانة أو بمكة، فردّ عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل، وأسلم فحسن إسلامه، فقال مالك بن عوف:

ما إن رأيت ولا سمعت بواحد
في الناس كلّهُم بمثل محمدِ
أوفى فأعطى للجزيل لمجتدي
ومتى تشأ يخبرك عما في غدِ
وإذا الكتيبة عرّدت أبناؤها
بالمشرفي وضرب كل مهندِ
فكأنه ليث على أشبالهِ
وسط الهباءة خادر في مرصدِ

وربما أحسّ النبي صلى الله عليه وسلم بحاجة أحدٍ من أصحابه وعرف ذلك في وجهه، فيوصل إليه العطاء بطريقة لا تجرح مشاعره، ولا تُوقعه في الإحراج، كما فعل مع جابر بن عبدالله رضي الله عنه حينما كانا عائدين من أحد الأسفار، وقد علم النبي صلى الله عليه وسلم بزواج جابر رضي الله عنه، فعرض عليه أن يشتري منه بعيره بأربعة دنانير، ولما قدم المدينة أمر

النبي صلى الله عليه وسلم بلالا أن يعيد الدنانير إلى جابر ويزيده، وأن يردّ عليه بعيره.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله : «كان صلى الله عليه وسلم أعظم الناس صدقة بما ملكت يده ، وكان لا يستكثر شيئا أعطاه لله تعالى، ولا يستقله، وكان لا يسأله أحد شيئا عنده إلا أعطاه، قليلا كان أو كثيرا، وكان عطاؤه عطاء من لا يخاف الفقر، وكان العطاء والصدقة أحب شيء إليه، وكان سروره وفرحه بما يعطيه أعظم من سرور الآخذ بما يأخذه، وكان أجود الناس بالخير، يمينه كالريح المرسلة، وكان إذا عرض له محتاج آثره على نفسه، تارة بطعامه،وتارة بلباسه.

وقد كان ينوّع في أصناف عطائه وصدقته، فتارة بالهبة، وتارة بالصدقة، وتارة بالهدية، وتارة بشراء الشيء ثم يعطي البائع الثمن والسلعة جميعاً، كما فعل ببعير جابر، وتارة كان يقترض الشيء فيرد أكثر منه وأفضل وأكبر، ويشتري الشيء فيعطي أكثر من ثمنه، ويقبل الهدية ويكافئ عليها بأكثر منها أو بأضعافها، تلطفاً وتنوعاً في ضروب الصدقة والإحسان.

وكانت صدقته وإحسانه بما يمكنه، فيخرج ما عنده، ويأمر بالصدقة ويحض عليها ويدعو إليها بحاله وقوله، فإذا رآه البخيل الشحيح دعاه حاله إلى البذل والعطاء»[1].



---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد.

الكرم في الإسلام

سعى الإسلام إلى تأكيد مكارم الأخلاق، والدعوة إلى الفضيلة والخير، وحث على الإنفاق في كثير من النصوص الشرعية من آيات قرآنية وسنة نبوية؛ فحبب إلى بنيه أن تكون نفوسهم سخية، وأكفهم ندية، فأضفى بتعاليمه على الكرم كثيراً من القيم الروحية، ودعا فيما حث عليه من فضائل عليا، وقيم نبيلة إلى البذل والإنفاق والعطاء، لتقوى بذلك أواصر المحبة والرحمة والإخاء، «فتشربت نفوس المسلمين بتلك التعاليم السامية العظيمة، وتسابق المؤمنون إلى تلبية داعي الكرم، ونداء السماحة والندى.. فالمعطي يبذل المال لمن أعسر واحتاج من إخوانه، يفرج به كربته، ويتخطى أزمته، ويعالج حاجته، فيحظى بخير الدارين، ويجمع بين المحبتين: محبة اللّه ومحبة إخوانه، ويفوز بالثواب العظيم يوم القيامة»[(١)].

يقول رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «المسلم أخو المسلم؛ لا يظلمه، ولا يُسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان اللّه في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج اللّه عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره اللّه يوم القيامة» رواه الشيخان.

«وما أعظم أن يعيش المسلم لغاية نبيلة وهدف أسمى! فيعيش بقلبه وروحه ووجدانه مع تلك الغاية، وذاك الهدف حتى يصل إلى مبتغاه، وليس هناك من غاية أفضل من مرضاة اللّه، ونيل حبه، والتقرب إليه. إن المسلمين الأوائل الذين صحبوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لم يكتفوا بتقديم

---

(١) الكرم والجود والسخاء - سمير حسين حلبي.

الأموال ابتغاء مرضاة الله بل قدموا أعظم شيء في حياتهم؛ قدموا أنفسهم، فنالوا شرف البذل والإنفاق مع شرف الجهاد في سبيل الله، فكان لهم من الله الثناء العاطر، والجزاء الأوفى، والحياة الخالدة، وفيهم نزل قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ التوبة «١١١»[١].

تقول د. فاطمة عمر نصيف في كتابها «أخلاقنا في الميزان»:

«من الحقائق الثابتة في الإسلام أن الأخوّة الإيمانية ليست شعارات تُرفع؛ إنما هي رابطة مقدسة، لها التزاماتها وتكاليفها وحقوقها، ومنها البذل والإنفاق «الواجب والمستحب» الذي لا يستغني عنه المجتمع المسلم لتحقيق التكافل والتضامن والتعاون بين أفراده» ا. هـ.

وكما أن الرب جلّت قدرته رتب على النفقة والبذل أجوراً عظيمة؛ فقد قرر أن أثر العطاء سيعود على الباذل الذي يرجو ثواب الله يقول تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ البقرة «٢٧٢».

ورسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرنا بأن النفقة في أوجه الخير لا تنقص المال شيئاً، بل تكون سبباً في زيادته، قال عليه الصلاة والسلام: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله» رواه مسلم.

كما أخبر عليه الصلاة والسلام في الحديث المتفق على صحته أن الله

---

(١) بتصرف يسير من كتاب فضائل الإنفاق في سبيل الله ـ عثمان السعيد الشرقاوي.

قد سخّر للمنفق ملكين يدعوان له بالخلف: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً» كل هذا لينفق العبد وهو موقن بالخلف من الله.

«وأعظم صور الكرم ما يكون مع الفقر والحاجة وقلة ذات اليد، وهذه كانت أخلاق العرب في الجاهلية، وأهل الإيمان بها أولى»[١].

وفي هذا المعنى يقول المقنع الكندي:

ليس العطاء من الفضول سماحة

حتى تجود وما لديك قليل

وحين سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الصدقة أفضل؟ قال: «جُهد المُقل» ويتبين لنا بجلاء ما يعنيه عليه الصلاة والسلام، حيث إن أحدهم لا يكاد يملك قوت يومه، ولكنه كريم يجود بما عنده ابتغاء مرضاة الله.. **وخلاصة القول هنا:** أن من لم يعطي من اليسير لن يعطي من الكثير.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سبق درهم مائة ألف درهم» فقال رجل: وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال: «رجل له مال كثير أخذ من عرضه مائة ألف درهم تصدق بها، ورجل ليس له إلا درهمان فأخذ أحدهما فتصدق به» رواه النسائي.

وقال صلى الله عليه وسلم: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلِق». مسلم.

---

(١) هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين حقاً ـ محمود محمد الخزندار.

فمن استحيا من بذل اليسير وقع فيما هو شر منه، وهو المنع.

والإيثار صورة من أعظم صور الكرم؛ فقد أثنى الله عز وجل في كتابه الكريم على هذا الخُلق واصفاً من يتحلى به بأنه ممن وقي شح نفسه، وجعل الفلاح عاقبة له، ويدل على ذلك ما رواه البخاري في صحيحه من أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فبعث إلى نسائه فقلن: ما عندنا إلا الماء. فقال عليه الصلاة والسلام: «من يضم هذا أو يُضيف هذا؟

فقال رجل من الأنصار: أنا. وانطلق به إلى امرأته فقال: أكرمي ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقالت: ما عندنا إلا قوت الصبيان!.

فقال هيئي طعامك وأصبحي سراجك، ونومي صبيانك إذا أرادوا العشاء، فهيأت طعامها وأصبحت سراجها، ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تُصلح السراج فأطفأته، فجعلا يُريانه أنهما يأكلان فباتا طاويين.

فلما أصبح غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «ضحك الله الليلة - أو عجب - من فعالكما». فأنزل الله تعالى ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الحشر «٩».

إن النفقة طريق السعة، وإن السخاء سبب النماء. فهذه أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما كانت تراعي فقر زوجها الزبير في بداية حياتهما، فكانت مقتصدة في الإنفاق والمعيشة، ثم سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، ليس في بيتي شيء إلا ما أدخل علي الزبير، فهل علي جُناح أن أرضخ «أعطي» مما أدخل علي؟ فقال «ارضخي ما استطعت،

ولا توكي فيوكي اللّه عليك» متفق عليه.

ومن المعلوم أن الوكاء هو ما يُربط به فم القربة ليمنع تدفق ما بداخلها، وتمت الإشارة إليه لتحذيرها من أن منعها لما في يديها سيكون سبباً لمنع وصول رزق اللّه لها. وفي هذا الحديث حث على الصدقة ولو بالقليل من أموالنا، فإن القليل مع القليل كثير، فلا ينبغي للإنسان أن ينظر إلى قلة ما عنده فيحجم عن الصدقة.

وقالت عائشة رضي اللّه عنها: ذبحنا شاة فتصدقنا بها، فقلت يا رسول اللّه ما بقي إلا كتفها. فقال عليه الصلاة والسلام «بقي كلها غير كتفها» رواه الترمذي.

والصدقة تمحو الخطيئة، كما في حديث معاذ بن جبل رضي اللّه عنه أنه سأل النبي صلى اللّه عليه وسلم عن عمل يدخله الجنة ويباعده عن النار وفيه «ألا أدلك على أبواب الخير: الصوم جُنّة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار» الترمذي.

وقال صلى اللّه عليه وسلم: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل اللّه أو كالذي يصوم النهار ويقوم الليل». وفي راوية أبي هريرة: «كالقائم لا يفتر، والصائم لا يُفطر» رواه البخاري.

وعن أبي هريرة رضي اللّه عنه أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال: «كان رجل يداين الناس فيقول لفتاه: إذا أتيت مُعسراً فتجاوز عنه لعل اللّه عز وجل يتجاوز عنا، فلقي اللّه عز وجل فتجاوز عنه» البخاري.

وعن عدي بن حاتم رضي اللّه عنه قال: سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول:«ما منكم من أحد إلا سيكلمه اللّه ليس بينه وبينه ترجمان،

فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، فينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، فينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة» مسلم.

كما أن من فضائل الصدقة أنها تحقق أعظم ما يرجوه العبد، وهو أن يستظل بظل الله يوم لاظل إلا ظله، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظلّه ـ وذكر منهم ـ ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» البخاري.

وقال صلى الله عليه وسلم «كل امرئ في ظل صدقته حتى يُفصل ـ أو قال ـ يُحكم بين الناس» رواه احمد.

وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من التسويف في إخراج الصدقة فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله! أي الصدقة أعظم؟ فقال: «أن تصّدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تُمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان». رواه الشيخان.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث؛ صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له». ابن ماجه.

إن الإسلام قد أقر هذا الخلق الكريم وحث عليه، لكونه إحدى الصفات العظيمة التي تحقق للإنسان المجد والسؤدد في الدنيا، والأجر العظيم في الآخرة، إذا صلحت نية المنفق وصفت سريرته، لأن هذا شرط لرفع منزلة العمل ليكون عبادة متقبلة، مع ما يتحقق لفاعلها من حسن الأحدوثة وطيب

الثناء، على أن لا يغيب عنا بأننا أمة تميزت بالوسطية، وأن نظام الإنفاق في الإسلام محكوم بضوابط وتعاليم شرعية تنهى عن الإسراف والتبذير يقول الله تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾ «الإسراء: ٢٩» . ويقول سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾ «الفرقان: ٦٧».

وقال النبي صلى اللّه عليه وسلم: «كلوا واشربوا وتصدقوا من غير سرف ولا مخيلة».

ومما قال أبو الحسن الماوردي -رحمه اللّه- في هذا المعنى: «من التبذير أن ينفق الإنسان ماله فيما لا يجدي عليه نفعاً في دنياه، ولا يكسبه أجراً في أخراه .. وكل ما أنفقه فيما يكسبه عند اللّه أجراً، وعند العقلاء وأهل التمييز حمداً؛ فهو جود وليس بتبذير وإن عَظُم وكَثُر».





الفصل الثاني

البخـل





الكسندر بوشكين

أمير شعراء روسيا



ذم البخل

البخل صفة قبيحة، وخُلق ذميم، وهو إحدى السجايا الخسيسة التي توجب لصاحبها كل نقص وهوان، ومقت وازدراء.

«وهو داءٌ فتاك، كم فرّق بين أحباب! وأغلق بيوتاً، وهدم أُسَراً، ودمّر مجتمعات، وزرع الحقد والغل في الصدور فتقطعت الأواصر، وانصرمت الوشائج، وقام على أساسه سوق الحسد والبغض، وهو من أدوى الأدواء وأخبثها، يشعر بأن صاحبه لا يثق في اللّه تعالى، فهو دائماً يسيء الظن بخالقه ويحسب أنه لن يرزقه ولن يكرمه، وأن هذا الذي بين يديه من الخير والمال والنعمة لو انقضى فلن يأتي بعده خير، ولن يُخلف اللّه عليه سواه، وأن أمواله لو تصدق منها صار فقيراً معوزاً كالمتصدَّق عليهم، وما أيقن هؤلاء الظانون باللّه ظن السوء أن المال لا تنقصه الصدقة، بل تنميه وتبارك فيه»(١).

يقول الشيخ جمّاز بن عبد الرحمن الجمّاز في كتابه ـ الشح والبخل:

«إن هذه الخصلة الذميمة والخلة الشنيعة طهّر اللّه منها أنبياءه، ووقى شر تأصلها في نفوس أوليائه، ولها أثر شنيع، وخطر فظيع على الأفراد والمجتمعات؛ حيث تورث النفوس الهلع والطمع، وتركيزها في جل تحركاتها على الجمع دون الإنفاق، والأخذ دون العطاء».

وقال الحسن بن علي رضي اللّه عنهما: «البخل أن يرى الرجل ما يُنفقه تلفاً، وما يُمسكه شرفاً».

---

(١) موقع المسلم مقال للشيخ الدكتور ناصر العمر بعنوان «البخل وآثاره» نشر بتاريخ ١٤٢٨/٨/٢٨.

«وكانت السمعة والصيت عند أبناء الجاهلية عرضاً يخشون عليه أن يمس، فيتحدث الناس عنهم بما لا يُحبون، فكانوا يهينون أموالهم حفاظاً على سمعتهم.. فالناس بفطرتهم لا يحبون الشحيح البخيل، وإذا لم تتحقق المحبة لم تنفتح القلوب للاستجابة والاستقبال»[1].

قال الشاعر:

أصون عرضي بمالي لا أدنسه ... لا بارك الله بعد العرض في المال

وقد عاب الإسلام هذه الخصلة، وحذر منها تحذيراً شديداً، فقال عز وجل: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّه مِنْ فَضْلِه هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلّه مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ واللّه بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ آل عمران «١٨٠».

وهناك أُناسٌ كفروا نعمة اللّه ولم يشكروها فبخلوا بما آتاهم اللّه من فضله، ولم يكتفوا بذلك بل أمروا غيرهم به. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّه مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً﴾ النساء «٣٧».

وليس البخل منع الآخرين، وإنما هو في الحقيقة حرمان الإنسان نفسه من الخير: ﴿هَاأَنْتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّه فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِه وَاللّه الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ محمد «٣٨».

«إن البخل دليل على قلة العقل وسوء التدبير، وهو أصل لنقائص كثيرة،

---

(١) هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين حقاً - محمود الخزندار.

ويدعو إلى خصال ذميمة»[1] تحول دون الرجل والسيادة في قومه. فقد قال عليه الصلاة والسلام: «من سيدكم يا بني سلمة؟» قالوا: الجد بن قيس على أنّا نبخّله. قال: «وأي داء أدوى من البخل، بل سيدكم عمرو بن الجموح» البخاري.

ومن الأبيات المنسوبة لحاتم الطائي في هذا المعنى قوله:

يقولون أهلكت مالك فاقتصد وما كنت لولا ما تقولون سيّداً

وقال الهُذلي الأعلم[2]:

وإن سيادة الأقوام فاعلم لها صعداء مطلبها طويل
أترجو أن تسود بلا عناء وكيف يسود ذو الدعة البخيل

وقال ابن حبان: كل من ساد في الجاهلية والإسلام حتى عُرِفَ بالسؤدد، وانقاد له قومه، ورحل إليه القاصي والداني، لم يكن كمال سؤدده إلا بإطعام الطعام، وإكرام الضيف.

وقال ابن تيمية: المؤمنون يتمادحون بالشجاعة والكرم، وكذلك يتذامّون بالبخل والجبن.

وقال بعض الحكماء: الغني البخيل كالقوي الجبان.

لذلك قلّ أن يوجد جبان إلا وهو بخيل، ولا بخيل إلا وهو جبان، ولهذا قرن النبي صلى الله عليه وسلم بينهما حين استعاذ منهما، فقال: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضلع الدين وغلبة الرجال» البخاري.

---

(١) من مقال للدكتور سعيد عبدالعظيم بعنوان «البخل أصل النقائص» نشر بتاريخ ١٨/١/٢٠٠٦.

(٢) حبيب بن عبدالله الهذلي «الأعلم»: شاعر جاهلي، وهو أحد العدائين المشهورين، عاش حتى عصر صدر الإسلام.

كتبت د.أنوار عبد الله أبو خالد مقالاً [1] بعنوان «البخلاء مرضى ولكن لايعلمون» جاء فيه:

«لقد استعاذ سيد الخلق صلى الله عليه وسلم من البخل، وحذر منه لعلمه بأنه مرض وابتلاء يصيب العقل فيفسده، ويقلب موازينه، ويُصيب النفس فيمرضها، ويعلقها بحب المال وجمعه، فينقلب المال من وسيلة إلى غاية، ويصبح جمع المال في حد ذاته هدفاً، فتصيبه دعوة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بالتعاسة والشقاء والكآبة حين قال: (تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم ...) البخاري

ولعل هذا يفسر انتشار الكآبة وفقدان السعادة عند كثير من الناس الذين جعلوا المال هدفاً لهم فوقعوا في براثن البخل!!» ا.هـ.

كما أن رسولنا الأعظم صلى الله عليه وسلم أخبر أن البخل لا يجتمع في القلب مع الإيمان: «لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبداً، ولا يجتمع شح وإيمان في قلب عبد أبداً » النسائي.

وإذا افتقدت الأمة الجود بالمال والجود بالنفس فقد سارت في طريق الهلاك لما جاء في الحديث: «إياكم والشح! فإنما هلك من كان قبلكم بالشح أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا» أبو داود.

وقد حذّر عليه الصلاة والسلام من صفات شرار الخلق في آخر الزمان وكان من صفاتهم: «يتقارب الزمان، وينقص العمل، ويلقى الشح ويكثر الهرج...» البخاري.

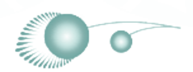
---

(١) جريدة الرياض العدد رقم « ١٤٥٧١ »بتاريخ «١١-٥-١٤٢٩».

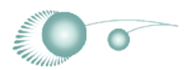
سأل كسرى جلساءه: أي شيء أضر على ابن آدم؟

قالوا: الفقر.

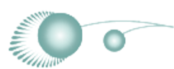
قال: الشُّح أضر منه، إن الفقير إذا وجد اتسع، وإن الشحيح لا يتسع إذا وجد.



وقال مصطفى لطفي المنفلوطي: البخلاء جمال عطشانة والمياه محملة على ظهورها.



كتب أرسطو [1] إلى رجل ليصله بشيء فلم يفعل، فكتب إليه: إن كنت أردت فلم تقدر فمعذور، وإن كنت قدرت فلم ترد؛ فسيأتيك يوم تريد فيه فلا تقدر.



وجد مكتوباً على حجر: انتهز الفرص عند إمكانها، ولا تحمل نفسك هم ما لم يأتك، واعلم أن تقتيرك على نفسك توفير لخزانة غيرك، فكم من جامع لبعل حليلته.

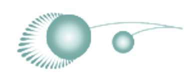


قال أكثم بن صيفي حكيم العرب: ذللوا أخلاقكم للمطالب، وقودوها إلى المحامد، وعلموها المكارم، ولا تقيموا على خلق تذمونه من غيركم، وصِلوا

(١) أرسطو: فيلسوف يوناني، وهو معلم الإسكندر الأكبر وأحد تلامذة أفلاطون، توفي عام «٣٢٢» ق. م.

من رغب إليكم، وتحلوا بالجود يكسبكم المحبة، ولا تقتعدوا البخل فتتعجلوا الفقر... أخذه الشاعر فقال:

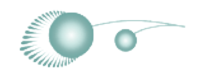
أمِـن خـوف فـقر تعجلته ... وأخـــرت إنـفـاق ما تجـمعُ
فصرت الفقير وأنت الغني ... وما كنت تعدو الذي تـصنعُ



قال أحد الحكماء: عجباً للبخيل المتعجل للفقر الذي منه هرب! والمؤخر للسعة التي إياها طلب! ولعله يموت بين هربه وطلبه، فيكون عيشه في الدنيا عيش الفقراء، وحسابه في الآخرة حساب الأغنياء، مع أنك لم تر بخيلاً إلا غيره أسعد بماله منه، لأنه في الدنيا مهتم بجمعه، وفي الآخرة آثم بمنعه.

قال الشاعر:

يفني البخيل بجمع المال مدته ... وللحـوادث والأيـــام مـــا يدعُ
كدودة القز مـا تبنيه يهدمهـا ... وغـــيرهـا بالذي تبنيه ينتفعُ



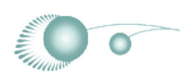
قالت أم البنين بنت عبدالعزيز أخت عمر بن عبدالعزيز: أفٍّ للبخل! والله لو كان قميصاً ما لبسته، ولو كان طريقاً ما سلكته. وكانت تعتق كل يوم رقبة، وتحمل على فرس في سبيل الله.

وكانت تقول: البخل كل البخل من بخل على نفسه بالجنّة.

قال زياد بن أبي سفيان: كفى بالبخل عاراً أن اسمه لم يقع في حمد قط! وكفى بالجود فخراً أن اسمه لم يقع في ذم قط!



قال أبو حاتم: من أراد أن يهُتك عرضه، ويُثلم دينه، ويملّه إخوانه، ويستثقله جيرانه؛ فليلزم البخل بما ملك.

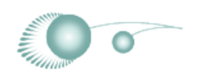


قال الحسن البصري[1]: أشقى الناس بماله البخيل، يشقى بجمعه في الدنيا، ويُحاسب على منعه في الآخرة، عيشُه عيش الفقراء، وحسابُه حساب الأغنياء.



قال يحيى بن معاذ[2]: مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلهما للعبد في ماله عند موته.

قيل: وما هما ؟ قال: يؤخذ منه كله، ويسأل عنه كله.



قال ابن القيم: «جود الرجل يحببه إلى أضداده، وبخله يبغضه إلى أولاده». وقال : «ولما كان البخيل محبوساً عن الإحسان، ممنوعاً عن البر

---

(١) الحسن بن يسار، ولد في المدينة عام «٢١»هـ رضع من أم سلمة زوجة النبي صلى الله عليه وسلم، وتربى في بيت النبوة. حفظ الحسن القرآن في العاشرة من عمره.كان فقيها، ناسكا، كثير العلم، فصيحا، توفي عام«١١٠» هـ

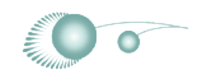
(٢) يحيى بن معاذ الرازي: من كبار المشايخ له كلام جيد، ومواعظ مشهورة . توفي عام ٢٥٨ هـ.

والخير، كان جزاؤه من جنس عمله، فهو ضيق الصدر ممنوع من الانشراح، ضيق العطن، صغير النفس، قليل الفرح، كثير الهم والغم والحزن، لا يكاد تُقضى له حاجة، ولا يُعان على مطلوب».

يقول إبراهيم الموصلي:

أرى الناس خلان الجواد ولا أرى بخيلاً له في العالمين خليلُ
وإني رأيت البخل يزري بأهله فأكرمت نفسي أن يقال: بخيلُ

فالبخيل محروم في الدنيا، مؤاخذ في الآخرة، خامل الذكر، لا يُذكر إلا بكل سوء.



قيل: «البخيل حارس نعمته، وخازن ورثته»، لأنه يكدح في جمع المال دون أن يُنفقه في تحصيل سعادة دنيوية، أو يتعامل به مع رب البرية، وسرعان ما يتركه للوارث....

قال الشاعر:

إذا كنت جمّاعاً لمالك ممسكاً فأنت عليه خازن وأمينُ
تؤديه مذموماً إلى غير حامد فيأكله عفواً وأنت دفينُ

فالمال وسيلة لنيل كثير من الغايات والمقاصد «ومن كانت المادة قد التهمته واستولت على قلبه، وجعلته يعد ويحصي، ويحجم عن المكارم استبقاء لما في الجيب، وحذراً مما يأتي به الغيب؛ فلا خير فيه» [1].

---

(١) هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين حقاً ـ محمود الخزندار.

يقول الشاعر:

يبقى الثناء وتذهب الأمـــوال ... ولكل دهـــــر دولة ورجـــالُ
ما نال محمدة الرجال وشكرهم ... إلا الجـــواد بماله المفضـــالُ
لا ترض من رجــل حــلاوة قوله ... حتى يصدق مـا يـقـول فـعــالُ

ورد في كتاب «البخلاء» للجاحظ:

«وهل تزيد حال من أنفق جميع ماله، ورأى المكروه في عياله، وظهر فقره، وشمت به عدوه، على أكثر من انصراف المؤنسين عنه، وعلى خشونة الملبس، وجشوبة المأكل، وهذا كله مجتمع في مسك البخيل، ومصبوب على هامة الشحيح، ومعجّل إلى اللئيم، وملازم للمنون، إلا أن المنفق قد ربح المحمدة، وتمتع بالنعمة» ا.هـ.

قال الشاعر:

وما ضــاع مال ورّث الحمد أهله ... ولكن أمـــــوال البخيل تضيع



إن الإنسان الذي يبخل بما آتاه اللّه من فضله لا حياة له لأنه كالشجرة الجرداء التي لا ثمر لها ولا ظلال، فهناك من يمسكون الأموال الطائلة ثم يشتغلون بنوافل العبادات البدنية كالقيام والصيام وختم القرآن، وتغافلوا بسبب حبهم للمال عن تتبع أولويات العمل الصالح.

وقد قيل لبشر الحافي: إن فلاناً الغني يكثر من نوافل الصوم والصلاة. فقال: المسكين ترك حاله ودخل في حال غيره، وإنما حال هذا إطعام الطعام للجياع، والإنفاق على المساكين.

والصدقة دليل وبرهان على إيمان صاحبها.. قال صلى الله عليه وسلم: «والصدقة برهان». رواه مسلم.

قال النووي: والبرهان هو الدليل على صدق المدَّعى، فالصدقة برهان على صدق المتصدق في إيمانه بالله وتصديقه بوعد الله على ما وعد من جزاء وعوض.

وهذا الصحابي الجليل أبو الدرداء رضي الله عنه حين سمع قول الله عز وجل: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ .. إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ.. وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ «الحاقة ٣٢ـ ٣٤» قال: قد نجانا الله من نصف هذه السلسلة بإيماننا بالله العظيم، أفلا نخلع نصفها الآخر؟ فحضّي على طعام المسكين يا أم الدرداء.

وكان ابن منبه يقول: أجود الناس في الدنيا من جاد بحقوق الله وإن رآه الناس بخيلاً بما سوى ذلك، وأبخل الناس في الدنيا من بخل بحقوق الله وإن رآه الناس كريماً جواداً بما سوى ذلك.

وأشد البخل في منع ما وجب لله أو وجب لخلقه وقد توعد الله عليه بالوعيد الشديد: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ.. يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ التوبة ٣٤ـ ٣٥.

«إن الأموال المستخفية في الخزائن، المختبئ فيها حق المسكين والبائس؛ شر جسيم على صاحبها في الدنيا والآخرة، إنها أشبه شيء بالثعابين الكامنة في جحورها كأنها رصيد الأذى للناس، بل إن الإسلام أبان أنها تتحول فعلاً إلى حيات قد مرقت واحتدت أنيابها تطارد صاحبها لتقضم يده التي غلّها

الشحّ»[1].

وفي حديث جابر بن عبدالله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ولا من صاحب مال لا يؤدي زكاته إلا تحوّل يوم القيامة شجاعاً أقرع يتبع صاحبه حيثما ذهب وهو يفرّ منه. ـ وفي رواية ـ يتبعه فاتحاً فاه، ويقال: هذا مالك الذي كنت تبخل به. فإذا رأى أنه لابد منه أدخل يده في فيه، فجعل يقضمها كما يقضم الفحل». البخاري.

وما من شيء أشق على الشيطان وأبطل لكيده، وأقتل لوساوسه من إخراج الصدقات، فعن بريدة رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «لايخرج رجل شيئاً من الصدقة حتى يفك عنها لحيي سبعين شيطاناً» أحمد.

إن اللّه جلّ جلاله قد حذرنا من اتباع خطوات الشيطان، يقول تعالى: ﴿وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ البقرة «٢٠٨». فهو في البداية يوسوس للمتصدق بأن الفقر سيحل به إذا أخرج صدقته «المستحبة»، فإن أطاعه فسوف يشرع في إغوائه وإغرائه بمزيد من البخل والإمساك، وبالتالي منع الزكاة «الواجبة» يقول سبحانه: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة «٢٦٨».

والعجب..!!

أن نسبة (٢,٥٪) تعني أن اللّه فرض جزءا واحدا لمستحقي الزكاة، وأبقى لصاحب المال تسعة وثلاثين جزءا؛ ومع هذا يوجد من تفوّق على أصحاب السبت في التحايل على أمر اللّه!.

---

(١) الشح والبخل – الشيخ جمّاز بن عبدالرحمن الجمّاز

كما أن نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم حذرنا من عواقب ارتكاب الذنوب، يقول عليه الصلاة والسلام: «إن العبد لُيحرم الرزق بالذنب يصيبه» أحمد.

فكيف يكون حال من عطل أحد أركان الإسلام الخمسة «الزكاة»، وحرم الفقراء من نصيبهم الذي جعله الله تزكية وطهرة للمال، فهذا الجزء البسيط الذي يمنع عن المال الجوائح إن لم يتم إخراجه فسوف يكون سبباً في تلف المال كله «فإذا أراد الإنسان أن يحفظ الله عليه ماله ويقيه شر التلف فعليه بإخراج زكاته طيبة بها نفسه»[(١)].

ولقد ورد في قصص القرآن ما يؤيد ذلك كما في قصة أصحاب الجنة الواردة في سورة القلم، فقد كان لرجل صالح من أهل ضروان باليمن بستان فيه الكثير من أنواع الثمار، وكان يسير فيه بسيرة حسنة شكراً لله على نعمه، فيخص الفقراء بنصيب وافر من محاصيله، ويطلب حضورهم في اليوم الذي يجني فيه الثمار لأخذ نصيبهم منه.

فلما مات الرجل ورثه أبناؤه، فأرادوا أن يحرموا الفقراء ما اعتادوه من أبوهم من الإحسان إليهم، فاتفقوا على أن يخرجوا لقطف ثمار البستان سراً حتى لا يراهم أحد، ولما عزموا على تنفيذ خطتهم والمضي فيها من منع وحرمان الفقراء أرسل الله آفة من السماء على جنتهم وهم نائمون، فكانت ناراً فأحرقته عن آخره، فتلفت الثمار، واسودت الأشجار من شدة الحريق، وأصبحت كالصريم أي كالليل في سواده.

وهكذا أذهب الله ما بأيديهم بالكلية رأس المال والربح والصدقة فلم يبق لهم شيء، كما قال تعالى ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾ أي هكذا عذاب من خالف أمر الله، وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه، ومنع حق المساكين والفقراء وذوي

---

(١) فضائل الإنفاق في سبيل الله - عثمان السعيد الشرقاوي.

الحاجات، وبدل نعمة الله كفراً! ثم قال سبحانه: ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ القلم «٣٣».

وحتى تزول صفة البخل يجب أن يتعود الإنسان البذل، فحب الشيء لا ينقطع إلا بإجبار النفس على مفارقته.

ويقول حاتم الطائي:

يرى البخيل سبيل المال واحدةً ... إن الجواد يرى في ماله سُبلا
إن البخيل إذا ما مات يتبعه ... سوء الثناء، ويحوي الوارث الإبلا
فاصدُق حديثك إن المرءَ يتبعُهُ ... ما كان يبني إذا ما نعشه حُملا
ليت البخيل يراه الناس كلهم ... كما يراهم فلا يُقْرى إذا نزلا
لا تعذليني على مال وصلتُ به ... رحماً وخير سبيل المالِ ما وصلا

ثم لينظر المرء في الأخبار الواردة في مدح السخاء، وما وعد الله به الأسخياء من التوفيق والتيسير، وكشف الكربات، وخلف النفقات، وتكفير السيئات، وليُوطِن نفسه على البذل والعطاء.

وما أحسن قول القائل:

ذهاب المالُ في حمد وأجرٍ ... ذهابٌ لا يُقال له ذهابُ!

ويجب على العاقل النظر في عواقب البخل، وما توعد الله عليه من عقاب في الأولى والآخرة لمن لم يشكر نعمة الله بالإحسان إلى خلقه، «فمن أحب أن يُسخر الله له من هو أقوى منه وأغنى، فليعن من هو أضعف منه وأفقر،لأن النعم إنما تحفظ وتدوم وتزداد بالشكر، وإن الشكر لا يكون باللسان وحده، ولو قال الإنسان ألف مرة: «الحمد لله» وهو يضن بماله إن كان غنيا، ويبخل

بجاهه إن كان وجيها، لا يكون حامداً لله»[1].

وكان الإمام ابن القيم رحمه الله يقول: «من رفق بعباد الله رفق الله به، ومن رحمهم رحمه، ومن أحسن إليهم أحسن إليه، ومن جاد عليهم جاد عليه، ومن نفعهم نفعه، ومن سترهم ستره، ومن عامل خلقه بصفة عامله الله بتلك الصفة بعينها في الدنيا والآخرة ، فالله لعبده حسب ما يكون العبد لخلقه» ا.هـ .

واما من يتصف بهذا الخُلق الذميم فعليه أن يعلم بأن أمره لا يخفى أبداً عن الناس، يقول زهير بن أبي سُلمى:

ومهما تكن عند امرئٍ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تُعلم

وقال بعض العلماء: «ما أسر عبد سريرة قط «خيراً أو شراً» إلا ألبسه الله رداءها».

ومما ورد في كتاب مراقي الجنان بالسماحة وقضاء حوائج الإخوان؛ ليوسف المقدسي قوله: «من طلبت إليه حاجة فلينظر في أمور قبل قضائها: ينظر أن السائل رآه محلاً لحاجته دون غيره، وانه ظن فيه قضاءها، ولولا ذلك لم يأته، وأنه يحبه ولو أبغضه لم يأته، وينظر ذله له وقيامه بين يديه وسؤاله إياه ثم يجعل نفسه محلاً لظنه وأهلاً لقضاء حاجته واغتنام أجره ودعائه، وبلوغ درجة الكرماء وأرباب السماحة ولاسيّما أن ذلك يزيل الشحناء، وينفي العداوة، ويوجب المحبة، وربما جازاه بما هو أعظم منها، مع ما ينال من الثواب الزائد والأجر العظيم يوم القيامة من الله عز وجل».

---

(١) من مقالة للشيخ علي الطنطاوي رحمه الله.

يقول الشاعر:

لا يجتني حــلــو المحــامد ماجدٌ   حــتى يذوق من المطــالب مُرّها

أما أصحاب الحقوق فعليهم الانتباه إلى أن إنظار المُعسر، أو التجاوز عن القرض، أو عن جزء منه صورة عظيمة من صور الكرم وسماحة النفس توجب لصاحبها عظيم الأجر من الله تبارك وتعالى؛ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كان تاجر يداين الناس، فإذا رأى معسراً قال لفتيانه: تجاوزوا عنه لعل الله أن يتجاوز عنا فتجاوز الله عنه» البخاري.

بل إن توفيق الدنيا والآخرة مرهون بتيسيرك على أخيك المعسر «من يسّر على معسر يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة» ابن ماجه.

وليحرص الإنسان على توظيف نعم الله في سبيل مرضاته ونفع عباده، لأن النفقة تنمي الإيمان وحسن الظن بالله، وتزيد الطمأنينة، وتدفع البلايا، وتطفئ الخطايا، وتغلق أبواب السوء، وتشرح الصدر، وتنيل الرفعة، وتستر العيوب، وفيها «عز الدنيا، وشرف الآخرة، وحسن الصيت، وخلود جميل الذكر. فإنا لم نجد شيئاً يبقى على ممر الدهر إلا الذكر حسناً كان أو قبيحاً. وقد قال الشاعر:

ولا شيء يدوم فكن حديثاً   جميل الذكر فالدنيا حديثُ

فانتهز فرصة العمر، ومساعدة الدنيا، ونفوذ الأمر، وقدم لنفسك كما قدموا تُذكر بالصالحات كما ذُكروا، وادّخر لنفسك في القيامة كما ادّخروا»[(١)] .

---

(١) من كتاب المستطرف في كل فن مستظرف ـ بهاء الدين الأبشيهي.





الفصل الثالث

أقوال في الكرم وبذل المعروف



أقوال في الكرم وبذل المعروف

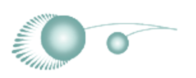
قال بعض أهل التفسير في قول الله تعالى: ﴿وَاجْعَل لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ الشعراء: ٨٤ إنه أراد حسن الثناء من بعده، والكرم وبذل المعروف خير ما يورث حسن الثناء.



قالوا: السخيّ من كان مسروراً ببذله، متبرعاً بعطائه، لا يلتمس عرَض دنيا فيحبط عمله، ولا طلب مكافأة فيسقط شكره، ولا يكون مثله فيما أعطى مثل الصائد الذي يلقي الحبَّ للطائرِ، لا يريد نفعَها ولكن نفع نفسِه.

يقول الشاعر في هذا المعنى:

ليس الكريم الذي يعطي عطيته
على الثناء وإن أعلى به الثمنا
بل الكريم الذي يعطي عطيته
لغير شيء سوى استحسانه الحسنا



قيل لبعضِ الحكماء: ما أفادَك الدهرُ؟ قال: العلمَ به، قيل: فما أحمدُ الأشياء؟ قال: أن تبقى للإنسان أحدوثةٌ حسنة.



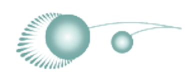
قيل: ثواب الجود خلفٌ ومحبة ومكافأة، وثواب البخل حرمان وإتلاف ومَذمّة.



قال بعض الحكماء: الجود حارس الأعراض.

وقال بعض الأدباء: من جاد ساد.

وقال بعض البلغاء: من بذل ماله أدرك آماله.



قال بعض العرب لولده: يا بنيّ لا تزهدنَّ في معروف، فإن الدهر ذو صروف، فكم من راغب كان مرغوباً إليه! وطالب كان مطلوباً ما لديه! وكن كما قال القائل:

وعُدّ من الرحمن فضلاً ونعمة ... عليك إذا ما جاء للخير طالبُ

ولا تمنعن ذا حاجةٍ جاء راغباً ... فإنك لا تدري متى أنت راغبُ



سُئل الإسكندر[1]: ما أكثر ما سررت به من ملكك؟ قال: اقتداري على اصطناع الرجال والإحسان إليهم.

---

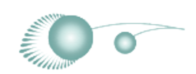
(١) الإسكندر يعتبر من أذكى وأعظم القادة العسكريين على مر العصور ويتصف بالشجاعة والسخاء، توفي عام «٣٢٣» ق. م وعمره ٣٢ عاما.

قال أرسطو: من انتجعَك من بلاده فقد ابتدأك بحسن الظن بك والثقةِ بما عندك.

وقال في رسالة له إلى الإسكندر: واعلم أن الأيام تأتي على كل شيء فتُخلق الأفعال، وتمحو الآثار، وتميت الذكر إلاّ ما رسخ في قلوب الناس من محبة تتوارثها الأعقاب فاجتهد بالظفر بالذكر الجميل الذي لا يموت .

ويؤيد ذلك قول الشاعر:

كل الأمور تزول عنك وتنقضي إلا الثنــاء فـإنه لك بـاقي



قال الوزير الفارسي بُزُرْجُمِهرْ[1]: خير أيام المرء ما أغاث فيه المضطر، واحتسب فيه الأجر، وارتهن فيه الشكر، واسترقَّ فيه الحُرّ، أي: بالإحسان إليه.

وقال أيضا: إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق منها فإنها لا تفنى، وإذا أدبرت عنك فأنفق منها فإنها لا تبقى. وقد أخذ الشاعر هذا المعنى فقال:

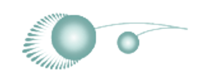
لا تبخلنّ بدنيا، وهي مقبلة
فليس ينقصها التبذير والسرفُ
وإن تولَّتْ، فأحرى أن تجود بها
فالحمد منها، إذا ما أدبرت، خلفُ

(١) بزرجمهر بن البختكان: وزير فارسي وهو من أشهر حكماء الدولة الساسانية، تروى عنه الكثير من الحكم والأمثال.

ولما قُدّم بزرجمهر إلى القتل قيل له: أنت في آخر وقت من أوقات الدنيا وأوّل وقت من أوقات الآخرة فتكلّم بكلام تذكر به، فقال: أيّ شيء أقول؟ الكلام كثير، ولكن إن أمكنك أن تكون حديثاً حسناً فافعل.

تطابق قوله مع قول ابن دريد في مقصورته الشهيرة:

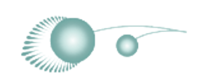
وإنما المرءُ حديثٌ بعدَه　　　فكُن حديثاً حسناً لمن وعى



كان كسرى أنوشروان[1] يقول: عليكم بأهلِ السخاء والشجاعة، فإنهم أهل حسن الظن بالله تعالى، ولو أن أهلَ البخل لم يدخُل عليهم من ضرر بخلهم، ومَذمّة الناس لهم، وإطباقِ القلوب على بغضهم، إلا سوءُ ظنهم بربهم في الخلَف، لكان عظيماً.

أخذ هذا المعنى محمودٌ الورّاق[2] فقال:

من ظنّ بالله خيراً جاد مبتدئاً　　　والبخلُ من سوء ظنّ المرء بالله



قال أكثمُ بن صَيفي[3]: إنما أنتُم أخبارٌ فطيّبوا أخباركم.

---

(١) كسرى أنوشروان بن قباذ بن يزدجرد بن بهرام جور، من أشهر ملوك الدولة الساسانية، دامت مدة ملكه تسعاً وأربعين سنة، وهو الملقب بالملك العادل، توفي سنة (٤٤)ق.هـ.

(٢) محمود الوراق بن الحسن: شاعر مجود من كبار شعراء عصره، سائر النظم والمواعظ، توفي سنة « ٢٥٥ » هـ..

(٣) أكثم بن صيفي بن رباح التميمي: كان حكيم العرب في الجاهلية، عاش مائة وتسعين سنة، وأدرك البعثة فأعلن إسلامه، وخرج للوفادة على النبي صلى الله عليه وسلم إلا أنه مات في الطريق.

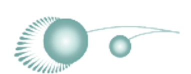
وأخذ هذا المعنى حبيبٌ الطائيُّ[1] فقال:

وما ابن آدم إلا ذِكْرُ صالحةٍ
أو ذكرُ سيئةٍ يسري بها الكَلِمُ
أما سمعت بدهرٍ باد أمَّته
جاءت بأخبارِها من بعدها أمم؟

ويقول أكثم: صاحب المعروف لا يقع، وإن وقع وجد له متكأ.

وفي بذل المعروف يقول الشاعر:

يد المعروف غُنْمٌ حيث كانت
تحمّلها كفورٌ أم شكورُ
ففي شكر الشكور لها جزاءٌ
وعند الله ما كفر الكفورُ



قال ذو الإصبع العدواني[2] لابنه: «يا بُني! ألن جانبك لقومك يحبوك، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم يكرمك كبارهم، ويكبر على مودتك

---

(١) حبيب بن أوس الطائي: «أبو تمّام» من أعلام شعراء العصر العباسي، يستخدم في شعره الألفاظ القوية. توفي سنة «٢٣١» هـ.

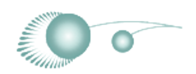
(٢) ذو الإصبع العدواني: هو حرثان بن محرث العدواني سمّي ذو الإصبع لأنه كانت برجله إصبع زائدة وقيل لأن حية نهشت إبهام رجله فقطعها، له شعر جيد ونثر، وكان من فرسان العرب وحكمائهم المعمرين في الجاهلية.

صغارهم، واسمح بمالك، وأكرم ضيفك، وأعن من استعان بك، فبذلك يتم سؤددك».

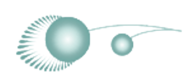
قال النعمان بن المنذر[١] يوماً لجلسائه: من أفضل الناس عيشاً وأنعمهم بالاً، وأكرمهم طباعاً، وأجلّهم في النفوس قدراً؟

فسكت القوم.. فقام فتى فقال: أبيت اللعن![٢]، أفضل الناس، من عاش الناس في فضله.

فقال: صدقت.



كتب رجل من البخلاء إلى رجل من الأسخياء يأمره بالإبقاء على نفسه ويخوّفه الفقر، فردَّ عليه: «الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً» وإني أكره أن أترك أمراً قد وقع لأمرٍ لعلّه لا يقع.



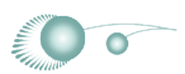
بينما رجل يمشي في فلاة من الأرض، سمع صوتاً في سحابة يقول: اسق حديقة فلان، فتنحى ذلك السحاب، فأفرغ ماءه في حَرّة، فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت ذلك كله، فتتبع الماء، فإذا رجل قائم في حديقته يحول الماء بمسحاته، فقال له: يا عبدالله: ما اسمك؟ قال: فلان ـ للاسم

---

(١) النعمان بن المنذر بن امرؤ القيس اللخمي تولى الملك بعد أخيه عمرو بن هند، وهو صاحب يومي البؤس والنعيم، كانت أمه يهودية من خيبر، وقد قتله الملك كسرى نحو سنة «٨» ق. هـ.

(٢) أبيت اللعن: امتنعت عن فعل ما يستوجب اللعن.

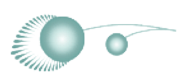
الذي سمع في السحابة ـ فقال له: يا عبد الله لم تسألني عن اسمي؟ فقال: إني سمعت صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلان لاسمك، فما تصنع فيها؟ **فقال:** أما إذا قلت هذا، فإني أنظر إلى ما يخرج منها، فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثاً، وأرد فيه ثلثه[1].



قال بعض السلف: منع الموجود سوء ظن بالمعبود، وتلا قوله تعالى: «وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين».



كان العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه كثيراً ما يقول: «ما رأيتُ رجلاً أوليته معروفاً إلا أضاء ما بيني وبينه، ولا رأيت رجلاً أوليته سوءاً إلا أظلم ما بيني وبينه، فعليكم بالإحسان واصطناع المعروف».



قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «والذي وسع سمعه الأصوات ما من أحد أدخل على قلب فقير سروراً إلا خلق الله له من هذا السرور لطفاً فإذا نزلت به نائبة جرى إليها لطف الله كالماء في انحداره حتى يدرأها عنه».



---

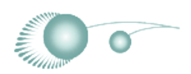
(١) وردت هذه القصة في حديث شريف رواه البخاري ومسلم.

قال عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما - : «سادات الناس في الدنيا الأسخياء، وفي الآخرة الأتقياء».

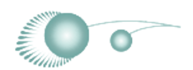
وقال رضي الله عنه: «ثلاثة لا أكافئهم: رجل بدأني بالسلام، ورجل أوسع لي في المجلس، ورجل اغبرَّت قدماه في المشي إلي إرادة التسليم عليّ. فأما الرابع فلا يكافئه عني إلا الله عز وجل!.

قيل: ومن هو؟

قال: رجل نزل به أمر، فبات ليلته يفكّر بمن ينزله، ثم رآني أهلاً لحاجته، فأنزلها بي».



قيل لمعاوية رضي الله عنه: أيُّ الناس أحب إليك؟ قال: من كانت له عندي يد صالحة، قيل: فإن لم تكن له، قال: فمن كانت لي عندهُ يد صالحة.



سأل معاويةُ رضي الله عنه صعصعةَ بن صوحان[1]: ما الجودُ؟ فقال: التبرع بالمال، والعطية قبل السؤال.

توافق كلامه مع قول الشاعر:

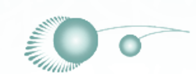
كريمٌ على العلاّت، جزل عطاؤه

ينيل، وإن لم يعتمد لنوالِ

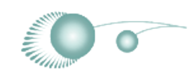
---

(١) صعصعة بن صوحان: كان خطيباً بليغاً من أهل دارين، مات نحو سنة « ٦٠ » هـ.

وما الجود من يعطي إذا ما سألته
ولكنَّ من يعطي بغير سؤالِ



كان عبدالله بن جعفر رضي الله عنه[1] كريماً إلى حد السرف، فقال له معاوية رضي الله عنه يعاتبه: ألا تعلم أن الدنيا تقبل حيناً وتدبر حيناً؟. فقال عبدالله: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى عودني عادة، وعودت عباده عادة، وأخشى إن قطعت عادتي عن عباده أن يقطع عادته عني.



تمثل رجل عند عبدالله بن جعفر بقول الشاعر:

إن الصنيعة لا تكون صنيعة
حتى يصاب بها طريق المصنعِ
فإذا أصبت صنيعة فاعمد بها
لله أو لذوي القرابة أو دعِ

فقال عبدالله بن جعفر: «هذان البيتان يبخّلان الناس، لا. ولكن أمطر المعروف إمطاراً، فإن أصاب الكرام كانوا له أهلاً، وإن أصاب اللئام كنت له أهلاً».



---

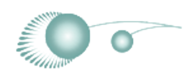
(١) عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ولد بأرض الحبشة حين هاجر أبواه إليها، كان كريماً يُسمى بحر الجود، مات سنة «٨٠»هـ.

كان سعيد بن العاص رضي الله عنه[1] يقول على المنبر: من رزقه الله رزقاً حسناً فلينفق منه سرّاً وجهراً، حتى يكون أسعد الناس به، فإنما يُترك ما يُترك لأحد رجلين: إما لمصلح فلا يقلّ عليه شيء، وإما لمفسد فلا يبقى له شيء. أخذه الشاعر فقال:

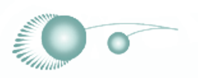
أسعِدْ بمالك في الحياة، فإنما
يبقى خلافَك مصلح أو مفسدُ
فإذا جمعت لمفسد لم يغنه
وأخو الصلاح قليله يتزيَّدُ

كما ورد ضمن وصية لسعيد بن العاص قوله لأبنائه:

«يا بَنيَّ، إن المكارمَ لو كانَتْ سهلة يسيرة لسابقكم إليها اللئام، ولكنها مرة كريهة لا يصبر عليها إلا من عرف فضلها، ورجا ثوابها».



قال حكيم بن حزام رضي الله عنه[2]: «ما أصبحت صباحاً قط فرأيت بفنائي طالبَ حاجةٍ قد ضاق بها ذرعاً فقضيتها إلا كانت من النِّعم التي أحمد الله عليها، ولا أصبحت صباحاً لم أرَ بفنائي طالب حاجة إلا كان ذلك من المصائب التي أسأل الله عز وجل الأجر عليها».



---

(١) سعيد بن العاص بن أمية القرشي، صحابي من الأمراء الفاتحين، كان شريفاً جواداً حليماً ذا عقل وحزم، مات سنة «٥٨» هـ.

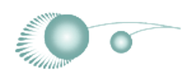
(٢) حكيم بن حزام بن خويلد الأسدي القرشي: ابن أخي أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، أسلم يوم الفتح، اشتهر بالجود والسخاء، وكان من سادات قريش في الجاهلية والإسلام، توفي سنة « ٥٤ » هـ.

قال الإمام الشافعي رحمه الله:

وأسعد الناس من بين الورى رجلاً
تُقضى على يديه للناس حاجاتُ
لا تمنعن يد المعروف عن أحد
ما دمت مقتدراً فالسعد تاراتُ
واشكر فضائل صنع الله إذ جعلت
إليك، لا لك عند الناس حاجاتُ
قد مات قوم وما ماتت مآثرهم
وعاش قوم وهم في الناس أمواتُ



قال أسماء بن خارجة[1]: ما أحب أن أَرُدّ أحداً عن حاجة طلبها، لأنه لا يخلو أن يكون كريماً فأصون له عرضه، أو لئيماً فأصون عرضي منه.



قال المهلّب بن أبي صفرة[2] لبنيه: «يا بنيّ! إن ثيابكم على غيركم أحسن

---

(١) أسماء بن خارجة بن حصن الفزاري: من كبار الأجواد، وهو ابن أخي عيينة بن حصن أحد المؤلفة قلوبهم، توفي سنة «٣٦» هـ.

(٢) المهلب بن أبي صفرة بن ظالم الأزدي: أحد الولاة الأبطال الأجواد، حارب الخوارج وانتصر عليهم، ولي خراسان ومات بها سنة «٨٣» هـ.

منها عليكم، ودوابّكم تحت غيركم أحسن منها تحتكم».

وقال لهم يوما: «لا تتكلوا على ما سبق من فعلي وافعلوا ما ينسب إليّ»، ثم قال متمثلاً:

إنما المجدُ ما بنى والدُ الصدق   وأحـيا فعـالَه المـولودُ

وقال: «عجبت لمن يشتري المماليك بماله، ولا يشتري الأحرار بمعروفه».

وقال أيضاً: «ابتداء الفضل يد موفورة، والبذل بعد الطلب يد مقبوضة».

ومن بديع قوله: «ليس للأحرار ثمن إلا الإكرام، فأكرم حراً تملكه».

وأعتقت هند بنت المهلّب في يومٍ واحدٍ أربعين رقبة، وهي التي تقول: «إذا رأيتم النعم مستدرّة، فبادروها بتعجيل الشكر قبل حلول الزوال».



قال أبو مسلم الخولاني[1]: «ما شيء أحسن من المعروف إلا ثوابه، وما كلّ من قدر على المعروف كانت له نية، فإذا اجتمعت القدرة والنية تمت السعادة»، وأنشد:

إن المكارم كلهـا حسـن   والبذل أحسن ذلك الحسنِ

كم عـارفٍ بي لستُ أعرفه   ومخـبرٍ عني، ولم يـرني

يأتيهم خـبري، وإن بَعُدَتْ   داري، وبوعد عنهم وطني

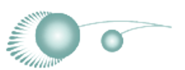
إني لحـرِّ المـال ممتهن   ولحـرِّ عرضي غير ممتهنِ

---

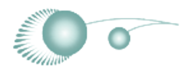
(١) عبدالله بن ثوب الخولاني: فقيه عابد زاهد، أسلم قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره، قدم المدينة في خلافة أبي بكر ثم هاجر إلى الشام ومات سنة « ٦٢ » هـ.



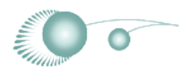
قيل للحسن بن سهل[1]: «لا خيرَ في السرف»، فقال: «لا سرفَ في الخير»، فقلب اللفظ، واستوفى المعنى.



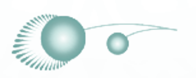
قيل لقيس بن عاصم: بم سُدت قومك؟ فقال:» ببذل الندى، وكف الأذى، ونصر المولى».



عوتب سهل بن عبدالله المَرْوَزيّ في كثرة الصدقة، فقال:»لو أن رجلاً أراد أن ينتقل من دارٍ إلى دار، هل كان يبقي في الأولى شيئاً؟».



قال رجل لأبي عقيل البليغ العراقيّ: كيف رأيت مروان بن الحكم عند طلب الحاجة إليه؟ قال: رأيت رغبته في الإنعام فوق رغبته في الشكر، وحاجته إلى قضاء الحاجة أشد من حاجة صاحب الحاجة.

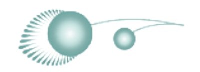


(١) الحسن بن سهل: الوزير الكامل « ذو الرئاستين » تزوج المأمون ابنته بوران، كان كريماً كثير العطاء ، توفي سنة « ٢٣٦ » هـ.

قال عبدالعزيز بن مروان[1] «إذا أمكنني الرجل من نفسه حتى أضع معروفي عنده، فيده عندي أعظم من يدي عنده». وأنشد لابن عباس رضي الله تعالى عنهما:

إذا طارقات الهمِّ ضاجعت الفتى
وأعمل فكر الليل، والليل عاكرُ
وباكرني في حاجة، لم يكن لها
سواي ولا من نكبة الدهر ناصرُ
فرّجتُ بمالي همّه عن خناقه
وزايله الهمُّ الطروق المساورُ
وكان له فضل عليّ بظنّه
بي الخير، إني للذي ظن شاكرُ

وكان يقول: واعجباً للمؤمن! يوقن أن الله تعالى يرزقه، ويوقن أن الله تعالى يُخلف عليه، كيف يدّخر مالاً عن عظيم أجر وحُسن سماع؟ .



باع عبدالله بن عتبة بن مسعود أرضاً بثمانين ألفاً. فقيل له: لو اتخذت لولدك من هذا المال ذخراً. فقال: «بل أجعله ذخراً لي، وأجعل الله ذخراً لولدي». وقسمه بين ذوي الحاجات.



---

(١) عبدالعزيز بن مروان بن الحكم: هو والد الخليفة عمر ، ولي مصر وكان جواداً كريماً ممدحاً، توفي سنة «٨٦» هـ.

قال ابن المقفع[١]: «عوّد نفسك السخاء، واعلم أنه سخاءان: سخاوة نفس الرجل بما في يده، وسخاوته عما في أيدي الناس».



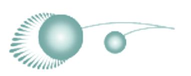
قال رجل: كنت أمشي مع سفيان بن عيينة إذ أتاه سائل ولم يكن معه ما يعطيه فبكى.

فقلت: ما يبكيك؟

قال: أي مصيبة أعظم من أن يؤمل فيك رجل خيراً فلا يصيبه!

يقول ناصيف اليازجي في هذا المعنى:

إِنّ الكريمَ الّذِي لا مالَ فِي يدهِ ... مَثَلُ الشُّجاعُ الّذي في كَفّهِ شَلَلُ



شكا رجل إلى إياس بن معاوية[٢] كثرة ما يهب ويصل وينفق، فقال: إن النفقة داعية إلى الرزق، وكان جالساً بين بابين فقال للرجل: أغلق هذا الباب، فأغلقه، فقال: هل تدخل الريح البيت؟ قال: لا، قال: فافتحه، ففتحه، فجعلت الرياح تخترق البيت، فقال: هكذا الرزق! إنك إذا غلّقت الباب لم تدخل الريح، وكذلك إذا أمسكت لم يأتك.

---

(١) عبدالله بن المقفع: من أبناء الفرس الذين نشأوا بين العرب، تعلم صناعة الكتابة واشتهر ببلاغته وسهولة أسلوبه، وهو من كبار المؤلفين والمترجمين، وله كتاب «كليلة ودمنة» مات سنة «١٥٤» هـ.

(٢) إياس بن معاوية بن قرة المزني، تولى القضاء في عهد عمر بن عبدالعزيز، حفلت كتب السير والأدب والتراجم بالروايات التي تظهر ذكاءه وفراسته، توفي سنة «١٢٢ » هـ.



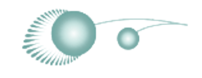
كان خالد بن عبدالله القسري[1] يقول: «تنافسوا في المغانم، وسارعوا إلى المكارم. واكتسبوا بالجود حمداً ولا تكسبوا بالمال ذماً. ولا تعِدوا بمعروف ولم تعجلوه. واعلموا أن حوائج الناس نعمة من الله عليكم فلا تملّوها فتعود نقماً».

وقال يوماً على المنبر: «أيها الناس، عليكم بالمعروف، فإن الله لا يُعدم فاعله جوازيه، وما ضعفت الناس عن أدائه قوي الله على جزائه».

أخذه من قول الحطيئة:

من يفعل الخير لا يُعدَمْ جوازيَه ... لا يذهب العُرف بين الله والناسِ

وأخذه الحطيئة من بعض الكتب القديمة. يقول الله تعالى فيما أنزله على داود عليه السلام: «من يفعل الخير يجده عندي، لا يذهب العُرف بيني وبين عبدي».



(١) خالد بن عبد الله القسري، أحد خطباء العرب وأجوادهم، كان أميراً مهيباً، قتل بالكوفة سنة «١٢٦» هـ.



الفصل الرابع

صور مشرقة من كرم الأنبياء والصحابة



ضيوف خليل الرحمن

ذكر اللّه تعالى في كتابه العزيز قصة إكرام إبراهيم عليه السلام لضيفه من الملائكة وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام حيث ضافوه على صورة رجال حسان الوجوه، يقول سبحانه: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ .. إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ .. فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ .. فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ﴾ الذاريات «٢٤ – ٢٧».

ففي هذه الآيات إشارات كثيرة إلى الضيافة وحقوقها، وتضمنت وجوها متعددة من الثناء على خليل اللّه كما يأتي:

- ﴿ضيف إبراهيم المكرمين﴾ فوصف ضيفه بأنهم مكرمون لإكرامه لهم.

- ﴿إذ دخلوا عليه﴾ فلم يذكر استئذانهم لأنه قد عرُف بإكرام الضيفان، واعتاد قِراهم، فبقي منزل أضيافه مطروقاً لمن ورده لا يحتاج إلى استئذان، بل استئذان الداخل دخوله، وهذا غاية ما يكون من الكرم.

- ﴿فقالوا سلاماً قال سلامٌ﴾ وهذا تضمن مدحاً آخر له عليه السلام، حيث رد عليهم السلام بأحسن مما حيوه به، فتحيتهم له كانت باسم منصوب متضمن لجملة فعلية، وتحيته لهم باسم مرفوع متضمن لجملة اسمية، ولا ريب أن الجملة الاسمية تقتضي الثبوت واللزوم، والفعلية تقتضي التجدد، فكانت تحيته أكمل وأحسن.

- ﴿قوم منكرون﴾ هذا مدح له في حسن مخاطبته للضيف، لأن هذا

القول ألطف من أن يقول أنكرتكم.

- ﴿فراغ﴾ الروغان هو الذهاب بسرعة واختفاء بحيث لا يكاد يشعر به الضيف إلا وقد جاء بطعام ضيافته.

- ﴿إلى أهله﴾ وهذا أيضاً مدح له، لما فيه من الإشارة إلى أن كرامة الضيف مهيأة وحاصلة عند أهله لاعتيادهم على الضيافة.

- ﴿فجاء﴾ يدل هذا على أنه يخدم ضيفه بنفسه.

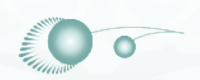
- ﴿بعجل﴾ لم يأتهم ببعضه، وإنما جاء به كاملا ليتخيروا من أطايب لحمه ما شاؤوا، وهذا من تمام كرمه.

- ﴿سمين﴾ وصف العجل بأنه سمين لا هزيل، وهذا من نفائس أموالهم فآثر به ضيفانه.

- ﴿فقربه إليهم﴾ أنه قربه إليهم ولم يضعه في مكان ويقربهم إليه، وهذا أبلغ في الكرامة.

- ﴿ألا تأكلون﴾ صيغة عرض مؤذنة بالتلطف تشتمل على مدح له لما فيها من الأدب مع الضيف.

ومن المعلوم أن إبراهيم الخليل عليه السلام هو أول من ضيّف الضيفان، وأول من بنى داراً للضيافة، وكان إذا حضر طعامه ولم يحضر من يأكل معه يخرج ميلاً أو ميلين يلتمس من يأكل معه، وعلاوة على كرمه عليه السلام بماله فلا ننسى كرمه بنفسه يوم أُلقي في النار! وكرمه بولده يوم أُمِر بذبحه.



موسى عليه السلام والرجل الصالح

حين ورد موسى بن عمران عليه السلام ماء مدين وجد عليه عدداً كبيراً من الناس يسقون مواشيهم، ووجد من دونهم امرأتين تذودان ماشيتهما، فسألهما عن أمرهما؟. فأخبرتاه بأنهما لا تسقيان ماشيتهما حتى يصدر الرعاة عن الماء، وأن أباهما شيخ كبير، فسقى لهما ثم تولى إلى ظل شجرة وقد بلغ به الجهد والجوع غايته، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ «القصص ٢٤».

ففطنت الجاريتان لذلك، فذهبتا إلى أبيهما فاستنكر سرعة رجوعهما، فأخبرتاه بما كان من أمرهما مع موسى عليه السلام.

فقال: ينبغي لهذا أن يكون جائعاً.

فأمر إحداهما أن تذهب وتدعوه، فجاءته تمشي على استحياء «أي مشي الحرائر» وقالت ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ «القصص ٢٥» صرّحت له بهذا لئلا يتوهم السامع من كلامها ريبة وهذا من تمام حيائها وعفافها.

أما هو فحين سمع أن دعوته أجر لسقياه كره ذلك وأراد أن لا يتبعها، ثم لم يجد بدّاً من الذهاب لأنه كان في أرضٍ مسبعة وخوف، فذهب معها، فأتيا إلى والدها والعَشاء مهيّأ.

فقال: اجلسْ فكُل.

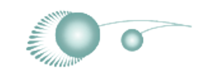
فقال موسى: لا.

قال: ألستَ بجائع؟

قال موسى: بلى، ولكني من أهل بيت لا نبيعُ شيئاً من عملِ الآخرةِ بملء الأرض ذهباً، وأخشى أن يكون هذا أجراً لما سقيتُ لهما.

فقال: لا يا شابُّ.. ولكنها عادتي وعادةُ آبائي قِرى الضيفِ، وإطعامُ الطعام.

فجلسَ موسى عليه السلام فأكل.



الدنيا وأصحابها

خرج عيسى عليه السلام يسيح في الأرض فصحبه يهودي وكان معه رغيفان ومع عيسى رغيف واحد.

فقال له عيسى: اتشاركني في طعامك؟

قال اليهودي: نعم.

وحين علم اليهودي أن عيسى عليه السلام معه رغيف واحد فقط ندم، فانتظر حتى قام عيسى إلى الصلاة فذهب وأكل رغيفاً، فلما أتم عيسى صلاته قدما طعامهما.

فقال عيسى لصاحبه: أين الرغيف الآخر الذي معك؟

فقال: ما كان إلا رغيفاً واحداً.

فأكل عيسى رغيفاً وصاحبه رغيفاً، ثم انطلقا فلقيا أعمى، فقال له عيسى: أرأيت إن عالجتك حتى يرد الله بصرك فهل تشكره؟ قال: نعم. فمسح عينيه ودعا الله له فأبصر.

فقال عيسى لليهودي: بالذي أراك الأعمى يبصر أما كان معك إلا رغيف؟

فقال: والله ما كان إلا رغيف واحد.

فسكت عيسى عنه ومضيا في طريقهما فمرا بظباء ترعى فدعا عيسى عليه السلام ظبياً منها فذبحه، وبعد أن أكلا منه.

قال عيسى للظبي: قم بإذن الله. فقام.

فقال اليهودي: سبحان الله.

فقال عيسى: بالذي أراك هذه الآية من أكل الرغيف الثالث؟

فقال : ما كان إلا رغيف واحد .

فمضيا فمرا بنهر عظيم فأخذ عيسى بيد اليهودي فمشى به على الماء حتى جاوزاه.

فقال الرجل: سبحان الله.

فقال عيسى: بالذي أراك هذه الآية من صاحب الرغيف الثالث؟

فقال الرجل: والله ما كان إلا رغيفاً واحدا.

فخرجا حتى أتيا قرية عظيمة خربة، وإذا قريب منهما ثلاثة أحجار كبيرة من ذهب.

فقال عيسى عليه السلام: واحدة لي، وواحدة لك، وواحدة لصاحب الرغيف الثالث.

فقال الرجل: أنا صاحب الرغيف الثالث أكلته وأنت تصلي.

فقال عيسى: هي لك كلها. وفارقه.

فأقام الرجل عليها ليس معه ما يحملها عليه فمر به ثلاثة نفر فقتلوه وأخذوا الذهب.

فقال اثنان منهم لواحد: انطلق إلى القرية فائتنا بطعام، فذهب.

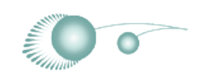
فقال أحد الباقين: نقتل هذا إذا جاء ونقسم هذا بيننا.

قال الآخر: نعم.

وأما الذي ذهب لشراء الطعام فقد قال في نفسه: أجعل في الطعام سماً فأقتلهما وآخذ الذهب وحدي. ففعل ما أملاه عليه الشيطان.

فلما عاد بالطعام المسموم أكلاه بعد أن قتلا صاحبهما فماتا هما أيضاً بجوار الذهب.

فمر عيسى عليه السلام بهم بعد ذلك. وعندما رأى الأربعة صرعى عند الذهب أشار إليهم وإلى الذهب قائلاً لمن معه من الحواريين: هكذا الدنيا تفعل بأهلها.. فاحذروها.



كرم الصحابة

كان الكرم إحدى السجايا الحميدة التي تحلى بها الصحابة الكرام رضي الله عنهم، والذين كانوا عمود الإسلام، ومن قامت على أكتافهم مسؤولية نشره وتعليمه والدعوة إليه.

فهذا أبو بكر الصديق [1] رضي الله عنه أسلم وفي منزله أربعون ألف درهم، فخرج مهاجراً وما له غير خمسة آلاف، كل ذلك ينفقه في الرقاب والعون على الإسلام، وتصدق في غزوة تبوك بماله كله، حتى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم هاله ما رأى، فقال له: «ماذا أبقيت لأهلك» فقال: أبقيت لهم الله ورسوله!.

وروى الإمام مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من أنفق زوجين في سبيل الله، نودي في الجنة، يا عبدالله: هذا خير! فمن كان من أهل الصلاة، دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة، دُعي من باب الصدقة. ومن كان من أهل الصيام، دُعي من باب الرّيان.

فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي! هل يُدعى أحدٌ من تلك الأبواب كلها؟

---

(١) عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن كعب التيمي القرشي ولد سنة «٥١» ق.هـ كان سيداً من سادات قريش وغنيا من كبار موسريهم، رفض عبادة الأصنام في الجاهلية، وعُرف برجاحة العقل ورزانة التفكير، وهو أول من أسلم من الرجال، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأول الخلفاء الراشدين، واستمرت خلافته قرابة سنتين وأربعة أشهر توفي سنة «١٣» هـ.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نعم، وأرجو أن تكون منهم».

وكان أمير المؤمنين عمر[1] رضي الله عنه، مع قلة ماله، كثير الصدقة، ويتصدق من أجود ماله، ومن أحب الأشياء عنده، عملاً بقول الله عز وجل: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ آل عمران «٩٢».

قال ابن عمر رضي الله عنهما: أصاب عمر رضي الله عنه أرضاً بخيبر، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، إني أصبت أرضاً بخيبر، والله ما أصبت مالاً قط، هو أنفس عندي منه، فما تأمرني فيه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن شئت تصدقت بها وحبست أصلها» فجعلها عمر صدقة لا تباع ولا توهب ولا تورث.

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذكر الفقراء، فقال: إن سعيد ابن حِذْيَم منهم، فأعطاه ألف دينار، وقال: «إذا أعطيتم فأغْنوا».

وكان هذا الخليفة الزاهد، إذا أُرسلت إليه غنائم البلاد المفتوحة يتورع عنها، ولا يأخذ منها شيئاً، بل يضعها في بيت مال المسلمين، وهذا من أعلى درجات سخاء النفس.

وكان عثمان بن عفان[2] رضي الله عنه من كبار تجار قريش، وعُرف بمكارم الأخلاق وصلة الرحم والبذل والكرم فأحبته قريش لذلك حباً شديداً

---

(١) عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبدالعزى القرشي ولد عام «٤٠» ق.هـ اسلم في السنة السادسة من البعثة لُقب بالفاروق وهو ثاني الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، ومن علماء الصحابة وزهادهم. وفي عهده فتحت العراق ومصر وليبيا والشام وفلسطين وصارت القدس تحت ظل الدولة الإسلامية وقضى على أكبر قوتين في زمانه دولة الروم ودولة الفرس، استشهد عام «٢٣» هـ .

(٢) هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية الأموي القرشي ، ولد عام «٤٧»ق.هـ وهو أحد العشرة الأوائل الذين دخلوا في الإسلام، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، اتسعت في عهده الدولة الإسلامية، ومن أبرز مآثره جمع القرآن في مصحف مكتوب برسمه، استشهد عام «٣٥» هـ .

حتى قيل: إن المرأة كانت إذا لاعبت طفلها تقول:

أحبـــك والرحمن حبّ قريش لعثمان

فلما شرح الله صدره للإسلام بذل في نصرة دين الله كثيراً من أمواله، وكانت له أياد بيضاء سجلها له التاريخ، فقد اشترى بئر رومة عند هجرة المسلمين إلى المدينة وجعلها في سبيل الله، وكذا شراؤه أرضاً بجوار مسجد رسول الله وضمها له، ومن مآثره تجهيز جيش العسرة بألف بعير وسبعين فرساً، ثم مجيئه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بألف دينار، وقيل: سبعمائة أوقية ذهب لتجهيز الجيش، فجعل النبي عليه الصلاة والسلام يقلّبها ويقول: «ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم».

ومن المواقف التي تدل على سماحته وجوده وكرمه رضي الله عنه ما روي من أن الناس قد أصابهم قحطٌ في خلافة أبي بكر، فلما اشتدّ بهم الأمر جاؤوا إلى أبي بكر وقالوا: يا خليفةَ رسول الله، إن السماء لم تمطر، والأرض لم تنبت، وقد توقّع الناسُ الهلاك، فما تصنع؟ فقال لهم: انصرفوا واصبروا، فإني أرجو الله ألا تُمسوا حتى يفرج الله عنكم. فلمّا كان في آخر النهار ورد الخبر بأن عيراً لعثمان بن عفان جاءت من الشام. فلما جاءت خرج الناس يتلقّونها، فإذا هي ألفُ بعير موسقة بُرّاً وزيتاً وزبيباً، فجاءه التجّار، فقال لهم: ما تريدون؟ قالوا: إنك لتعلم ما نريد! بعنا من هذا الذي وصل إليك، فإنك تعلم ضرورة الناس إليه! قال: حباً وكرامة. كم تربحونني على شرائي؟ قالوا: الدرهَم درهمين. قال أعطيتُ زيادة على هذا. قالوا: أربعة. قال: أعطيت زيادة على هذا. قالوا: خمسة. قال: أعطيت أكثر من هذا. قالوا: يا أبا عمرو، ما بقي في المدينة تجارٌ غيرنا وما سبقنا إليك أحد،

من ذا الذي أعطاك؟ قال: إن الله أعطاني بكل درهم عشرة. أعندكم زيادة؟ قالوا: لا. قال: فإني أشهدُ الله أني جعلت ما حملت هذه العير صدقة لله على المساكين وفقراء المسلمين.

وأما علي بن أبي طالب[1] رضي الله عنه فإنه نال أعلى درجات الكرم ومراتبه، فقد قيل: إن الجود بالنفس أقصى غاية الجود، وهو قد باع نفسه لله فداءً للنبي صلى الله عليه وسلم ليلة الخروج للغار، حيث نام في فراش الرسول عليه الصلاة والسلام أثناء حصار المشركين للمكان وقد غلب على ظنه أنه سيُقتل.

وكان رضي الله عنه من أفقر الخلفاء حيث صح فيه دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم عندما قال: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً» وفي رواية «كفافاً» رواه الشيخان.

ولكنه كان صابراً على فقره، راضياً بقدر الله فيه، زاهداً في الدنيا، معرضاً عن زينتها، ورِعاً عن أموال المسلمين، وما في بيت المال.. ومن المعلوم أن من أسخى السخاء سخاوة نفس الرجل عما في أيدي الناس.

وروي أن خازن بيت المال بالكوفة جاء إلى علي رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين! امتلأ بيت مال المسلمين بالمال والغنائم، فقال: الله أكبر، ثم مشى حتى قام على بيت المال فلما رآه قال: عليّ بأشياخ الكوفة، فنودي في الناس، فلما حضروا بدأ في إعطائهم منه وهو يقول: «يا صفراء ويا بيضاء

---

(١) علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب، ولد سنة «٢٣» ق.هـ وهو أول من أسلم من الصبيان ، كان أحد كتبة الوحي، وعُرف بالحكمة ورجاحة العقل والزهد والشجاعة والبراعة في فنون القتال، وهو رابع الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، بويع بالخلافة سنة ٣٥ هـ واستشهد عام «٤٠» هـ .

غُرّي غيري!» وظل يعطي الناس حتى ما بقي منه دينار ولا درهم، ثم أمر بنضحه وصلى فيه ركعتين.

وكان للعباس بن عبدالمطلب[1] رضي الله عنه مكانة كبيرة في قلوب المسلمين، وعظماء الصحابة، وقد كان جوادا، مفرط الجود، تولى في الجاهلية خدمة الحجيج، وآلت إليه السقاية والرفادة، وجاء الإسلام وهي بيده، وأقره النبي صلى الله عليه وسلم عليها، وساهم في تجهيز جيش العسرة، وكانت له جفنة طعام تدور على الفقراء، وأعتق سبعين مملوكاً من ماله.

ولما أراد عمر رضي الله عنه توسيع المسجد النبوي جعل العباس داره في المسجد بلا ثمن، ويكفي شهادة النبي صلى الله عليه وسلم له أكثر من مرة بالجود فقد قال عنه: «هذا العباس عم نبيكم ،أجود قريش كفًّا، وأوصلها»، وقد كان رضي الله عنه أكبر سنًّا من النبي صلى الله عليه وسلم، فقد ولد قبله بثلاث سنين، ومما يذكر من حسن أدبه وكرم أخلاقه أنه لما سُئل: أأنت أكبر أم رسول الله؟

قال: هو أكبر، وأنا ولدت قبله.

وأرسل ابن الزبير إلى عائشة[2] رضي الله عنهما بثمانين ومائة ألف درهم، فدعت بطبق وهي يومئذ صائمة فقسمته بين الناس حتى أمست وما

---

(١) أبو الفضل عم الرسول صلى الله عليه وسلم، من أكابر قريش في الجاهلية والإسلام، شهد وقعة حنين مع الرسول، وكان ممن ثبت حين انهزم الناس، توفي في المدينة سنة «٣٢هـ»، ودفن بالبقيع.

(٢) عائشة بنت أبي بكر الصديق: كنيتها أم عبد الله، ولدت سنة تسع قبل الهجرة، توفي النبي صلى الله عليه وسلم عنها وعمرها ثماني عشرة سنة، كانت ذات عقل نير، وذكاء حاد، وعلم جم، تميزت في علوم القرآن والفرائض والشعر وحديث العرب والأنساب، وروت أكثر من ألفين ومائتين وعشرة أحاديث، توفيت رضي الله عنها سنة «٥٧» هـ.

عندها من جميع ذلك درهم واحد، فقالت: يا جارية! هلّمي فطّريني، فجاءتها بخبز وزيت، وقالت لها: يا عائشة أما استطعت مما قسمت أن تشتري لحماً بدرهم؟ فقالت: لا تغضبي فلو ذكرتني لفعلت، وقيل: إنها تصدّقت بسبعين ألف درهم وإن درعها لمرقّع.

أما سعد بن عبادة[1] رضي الله عنه سيد الخزرج فكان حاله كحال آبائه في الجاهلية في السخاء والكرم، وكان له منادٍ ينادي: من كان يريد شحماً ولحماً فليأت سعداً، ولقد صار جود سعد في الإسلام آية من آيات إيمانه القوي الوثيق، فسخر نفسه وماله وأهل بيته في خدمة دينه.

ولما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة كان يبعث إليه كل يوم جفنة طعام تدور مع النبي صلى الله عليه وسلم في بيوت أزواجه. وكان الرجل من الأنصار ينطلق إلى داره، بالواحد من المهاجرين أو بالاثنين أو بالثلاثة، وكان سعد بن عبادة ينطلق بالثمانين.

ولحرصه رضي الله عنه على فعل المكرمات فقد كان يقول في دعائه: «اللهم هب لي حمداً، وهب لي مجداً ولا مجد إلا بفعال، ولا فعال إلا بمال، اللهم إنه لايصلحني القليل ولا أصلح عليه».

وكان أبو طلحة[2] رضي الله عنه أكثر أنصاريٍّ بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحبَّ أمواله إليه بَيْرُحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان النبي صلى

---

(١) سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة سيد الخزرج وأحد النقباء الاثني عشر الذين بايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم في العقبة الثانية، توفي في الشام سنة «١٤»هـ.

(٢) أبو طلحة زيد بن سهل الخزرجي الأنصاري رضي الله عنه، أحد النقباء الاثني عشر الذين حضروا بيعة العقبة، مات في البحر أثناء إحدى الغزوات ولم يجد أصحابه جزيرة قريبة ليدفنوه فيها إلا بعد سبعة أيام، ولم تتغير رائحة جسده، وكان موته سنة «٢٠ هـ».

الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس: فلما نزلت ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ «آل عمران ٩٢» قام أبو طلحة فقال: يا رسول الله إن الله يقول: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب الأموال إلي بيرحاء وإنها صدقة لله أرجو برّها عند الله، فضَعْها حيث أراك الله، فقال: «بخٍ، ذلك مال رابح ذلك مال رابح، وقد سمعتُ ما قلتَ وإني أرى أن تجعلَها في الأقربين، قال أبو طلحة: أفعلُ ذاك يا رسول الله. فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عَمِّه» متفق عليه.

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزل قول الله عز وجل: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾ البقرة «٢٤٥»، قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله: أو يستقرض الله منا وهو غني عن القرض؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نعم يا أبا الدحداح» فقال أبو الدحداح: أرني يدك يا رسول الله، فناوله رسول الله صلى الله عليه وسلم يده، ثم قال: إن لي حديقتين إحداهما بالسافلة، والأخرى بالعالية، والله لا أملك غيرهما، قد جعلتهما قرضاً لله تعالى. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اجعل إحداهما لله، والأخرى دعها معيشة لك ولعيالك»، فقال أبو الدحداح: أشهدك يا رسول الله، أني قد جعلت خيرهما لله تعالى، وهو حائط «أي بستان» فيه ستمائة نخلة مثمرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ربح بيعك يا أبا الدحداح» أحمد.

ومن الأسخياء الأجواد طلحة بن عبيدالله رضي الله عنه[1]، وكان يقال له: طلحة الخير، وطلحة الفياض، وطلحة الطلحات، وهو الذي فدى عشرة من أسارى بدر وجاء يمشي بينهم، وكان يغل بناحية «السراة» عشرة آلاف دينار.. وكان لا يدع أحداً من بني تيم «قبيلته» عائلاً إلا كفاه مؤونة عياله، ويزوج الأيامى منهم، ويخدم عائلهم، ويقضي دين غارمهم.

قالت زوجته سعدى بنت عوف: دخلت على طلحة فرأيت منه ثقلاً، فقلتُ: مالك؟ قال: اجتمع عندي مال أغمّني. فقلت: وما يغمُّك؟ ادعُ قومك فاقسمه فيهم. فقال: يا غلام! عليَّ بقومي، فقسمه فيهم. فسألت الخادم: كم كان؟ قال: أربعمائة ألف.

وكان عبدالله بن عمر بن الخطاب[2] رضي الله عنهما شديد السخاء يقال: إنه ما مات حتى أعتق ألف رقبة. وربما تصدق في المجلس الواحد بثلاثين ألفا، وما كان يأكل طعاماً إلا وعلى مائدته يتيم. وبعث إليه معاوية رضي الله عنه بمائة ألف فما حال عليه الحول وعنده منها شيء.

ومن أجواد الصحابة عبدالرحمن بن عوف[3] رضي الله عنه، وهو الذي تصدق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بشطر ماله «أي بنصفه»

---

(١) طلحة بن عُبيد الله بن عثمان التيمي القُرشي، كان من السابقين إلى الإسلام، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وكانت يده شلاء مما وقى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد، وكان يعطي الجزيل من غير مسألة ، استشهد عام «٣٦»هـ.

(٢) عبد الله بن عمر بن الخطاب كان فقيها كريما حسن المعشر طيب القلب كثير الاتّباع لآثار النبي عليه الصلاة والسلام، وكان دخله وعطاؤه بمئات الآلاف ويعيش عيش المساكين حيث كان يوزع كل ما وصل إليه من مال وعطاء وهو آخر من مات من الصحابة بمكة سنة ٧٣ هـ.

(٣) عبدالرحمن بن عوف الزهري القرشي: أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أهل الشورى، كان من الأجواد الأسخياء، توفي سنة « ٣٢ » هـ.

أربعة آلاف، ثم تصدق بأربعين ألف دينار، ثم حمل على خمسمائة فرس في سبيل الله، ثم على ألف وخمسمائة راحلة في سبيل الله، وكان عامة ماله من التجارة.

وكانت دار الندوة من مآثر قريش ومكارمها في الجاهلية، وهي دار قصي ابن كلاب وآلت إلى حكيم بن حزام رضي الله عنه، فلما حجّ معاوية رضي الله عنه اشتراها منه بأربعين ألف دينار، فقال ابن الزبير: والله ما يدري هذا الشيخ ما باع، لنرُدنَّ عليه بيعه.

ثم جاءه فقال له: بعتَ مكرمة قريش؟!

فقال له حكيم: ذهبت المكارم يا ابن أخي إلا التقوى، إني اشتريت بها داراً في الجنة، ولقد جعلتها لله، ولقد وصلتُ الرحم، وحملت الكلَّ، وأعطيت في السبيل.

وقد كان حكيم بن حزام رضي الله عنه من أشراف قريش وسراتها، وعرف في الجاهلية بفعل البر والخير، وبعد إسلامه زاد من بذله ومعروفه، فقد أعتق في الجاهلية مئة رقبة، وساق مئة بدنة، وأعتق وساق مثلها في الإسلام، وله أخبار عجيبة في الكرم والجود.

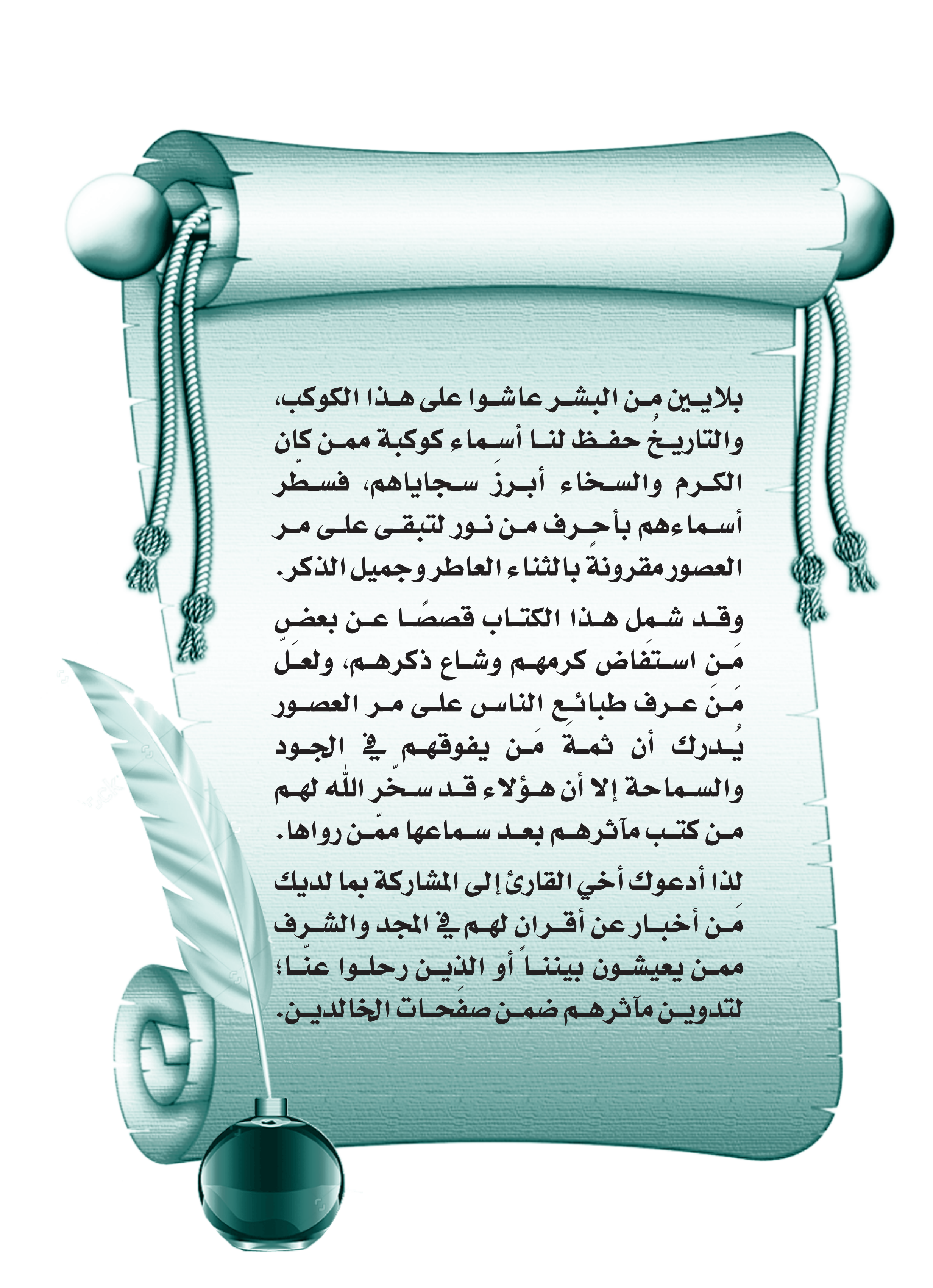




الفصل الخامس

من قصص الكرم





بلايين من البشر عاشوا على هذا الكوكب، والتاريخُ حفظ لنا أسماء كوكبة ممن كان الكرم والسخاء أبرزَ سجاياهم، فسطر أسماءهم بأحرف من نور لتبقى على مر العصور مقرونةً بالثناء العاطر وجميل الذكر.

وقد شمل هذا الكتاب قصصًا عن بعض مَن استفاض كرمهم وشاع ذكرهم، ولعلّ مَن عرف طبائعِ الناس على مر العصور يُدرك أن ثمة مَن يفوقهم في الجود والسماحة إلا أن هؤلاء قد سخّر الله لهم من كتب مآثرهم بعد سماعها ممّن رواها.

لذا أدعوك أخي القارئ إلى المشاركة بما لديك مَن أخبار عن أقران لهم في المجد والشرف ممن يعيشون بيننا أو الذين رحلوا عنّا؛ لتدوين مآثرهم ضمن صفحات الخالدين.



حاتم الطائي[1]

أول من كسب السبق في ذيوع الصيت بالجود والكرم في العرب قبل الإسلام هو حاتم الطائي المتوفى عام ٥٧٦م الموافق «٤٦» قبل الهجرة النبوية، وكان حيثما نزل عُرف منزله، وإذا قاتل غلب، وإذا سُئل وهب، وإذا أسر أطلق. وهو القائل:

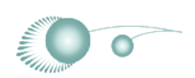
أشاور نفس الجود حتى تطيعني ... وأترك نفس البخل لا أستشيرها

حين بلغه قول المتلمس[2]:

وأعلم علم حق غير ظن ... وتقوى الله من خير العتادِ
لحفظ المال خير من بغاه ... وطوف في البلاد بغير زادِ
قليل المال تصلحه فيبقى ... ولا يبقى الكثير على الفسادِ

قال: ما له!؟ قطع الله لسانه! حرّض الناس على البخل أفلا قال:

فلا الجود يفني المال قبل فنائه ... ولا البخل في مال الشحيح يزيدُ
فلا تلتمس بخلاً بعيش مقتّر ... لكل غد رزق يعود جديدُ
ألم تر أن الرزق غاد ورائح ... وأن الذي يعطيك سوف يعيدُ



وكان إذا اشتدَّ البرد في الشتاءُ، أمر غلامَه فأوقد ناراً في مكان مرتفع لينظُرَ إليها مَن أضلَّ الطريقَ ليلاً فيتوجه إليه، فقال في ذلك:

أوقدْ! فإنَّ الليلَ ليلٌ قَرُّ ... والريحَ يا موقِدُ ريحٌ صرُّ
عسى يَرى نارَكَ من يَمُرّ ... إن جلبَتْ ضيفاً فأنتَ حُرُّ

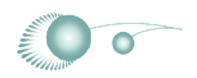
---

(١) حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي – فارس وشاعر – يضرب المثل بجوده وكرمه، توفي سنة «٤٦» ق. هـ.

(٢) المتلمِّس: شاعر جاهلي، واسمه جرير بن عبدالمسيح الضبعي وهو خال طرفة بن العبد. كان يسكن البحرين، وتوفي عام «٤٣» ق. هـ.

ومن جميل قوله لزوجته التي هجرته لشدة كرمه:

أماوي قد طال التجنب والهجرُ — وقد عذرتني من طلا بكم العذرُ
أماوي إن المال غاد ورائح — ويبقى من المال الأحاديث والذكرُ
أماوي إني لا أقول لسائلٍ — إذا جاءَ يوماً حَلّ في مالنا نَزْرُ
أماويَّ إنَّ المال مال بذلتُه — فأوّله شُكرٌ وآخرهُ ذكرُ
أماوي ما يغني الثراءُ عن الفتى — إذا حشرجت نفس وضاق بها الصدرُ
إذا أنا دلّاني الذين أحبهم — لملحدة زُلَجٍ جَوانبُها غُبْرُ
وراحوا عجالاً ينفضون أكفهم — يَقولون قد دَمّى أناملَنا الحَفْرُ
تريْ أن ما أهلكت لم يك ضرني — وأنّ يَدي ممّا بخِلْتُ به صَفْرُ
أماوي إني رُبَّ واحد أمه — أجرتُ فلا قتل عليه ولا أَسرُ
وقد عَلِمَ الأقوامُ لوْ أن حاتِماً — أراد ثراء المال كان له وفرُ



خرج حاتم في الشهر الحرام يطلب حاجة، فلما كان بأرض عنزة ناداه رجل أسير فيهم: يا أبا سفانة: أكلني الإسار والقمل، قال: ويلك ـ والله ـ ما أنا في بلاد قومي، ولا معي شيء، وقد أسأت بي إذ نوهت باسمي ومالك مترك، فساوم العنزيين به فاشتراه منهم، وقال: خلوا عنه وأنا أقيم مكانه في قيده حتى أؤدي فداءه. ففعلوا، وقال لرفيقه: عجل علي إذا أتيت أهلي فائتني بفدائه.



أغار قوم على طيء، فركب حاتم فرسه، وأخذ رمحه، ونادى في جيشه، وأهل عشيرته، ولقي القوم فهزمهم وتبعهم، فقال له كبير القوم: يا حاتم!

هب لي رمحك! فرمى به إليه. فقيل لحاتم. عرضت نفسك للهلاك، ولو عطف عليك قتلك. فقال: قد علمت ذلك، ولكن ما جواب من يقول: هب لي؟!



قالت امرأة حاتم: أصابتنا سَنَةٌ اقشعرَّت لها الأرضُ، واغبَرَّ أُفُق السماء، وحلَّقَتِ[1] السَّنَةُ المال، وأيْقنَّا بالهلاك. فو الله إنا لفي ليلة صِنَّبْر[2]، بعيدة ما بين الطرفين، إذ تضَاغى[3] صبيَتُنا جوعاً: عبدالله، وعَديّ، وسفَّانة. فقام حاتم إلى الصَّبيَّين، وقمت أنا إلى الصَّبِيَّة حتى ناموا، وأقبل يعلّلني بالحديث، فعرفتُ ما يريد، فتناومتُ.

فقال: مالك أنمتِ؟ فسكتُّ. فقال: ما أراها إلا قد نامت، وما بي من نوم، فلما ادلَهمَّ الليل، وتهوَّرت النجوم، وهدأت الأصوات، وسكنت الرِّجْل إذا جانب البيت قد رُفع، فقال: من هذا؟ فولّى حتى إذا قلت: قد أسحرنا أو كدنا عاد، فقال: من هذا؟ قالَتْ: جارتك فلانة، يا أبا عدي ما وجدت على أحد معولاً غيرك أتيتك من عند أصبية يتعاوَوْن عواءَ الذئب من الجوع، قال: أعجليهم عليَّ. فوثَبْتُ فقلت: ماذا صنعتَ؟ فوالله لقد تضاغَى أصبيتُك فما وجدتَ ما تعلّلهم به، فكيف بهذه وولدها؟ فقال: اسكتي فوالله لأشبعنّك وإياهم إن شاء الله، قالَتْ: فأقبَلَتْ المرأة تحمل اثنين وتمشّي جنبتيها أربعة كأنها نعامة حولَها رِئالُها[4]، قالَتْ: فقام إلى فرسه فوجَأ بحَربته في لَبَّته ثم قَدَح زِنْدَه وأورى ناره، وجاء بمُديَة فكشط عن جلده، ثم دفع المُديّة إلى المرأة وقال: دونك أشوي وكلي وصبيانك. ثم قال لي: ابعثي صبيانَك. فأيقظتهم،

---

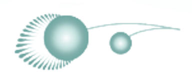
(١) حلقت المال: أهلكته.

(٢) صنبر: شديدة البرد

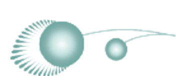
(٣) تضاغى: صاح.

(٤) رئالها: فراخها.

ثم قال: سوءة أتأكلون شيئاً دون أهل الصِّرم[1]، فجعل يطوف فيهم بيتاً بيتاً فيقول:انهضوا عليكم النار. قالت: فاجتمعنا حول تلك الفرس، والتفع بثوبه وجلس ناحية ينظر إلينا، لا والله ما ذاق منه مُزْعَةً، وإنه لأحوجهم إليها وأشد منهم جوعاً.



سأل رجُلٌ حاتماً فقال: يا حاتم هل غلبك أحد في الكرم؟ قال: نعم غلام يتيم من طيء نزلت بفنائه، وكان له عشرة رؤوس من الغنم، فعمد إلى رأس منها فذبحه. وأصلح من لحمه، وقدمه إليَّ، وكان فيما قدم إليَّ الدماغ، فتناولت منه فاستطبته، فقلت: طيب والله. فخرج من بين يدي، وجعل يذبح رأساً رأساً، ويقدم إليَّ الدماغ، فلما خرجت لأرحل نظرت حول بيته دماً عظيماً، وإذا هو قد ذبح الغنم بأسره. فقلت له: لم فعلت ذلك؟ فقال: يا سبحان الله! تستطيب شيئاً أملكه فأبخل عليك به؟ إن ذلك لسُبّة على العرب قبيحة. قيل يا حاتم: فما الذي عوضته؟ قال: ثلاثمائة ناقة حمراء وخمسمائة رأس من الغنم، فقيل: أنت إذاً أكرم منه فقال: بل هو أكرم، لأنه جاد بكل ما يملكه وإنما جدت بقليل من كثير.



أتى رجل إلى حاتم فقال: إنها وقعت بيني وبين قومي دِياتٌ فاحتملتُها في مالي وأملي، فَعدِمتُ مالي وكنتَ أملي، فإن تحملْها عني فربّ همّ فرَّجتَه، وغمٍّ كَفَيته، ودينٍ قضيته، وإن حال دون ذلك حائل لم أذمَّ يومَك، ولم أيأس من غدك. فحملها عنه.

---

(١) الصرم: بيوت الشعر التي تقل عن عشرة.

وقفــة

لا عجب أن تتبارى الأقلام في ذكر مآثر حاتم الطائي الذي أصبح مضرب المثل في الجود والكرم، لأن الجواد محبوب على مر العصور لدى جميع أفراد الأمم.

ومما ورد في كتاب البخلاء للجاحظ[1] قوله: «ما رأينا عربيّاً سفّه حلمَ حاتم بجوده بجميع ماله، ولا رأينا أحداً منهم سفّه حلمَ كعبٍ على جوده بنفسه. بل جعلوا ذلك من كعب لإياد مفخراً، وجعلوا ذلك من حاتم لطيء مأثرة... ولم نر الأمّةَ أبغَضَتْ جواداً قطّ ولا حقَرَتْه، بل أحبّته وأعظمته. بل أحبَّتْ عقبه، وأعظمَتْ من أجله رهطَه، ولا وجدناهم أبغضوا جواداً لمجاوزته حدّ الجود إلى السّرَف، بل وجدناهم يتعلمون مناقبه، ويتدارسون محاسنه، حتى أضافوا إليه من نوادر الجميل ما لم يفعله، ونحلوه من غرائب الكرم ما لم يكن يبلغه. ولذلك زعموا أن الثناء في الدنيا يُضاعف كما تُضاعف الحسنات في الآخرة. نعم وحتى أضافوا إليه كل مديح شارد، وكلّ معروف مجهول الصاحِب» ا هـ.

ولعل ما يؤكد صحة هذا الكلام أن الناس لشدة إعجابهم بكرم حاتم قد نسجوا حوله بعض الأخبار التي تشبه الأساطير، ومن نادر ما قيل في ذلك خبر قراه لأضيافه بعد موته، والذي أوردته مصادر عديدة رغم أنه لا يصح شرعاً ولا تقبله العقول السليمة، فقد روي أن رجلاً يُعرفُ بأبي الخيبريّ مرَّ بقبر حاتمٍ فنزل به وجعل ينادي: أبا عديّ، أقرِ أضيافك، فيقال له: مهلاً! ما

---

(١) الجاحظ: هو أبو عثمان عمرو بن بحر، وعُرف بالجاحظ لجحوظ عينيه، كان إمام الأدباء في العصر العباسي، وله مؤلفات كثيرة توفي سنة (٢٥٥)هـ.

تُكلِّمُ من رمّةٍ باليةٍ؟ فقال كالمستهزئ: إن طيِّئاً يزعمون أنه لم ينزل به أحد إلا أقراه. فلما كان في السَّحر وثب أبو الخيبري يصيحُ: واراحلتاه! فقال له أصحابه: ما شأنك؟.

قال: خرجَ واللّه حاتم بالسيف حتى عقر ناقتي وأنا أنظرُ إليها. فتأملوا راحلته فإذا هي لا تنبعثُ، فقالوا: قد واللّه أقراك. فنحروها وظلُّوا يأكلون من لحمها، ثم أردفوه وانطلقوا. فبينما هم في مسيرهم إذ طلع عليهم عديٌّ بن حاتم ومعه جملٌ قد قرنَه ببعيره، فقال: إن حاتماً جاء في النوم فذكر لي قولَك وأنه أقراك وأصحابَك راحلتَك، وقال لي أبياتاً ردّدها عليّ حتى حفظتها وهي:

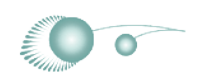
أبا الخـيْبريِّ، وأنت امــرؤٌ ... حـسودُ العـشيرة، شَـتَّامُـهـا

فـمــاذا أردتَ إلــــى رِمَـة ... بـداويّـةٍ، صَـخبٍ هـامُـهـــا؟

أتـبـغـي أذاهــا وإعـسـارهـــا ... وحــولك غــوثٌ[1] وأنعـامُـهـا؟

وإنّـا لـنطـعـمُ أضــــيافـنـا ... مـن الكــوم، بالسيف نعتامها[2]

وأمرني بدفع راحلة عوضَ راحلتك فخذها، فأخذها.



(١) غوث: يقصد الغوث بن طيء جد حاتم الذي ينتهي إليه نسبه.

(٢) الكوم: واحدتها كوماء وهي الناقة العظيمة السنام - نعتامها: أي نختارها.

كعب بن مامة [١]

ومن أجواد العرب المعدودين كعب بن مامة، وكان من إياد. وفي المثل: هو أجود من كعب بن مامة. ومن نادر ما ينسب إلى كعب من الجود والإيثار والمروءة أنه خرج يوماً في ركب، وكان في الركب رجل من النمر بن قاسط، وكان الشهرُ شهراً ناجراً، أي شديد الحر، يصيب بالعطش كل من يمشي فيه، فضلّوا طريقهم وشّح ماؤهم، فكانوا يتصافَنون الماء ـ وذلك أن يُطرح في القعب حصاة، ثم يصبَّ فيه من الماء بقدر ما يغمر الحصاة، فيشرب كلُّ واحدٍ منهم قدرَ ما يشربُ الآخر ـ.

ولما نزلوا للشُّرب، ودار القعب بينهم، حتى انتهى إلى كعب، رأى الرجلَ النَّمري يحدّ النظر إليه، فآثره بمائه على نفسه، وقال للساقي: اسق أخاك النَمري، فشرب النّمري نصيب كعب من الماء ذلك اليوم!.

ثم نزلوا من الغد منزلهم الآخر، فتصافَنُوا بقية مائهم، فنظر إليه النمري كنظره أمس، وقال كعب كقوله أمس، وارتحل القوم، وقالوا: يا كعب، ارتحل، فلم يكن له قوة للنهوض، وكانوا قد قربوا من الماء، فقالوا له: ردْ يا كعبُ، إنك وارد، فعجز عن الجواب. ولما أيسوا منه خيّموا عليه بثوبٍ يمنعه من السبع أن يأكله وتركوه مكانه، فمات ونجا رفيقه، وله يقول أبو تمام:

يجودُ بالنفس إن ضنَّ البخيل بها   والجودُ بالنفس أقصى غايةِ الجودِ



---

(١) كعب بن مامة بن عمر الإيادي يضرب المثل بجوده وهو من الأسخياء المعدودين في الجاهلية.

السموأل [1]

لما أراد امرؤ القيس المضيَّ إلى قيصر ملك الروم، أودع عند السَّمَوْأل دروعاً وسلاحاً وأمتعة، تساوي جملةً كثيرة، فلما مات امرؤ القيس أرسلَ ملك كِنْدَة يطلب الدروع والأسلحة المودعة عند السموأل، فقال السموأل: لا أدفعها إلا إلى مستحقِّها، وأبى أن يدفع إليه منها شيئاً، فعاوده، فأبى، وقال: لا أغدر بذمّتي، ولا أخون أمانتي، ولا أترك الوفاء الواجب عليّ.

فقصده ذلك الملك من كندة بعسكره، فدخل السموأل في حصنه وامتنع به، فحاصره ذلك الملك، وكان ولدُ السموأل خارج الحصن، فظفر به الملك، وأخذه أسيراً، ثم طاف حول الحصن، وصاح بالسموأل، فأشرف عليه من أعلى الحصن، فلما رآه قال له: إن ولدك قد أسرته، وهو ذا معي، فإن سلّمت إليّ الدروع والسلاح رحلت عنك، وسلّمت إليك ولدك، وإن امتنعت من ذلك ذبحتُ ولدكَ وأنت تنظر! فاختر أيهما شئت.

فقال له السموأل: ما كنت لأُخفِرَ ذمامي، وأُبطل وفائي، فاصنَع ما شئت! فذبح ولده، وهو ينظر. ثم لما عجز عن الحصن رجع خائباً، واحتسب السموألُ ذبح ولده، وصبَر محافظةً على وفائه، فلما جاء الموسم وحضر ورثة امرئ القيس، سلّم إليهم الدروع والسلاح، ورأى حفظ ذمامه، ورعاية وفائه أحبَّ إليه من حياة ولده وبقائه! وقال في ذلك:

وفيتُ بأدرُعِ الكِندِيّ إني ... إذا ما خانَ أقوام وفيتُ

---

(١) السموأل بن غريض بن عادياء شاعر جاهلي يهودي وهو صاحب حصن الأبلق بتيماء يضرب المثل بوفائه، توفي سنة «٦٤» ق. هـ.

ومن أجمل الأبيات الواردة في القصيدة المنسوبة إليه قوله:

إذا المرءُ لم يدنَس من اللّؤم عرضه ... فكلُّ رداء يرتديه جميلُ

وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها ... فليس إلى حسن الثناء جميلُ

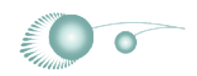
إذا المرءُ أعيته المروءة يافعاً ... فمطلبها كهلاً عليه ثقيلُ

وعاذلةٍ قامتْ بليلٍ تلومُني ... ولم يغتفرني قبل ذاك عذولُ

تعيرنا أنا قليل عديّدنا ... فقلتُ لها: إن الكرام قليلُ

وما قلَّ من كانت بقاياه مثلَنا ... شباب تسامى للعُلى، وكهولُ

وما ضرّنا أنَّا قليل، وجارنا ... عزيز، وجار الأكثرين ذليلُ



أوس بن حارثة [1]

جلس النعمان بن المنذر وعليه حلّةٌ مرصَّعة بالدرّ، لم ير مثلها قبل ذلك اليوم. وأذِن للعرب في الدخول عليه، وكان فيهم أوسُ بن حارثة. فجعلت العرب تنظرُ إلى الحلّة، وكلّ منهم يقول لصاحبه: ما رأيتُ مثل هذه الحلة قطّ، ولا سمعت أن أحداً من الملوك قدر على مثلها، وأوسُ بن حارثة مطرِق لا ينظر إليها، فقال له النعمان: ما أرى كلَّ من دخل عليّ إلا استحسن هذه الحلة، وتحدّث مع صاحبه في أمرها إلا أنت، ما رأيتُك استحسنتها ولا نظرتها.

قال أوس: أسعد الله الملك! إنما تُستحسَن الحلة إذا كانت في يد التاجر، وأما إذا كانت على الملك، وأشرق فيها وجهه فنظري مقصور عليه لا عليها! فاسترجح عقلَه.

فلما عزموا على الانصراف قال لهم النعمانُ: اجتمعوا إليّ في غد فإني ملبسٌ هذه الحلّة لسيد العرب منكم، فانصرفوا عنه، وكلّ يزعم أنه لابس الحلة، فلما أصبحوا تزينوا بأفخر الملابس وتقلّدوا بأحسن السيوف، وركبوا أجودَ الخيل، وحضروا إلى النعمان، وتأخر عنه أوسُ بن حارثة، فقال له أصحابه: مالك لا تغدو مع الناس إلى مجلس الملك، فلعلك تكون صاحب الحلة. فقال أوس: إن كنتُ سيد قومي فما أنا بسيّد العرب عند نفسي، وإن حضرتُ ولم آخذها انصرفتُ منقوصاً، وإن كنتُ المطلوبَ فسيُعرف مكاني، فأمسكوا عنه.

---

(١) أوس بن حارثة بن لام الطائي، كان سيداً نبيلاً عالي الهمة، قيل: إنه عاش مائتي سنة، وله أخبار كثيرة في العفو والجود والكرم.

ونظر النعمانُ في وجوه القوم، فلم يرَ أوس بن حارثة، فاستدعى بعض خاصته، وقال: اذهب لتعرف خبر أوس، فمضى رسول النعمان، واستخبر بعض أصحابه، فأخبره بمقالته، فعاد إلى النعمان، فأخبره بذلك، فبعث النعمانُ إليه رسولاً، وقال: احضر آمناً مما خِفتَ عليه، فحضر أوس بثيابه التي حضر بها بالأمس، وكانت العرب قد استبشرت بتأخره خوفاً من أن يكون هو الآخذ للحلة.

فلما حضر وأخذ مجلسه، قال له النعمان: إني لم أرك غيرتَ ثيابك في يومك! فالبس هذه الحلة لتتجمل بها، ثم خلعها وألبسه إياها. فاشتدّ ذلك على من حضر وحسدوه، وقالوا: لا حيلة لنا فيها، إلا أن نرغب إلى الشعراء أن يهجوه بقبيح الفعل، فإنه لا يخفض رفعته إلا الشعر. فجمعوا فيما بينهم خمسمائة ناقة، وأتوا بها إلى رجل يقال له جرول «الحطيئة»، وقالوا له: خذ هذه، واهجُ لنا أوس بن حارثة.

وكان جرول يومئذ أشعر العرب وأقواهم هجاء، فقال لهم: يا قوم، كيف أهجو رجلاً حسيباً لا ينكر بيته، كريماً لا ينقطع عطاؤه، فَيْصلاً لا يطعن على رأيه، شجاعاً لا يضام نزيله، محسناً لا أرى في بيتي شيئاً إلا من فضله!.

فسمع بذلك بشر بن أبي خازم - وكان شاعراً - فرغب في البذل، وأخذ الإبل وهجاه، وذكر أمّه سُعدى فسمع أوس بذلك، فوجه في طلبه، فهرب وترك الإبل، فأتوا بها إلى أوس بن حارثة، فأخذها وشدّ في طلبه، وجعل بشر ابن أبي خازم يطوف في أحياء العرب يلتمس عزيزاً يجيره على أوس، وكل من قصده يقول: قد أجرتُك إلا من أوس بن حارثة، فإني لا أقدر أن أجير

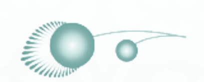
عليه، وكان أوس قد بثَّ عليه العيون، فرآه بعض من كان يرصده، فقبض عليه، وأتى به إلى أوس، فلما مَثَل بين يديه قال له: ويلك! أتذكر أمي وليس في عصرنا مثلها؟ قال: قد كان ذلك. فقال: والله لأقتلنك قتلة تحيا بها سُعدى ـ يعني أمه ـ.

ثم دخل أوس إلى أمه سُعدى، وقال: قد أتيتُك بالشاعر الذي هجاك، وقد آليت لأقتلنّه قتلة تحيين بها! فأي قتلة تحبين أن أقتله؟. قالت: كلا والله يا أوس! إن قتلته ليثبتن قوله كالنقش في الصخر، وليس يمحو هجاءَه عنك إلا مديحه لك، فامنن عليه وأطلقه، واردد عليه ما أخذ له، فعلم أن الصواب ما أشارت به، وأحضره وقال له: ما ترى أني صانع بك؟. قال: تقتلني. قال: أنت مستحق لذلك مني، لكن سعدى رقت لك وأشارت عليَّ فيك بأمر وأنا فاعله. ثم أمر به، ففُك عنه ورد عليه إبله وزاده عليها من عنده، وكساه وحمله، وقال له: انصرف إلى أهلك راشداً. قال: فرفع بشر يده وطرفه إلى السماء ثم قال: اللهم اشهد على بشر أنه لا يمدح أحداً غير أوس بن حارثة ما مددت له في العمر. قال: فمدحه بعدة قصائد هي ثابتة في ديوانه. ومنها قوله:

إلى أوس بن حارثة بن لام ... ليقضي حاجتي فيمن قضاها

إذا ما راية رفعت لمجد ... أقاموها ليبلغ منتهاها

فما وطئ الحصا مثل ابن سعدى ... ولا لبس النعال ولا احتذاها



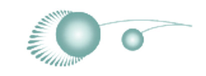
وفد أوس بن حارثة وحاتم الطائي على عمرو بن هند[1] فدعا أوساً فقال له: أأنت أفضل أم حاتم؟

قال: أبيت اللعن، لو ملكني حاتم وولدي ولحمتي لوهبنا في غداة واحدة.

ثم دعا حاتماً فقال له: أأنت أفضل أم أوس؟

قال: أبيت اللعن، إنما ذُكرتُ بأوس، ولأحد ولده أفضل مني.

فقال عمرو: والله ما أدري أيكما أفضل، وما منكما إلاّ سيّد كريم.



---

(١) هو ملك الحيرة عمرو بن المنذر بن امرئ القيس اللخمي وعرف بنسبته إلى أمه هند بنت عمرو بن حجر الكندي عمة امرئ القيس الشاعر، وكان شديد البأس كثير الفتك، هابته العرب وأطاعته القبائل، توفي نحو سنة ٤٥ ق.هـ

الحارث بن عوف [(١)]

قال الحارث بن عوف بن أبي حارثة المري لخارجة بن سنان: أترى أني أخطب إلى أحد فيردّني؟ قال: نعم. قال: ومن هو؟ قال: أوس بن حارثة بن لام الطائي. قال اركب بنا إليه، فركبا إليه حتى أتيا بلاده فوجداه في فناء منزله، فلما رأى الحارث بن عوف قال: مرحباً بك يا حارث، ثم قال: ما جاء بك؟ قال: جئت خاطباً. قال: لست هناك. فانصرف الحارث ولم يكلمه.

فدخل أوس على امرأته مغضباً. فقالت له: من الرجل الذي سلم عليك فلم تطل معه الوقوف ولم تكلمه؟ فقال: ذاك سيد العرب الحارث بن عوف، فقالت: فمالك لا تستنزله. قال: إنه استهجنني. قالت: وكيف؟ قال: لأنه جاءني خاطباً. قالت: ألست تزعم أنه سيد العرب؟ قال: نعم، قالت: إذا لم تزوّج سيد العرب في زمانه فمن تزوّج؟ قال: قد كان ذلك. قالت: فتدارك ما كان منك. قال: فماذا؟ قالت: بأن تلحقه فترده: قال: كيف؟ وقد فرط مني ما فرط؟ قالت: تقول له: إنك لقيتني وأنا مغضب لأمر فلك المعذرة فيما فرط مني فارجع ولك عندي كل ما طلبت.

فركب في أثرهما. قال خارجة بن سنان: فوالله إنّا لنسير إذ حانت مني التفاتة فرأيته. فقلت للحارث وهو ما يكلمني: هذا أوس في أثرنا، فقال: ما أصنع به؟! فلما رآنا لانقف قال: يا حارث أربِعْ عليّ. فوقفنا له وكلمه بذلك الكلام فرجع مسروراً.

---

(١) الحارث بن عوف بن أبي حارثة بن مرة، من السادات الأسخياء في الجاهلية، من أبرز مآثره سعيه في الصلح بين عبس وذبيان أيام حرب داحس والغبراء ودفع ديات قتلى الفريقين مع ابن عمه هرم بن سنان، أدرك الإسلام وكان أحد رؤوس الأحزاب يوم الخندق،ثم أسلم واستعمله النبي صلى الله عليه وسلم على قومه.

قال خارجة بن سنان: فبلغني أن أوساً لما دخل منزله قال لزوجته: ادعي لي فلانة أكبر بناته فأتته. فقال لها: أي بنية! هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب جاءني خاطباً وقد أردت أن أزوجك منه فما تقولين؟ قالت: لا تفعل. قال: ولم؟ قالت: لأن في خلقي رداءة، وفي لساني حدة، ولست بابنة عمه فيراعي رحمي، ولاهو بجار لك في البلد فيستحيي منك، ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني فيكون علي بذلك مسبّة. قال لها: قومي بارك الله فيك.

ثم دعا ابنته الأخرى فقال لها مثل قوله لأختها. فأجابته بمثل جوابها. فقال لها: قومي بارك الله فيك.

ثم دعا بالثالثة وكانت أصغرهنّ سناً. فقال لها مثل ما قال لأختيها فقالت له: أنت وذاك. فقال لها: إني عرضت ذلك على أختيك فأبتاه ولم يذكر لها مقالتهما. فقالت له: والله إني الجميلة وجهاً، الرفيعة خلقاً، الحسنة رأياً، فإن طلقني فلا أخلف الله عليه، فقال لها: بارك الله فيك.

ثم خرج إليه، فقال زوجتك يا حارث بابنتي هنيسة. قال: قد قبلت نكاحها، وأمر أمها أن تهيئها له وتصلح شأنها، ثم أمر ببيت فضرب له وأنزله إياه وبعثها إليه.

فلما دخلت عليه لبث هنيهة، ثم خرج إليّ فقلت له: أفرغت من شأنك؟ قال: لا والله. قلت: وكيف ذلك؟ قال لما مددت يدي إليها قالت: مه! أعند أبي وإخوتي؟ هذا والله لايكون. ثم أمر بالرحلة فارتحلنا بها معنا وسرنا ما

شاء الله. ثم قال لي: تقدّم فتقدمت، فعدل عن الطريق فما لبث أن لحقني، فقلت: أفرغت من شأنك؟ قال: لا والله. قلت: ولم؟ قال قالت: تفعل بي كما يفُعل بالأمة السبية الأخيذة، لا والله حتى تنحر الجُزر والغنم، وتدعو العرب، وتعمل مثل ما يعمل مثلك لمثلي. فقلت: والله إني لأرى همة وعقلاً، فقال: صدقت، وأرجو الله أن تكون المرأة النجيبة.

فوردنا إلى بلادنا، فأحضر الإبل والغنم، ونحر وأولم، ثم دخل عليها وخرج إليّ، فقلت: أفرغت من شأنك؟ قال: لا والله. قلت: ولم ذاك؟ قال: دخلت عليها أريدها فقلت لها: قد أحضرت من المال ما تريدين. قالت: والله لقد ذكرت بما ليس فيك من الشرف. قلت: ولم ذاك؟ قالت: أتستفرغ لنكاح النساء، والعرب يقتل بعضها بعضاً. وكان ذلك أيام حرب عبس وذبيان. قلت: فماذا تقولين؟ قالت: اخرج إلى القوم فأصلح بينهم ثم ارجع إلى أهلك فلن يفوتك ما تريد. فقلت: والله إني لأرى عقلاً ورأياً سديداً.

قال: فاخرج بنا، فخرجنا حتى أتينا القوم فمشينا بينهم بالصلح، فاصطلحوا على أن يحسبوا القتلى، ثم تؤخذ الدية، فحملنا عنهم الديات فكانت ثلاثة آلاف بعير، فانصرفنا بأجمل ذكر، ثم دخل عليها فقالت له: أما الآن فنعم، فأقامت عنده في ألذ عيش وأطيبه.

هرم بن سنان [1]

يعتبر هرم بن سنان أحد أعلام العصر الجاهلي في الجود والكرم، وكان من أبرز مآثره السعي في الصلح حينما دارت رحى الحرب بين عبس وذبيان أيام داحس والغبراء، وقد تحمل هو وابن عمه الحارث بن عوف ديات القتلى، وكان زهير بن أبي سلمى قد أثنى عليه ومدحه في قصائد كثيرة منها قوله:

قد جعل المبتغون في هرم ... والسائلون إلى أبوابه طُرُقا
إن تلق يوماً على علاته هرماً ... تلق السماحة والندى منه خُلُقا
لو نال حي من الدنيا بمنزلة ... وسط السماء لنالت كفّه الأُفُقا

ويذكر أن هرماً قد حلف ألا يمدحه زهير إلا أعطاه، ولا يسأله إلا أعطاه، ولايسلم عليه إلا أعطاه! فاستحيا زهيرٌ مما كان يقبل منه، فكان إذا رآه في ملأ قال: عموا صباحاً غير هرمٍ، وخيركم استثنيت.

ومما قال في مدح هرم وأهل بيته:

إليك أعملتها فتلاً مرافقها ... شهرين يجهض من أرحامها العرقُ
حتى دفعن إلى حلو شمائله ... كالغيث ينبت في آثاره الورقُ
من أهل بيت يرى ذو العرش فضلهمُ ... يبني لهم في جنان الخلد مرتفقُ
كأن آخرهم في الجود أولِهم ... إن الشمائِل والأخلاق تتفقُ

---

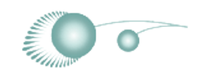
(١) هرم بن سنان بن أبي حارثة بن مرة، من أجواد العرب في الجاهلية، ويضرب بجوده المثل، وهو ممدوح الشاعر زهير بن أبي سلمى، كانت وفاته سنة « ١٥ » ق.هـ

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأحد أبناء هرم بن سنان: أنشدني بعض ما قال فيكم زهير بن أبي سُلمى، فأنشده.

فقال عمر: لقد كان يقول فيكم فيُحسن.

قال: يا أمير المؤمنين وإنا كنا نعطيه فنُجزل.

فقال: قد ذهب والله ما أعطيتموه.. وبقي ما أعطاكم!



الملك النعمان والطائي

خرج النعمان بن المنذر يوماً يتصيَّد على فرسه اليَحمُوم، فأجراه على أثر عَيْرٍ[1]، فذهب به الفرس في الأرض، ولم يقدر عليه، وانفرد عن أصحابه، وأخذته السماء[2]، فطلب ملجأ يلجأ إليه، فدفع إلى بناء، فإذا فيه رجل من طيء يقال له حنظلة، ومعه امرأةٌ له، فقال لهما: هل من مأوى؟ فقال حنظلة: نعم! وخرج إليه، فأنزله، ولم يكن للطائي غير شاة، وهو لا يعرف النعمان، فقال لامرأته: أرى رجلاً ذا هيئة، وما أخلقه أن يكون شريفاً خطيراً! فما الحيلة؟ قالت: عندي شيء من طحين كنت ادخرته، فاذبح الشاة لأتخذ من الطحين خبز ملة.

وأخرجت المرأةُ الدقيق، فخبزت منه، وقام الطائيّ إلى شاتِه فاحتلبها، ثم ذبحها، فاتخذ من لحمها مرقةً مضيرة، وأطعمه من لحمها، وسقاه من لبنها، وجعل يحدثه بقية ليلته.

فلما أصبح النعمانُ لبس ثيابَه، وركب فرسَه، ثم قال: يا أخا طيء، اطْلُبْ ثوابك، أنا الملك النعمان! قال: أفعلُ إن شاء الله.

ثم لحق الخيلَ، فمضى نحو الحيرة، ومكث الطائيُّ بعد ذلك زماناً حتى أصابته نكبة وجَهْد، وساءت حاله، فقالت له امرأته: لو أتيت الملك لأحسن إليك؟ فأقبل حتى انتهى إلى الحيرة، فوافق يومَ بؤس النعمان، فإذا هو واقف في خيله في السلاح.

فلما نظر إليه النعمانُ عرفه، وساءه مكانُه، فوقف الطائيُّ بين يدي النعمان، فقال له: أنت الطائي المنزول به؟ قال: نعم. قال: أفلا جئتَ في غير

---

(١) العير: الحمار الوحشي.

(٢) أخذته السماء: المطر.

هذا اليوم! قال: أبيت اللعن! وما كان علمي بهذا اليوم؟

قال: والله لو سنح لي في هذا اليوم قابوس ابني لم أجد بدّاً من قتله، فاطلب حاجتك من الدنيا، وسل ما بدا لك فإنكَ مقتول!

قال: أبيت اللعنَ! وما أصنع بالدنيا بعد نفسي؟

قال النعمان: إنه لا سبيل إليها.

قال: فإن كان لا بد فأجِّلني حتى أُلَمَّ بأهلي، فأوصي إليهم، وأهيِّئ حالهم، ثم أنصرف إليك.

قال النعمان: فأقم لي كفيلاً بموافاتك.

فوثب إليه رجل من قبيلة كلب يقال له قراد بن أجدع، فقال للنعمان: أبيت اللعن! هو عليَّ!

قال النعمان: أفعلتَ؟

قال: نعم! فضمَّنه إياه، ثم أمر للطائي بمائة ناقة.

فمضى الطائي إلى أهله، وقد جعل الأجل حولاً من يومه ذلك إلى مثل ذلك اليوم من قابل، فلما حال عليه الحول، وبقي من الأجل يوم، قال النعمان لقُراد: ما أراك إلا هالكاً غداً، فقال قراد:

فإن يك صدر هذا اليوم ولّى ... فإنّ غداً لناظره قريبُ

فلما أصبح النعمان ركب في خيله ورجله متسلّحاً كما كان يفعل حتى أتى الغَرِيَّين[1] فوقف بينهما، وأخرج معه قُراداً، وأمر بقتله، فقال له وزراؤه: ليس لك أن تقتله حتى يستوفي يومه، فتركه.

---

(١) الغريين: بناءان طويلان سميا بذلك لأن الملك النعمان كان يغريهما بدم من يقتله يوم بؤسه.

فلما كادت الشمس أن تجب[1] وقراد قائم على النطع[2]، والسَّياف إلى جنبه حتى أقبلت امرأته وهي تقول:

أيا عين ابكي لي قُراد بنَ أجدعا رهيناً لقتلٍ لا رهيناً مـوَدَّعـا

فبينما هم كذلك إذ رُفع لهم شخص من بعيد، وقد أمر النعمانُ بقتل قُراد، فقيل له: ليس لك أن تقتله حتى يأتيَك الشخص فتعلم من هو؟ فكفّ حتى انتهى إليه الرجل، فإذا هو الطائي وقد اشتد عدوه في سيره مسرعاً حتى وصل. فقال: خشيت أن ينقضي النهار قبل وصولي. ثم وقف قائماً وقال: أيها الملك مر بأمرك!

فأطرق النعمان، ثم رفع رأسه وقال: والله ما رأيت أعجب منكما، أما أنت يا طائي فما تركت لأحد في الوفاء مقاماً يقول فيه، ولا ذكراً يفتخر به. وأما أنت يا قراد فما تركت لكريم سماحة يذكر بها في الكرماء، فلا أكون أنا ألأم الثلاثة، ألا وإني قد رفعت يوم بؤسي عن الناس، ونقضت عادتي كرامة لوفاء الطائي، وكرم قراد. فقال الطائي:

ولقد دعتني للخلاف عشيرتي فعددت قولهم من الأضلالِ

إني امرؤ مني الوفاء سجية وفعال كل مهذب مفضالِ



---

(١) تجب: تغيب.

(٢) النطع: بساط من الجلد يوضع تحت من يراد قتله.

صخر بن عمرو بن الشريد[1]

دخلت الخنساء[2] على عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وعليها صدار[3] من شعر، قد استشعرته إلى جلدها، فقالت لها: ما هذا يا خنساء؟ فوالله لقد تُوفِّي رسول الله صلى الله عليه وسلم فما لبسته.

قالت: إنّ له معنى دعاني إلى لباسه، وذلك أن أبي زوّجني سيد قومه، وكان رجلاً مِتلافاً، فأسرف في ماله، حتى أنفده، ثم رجع إلى مالي، فأنفده أيضاً.

ثم التفت إليّ فقال: إلى أين يا خنساء؟ قلت: إلى أخي صَخْر، فأتيناه، فقسم ماله شطرين، ثم خيّرنا في أحسن الشطرين، فرجعنا من عنده على حال حسنة، فلم يزل زوجي حتى أذهب جميعه.

ثم التفت إليّ، فقال: إلى أين يا خنساء؟ قلت: إلى أخي صخر، فرجعنا إليه فقسَّم ماله شطرين، وخيَّرنا في أفضل الشطرين.

فقالت له زوجته: أما ترضى أن تشاطرهم مالك حتى تخيِّرهم بين الشطرين!؟

فقال:

والله لا أمنحها شرارها ... وهي حصَان قد كفتني عارها

ولو هلكتُ مزقت خمارها ... واتخذت من شعر صدارها

فآليتُ ألا يفارق الصّدارُ جسدي ما بقيت.

---

(١) صخر بن عمرو بن الشريد السلمي، كان سيداً حليماً جواداً، أصيب بطعنة يوم كلاب دام أثرها حولاً كاملاً ثم مات، رثته أخته الخنساء بقصائد كثيرة ذاع صيتها.

(٢) الخنساء: هي تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمي، أدركت الإسلام وأسلمت، كانت وفاتها في خلافة معاوية.

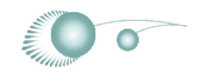
(٣) الصدار: ثوب من الشعر يغشى الصدر كانت تلبسه المرأة إذا فقدت حميما لها.

ومن مراثي الخنساء في أخيها صخر:

وإن صخراً لوالينا وسيدنا ... وإن صخراً إذا نشتو لنحّارُ
وإن صخراً لمقدام إذا ركبوا ... وإن صخراً إذا جاعوا لنحّارُ
وإن صخراً لتأتم الهداة به ... كأنه علمٌ [1] في رأسه نارُ
حمّال ألوية هبّاط أودية ... شهّاد أندية للجيش جرارُ

وتقول في قصيدة أخرى:

أعينيّ جودا ولا تجمُدا ... ألا تبكيانِ لصخرِ النّدى
ألا تبكيانِ الجريءَ الجميلَ ... ألا تبكيانِ الفتى السيّدا
طَويلَ النِجادِ رَفيعَ العِمادِ ... سادَ عَشيرَتَهُ أَمرَدا
إذا القَوْمُ مَدّوا بأيديهِم ... إلى المَجدِ مدّ إلَيهِ يَدا
فنالَ الذي فوْقَ أيديهِم ... من المجدِ ثمّ مضَى مُصْعِدا



(١) العلم: الجبل العالي.

أسيد بن عنقاء وعميلة الفزاري

كان أسيد بن عنقاء الفزاري من أكبر أهل زمانه قدراً، وأكثرهم أدباً، وأفصحهم لساناً، وأثبتهم جناناً، فطال عمره، ونكبه دهره. فخرج عشية ينتفل لأهله، فمر به عميلة الفزاري فسلم عليه، وقال: ما أصارك يا عم إلى ما أرى؟

فقال: بخل مثلك بماله، وصون وجهي عن مسألة الناس.

فقال: والله لئن بقيت إلى غد لأغيرن ما أرى من حالك.

فرجع ابن عنقاء إلى أهله فأخبرهم بما قال له عميلة.

فقالت زوجته: لقد غرك كلام غلام في جنح ليل.. فكأنما ألقمَتْ فاه حجراً، وبات متململاً بين رجاء ويأس، فلما كان وقت السحر سمع رغاء الإبل، وصهيل الخيل تحت الأموال. فقال: ما هذا؟

قالوا: عميلة قد قسم ماله شطرين وبعث إليك بشطره! فأنشأ يقول:

رآني على ما بي عميلة فاشتكى ... إلى ماله حالي فواسى وما هجَرْ
ولما رأى المجد استعيرت ثيابه ... تردى رداء سابغ الذيل واتّزَرْ
غلام حباه الله بالحسن يافعاً ... له سيمياء لا تشق على البصَرْ
كأن الثريا عُلِّقت في جبينه ... وفي أنفه الشعرى وفي جيده القمَرْ

عبدالله بن جدعان [1]

كان عبد اللّه بن جدعان من الحكماء الأجواد في الجاهلية، وفي بداية أمره كان فقيراً شريراً يُكثر من الجنايات حتى أبغضه أهله وقومه وعشيرته، فخرج ذات يوم في شعاب مكة فرأى شقاً في جبل، وإذا بثعبان يخرج إليه منه ويثب عليه.

فلما دنا منه إذا هو من ذهب وعيناه ياقوتتان، فكسره وأخذه. ودخل الغار فإذا فيه قبور لرجال من ملوك جرهم، ومنهم الحارث بن مضاض الذي طالت غيبته عن قومه فلا يُدرى أين ذهب. ووجد عند رؤوسهم لوحاً من ذهب فيه تاريخ وفاتهم ومدة ولايتهم، وإذا عندهم من الجواهر واللآلئ والذهب والفضة الشيء الكثير، فأخذ منه حاجته، ثم خرج وعلّم باب الغار، ثم انصرف إلى قومه فأعطاهم حتى أحبوه وسادهم، وجعل يطعم الناس، وكلما قلّ ما في يده ذهب إلى ذلك الغار فأخذ حاجته.

وكانت له جفنة يأكل منها الراكب على بعيره، ووقع فيها صغير فغرق، وذكر ابن قتيبة أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال: « لقد كنت أستظل بظل جفنة عبدالله بن جدعان صكة عميٍّ» أي وقت الظهيرة، وذكروا أنه كان يطعم التمر والسويق، ويسقي اللبن حتى سمع قول أمية بن أبي الصلت:

ولقد رأيت الفاعلين وفعلهم ... فرأيت أكرمهم بني الديانِ
البر يلبك بالشهاد طعامهم ... لا ما يعللنا بنو جدعانِ

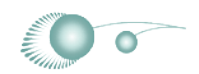
---

(١) عبدالله بن جدعان بن عمرو التيمي القرشي، أحد سادات قريش في الجاهلية، وهو صاحب دار الأرقم، كان معروفاً بالجود والكرم، سمّي « حاسي الذهب » لأنه كان يشرب في إناء من ذهب.

فأرسل ابن جدعان إلى الشام ألفي بعير تحمل البر والشهد والسمن، وجعل منادياً ينادي كل ليلة على ظهر الكعبة أن هلموا إلى جفنة ابن جدعان، فقال أمية في ذلك:

له داع بمكة مشمعل — وآخر فوق كعبتها ينادي
إلى ردح من الشيزى ملاء — لباب البر يلبك بالشهادِ

ثبت في صحيح مسلم أن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله، إن ابن جدعان كان يطعم الطعام، ويقري الضيف، فهل ينفعه ذلك يوم القيامة؟ قال: «لا، إنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين».



لبيد بن ربيعة [1]

كان لبيد بن ربيعة جواداً شريفاً في الجاهلية والإسلام، وكان قد آلى على نفسه في الجاهلية أن يُطعم ما هبت الصَّبا [2]. ثم أدام ذلك في إسلامه، وكان له جفنَتَان يغدُو بهما ويروح في كل يوم على مسجد قومه فيطعمهم.

ونزل لبيدٌ الكوفة، وأميرها الوليدُ بن عُقْبة، فبينما هو يخطبُ الناس إذ هبت الصَّبا، فقال الوليد في خطبته على المنبر: قد علمتُم حال أخيكم أبي عَقيل، وما جعل على نفسه أن يُطعم ما هبّت الصَّبا، وهذا يومٌ من أيامه. وقد هبَّت ريحها، فأعينوه، وأنا أول من فعل، ثم انصرف الوليد، فبعث إليه بمائة من الجُزر، وبهذه الأبيات:

أرى الجــزّارَ يشــحذ شــفرتَيْه ... إذا هــبّت ريـــاحُ أبي عَــقــيـلِ
أشــمُّ الأنفِ أصْــيَدُ عـامـريٌّ ... طـويل الـباع كالسيف الصقيلِ
وفـَى ابنُ الجَـعْـفَـري بـمـا نـوَاه ... على الـعـلات [3] والمـال الـقـليلِ
بنَـحْـرِ الكوم إذ سـحـبَتْ إلـيه ... ذيـــول صـبـاً تَجـاذَبُ بالأصيلِ

فلما وصلت الهديةُ إلى لبيد شكره، وقال: إني تركتُ الشعر منذ قرأت القرآن، ثم قال لابنته: أجيبيه، فلعمري لقد عشتُ دهراً وما أعيا بجواب شاعر، فقالت:

---

(١) لبيد بن ربيعة العامري، أحد أصحاب المعلقات، فارس وشاعر من المعمرين، أدرك الإسلام فأسلم وحسن إسلامه، مات سنة «٤١» هـ.

(٢) ريح الصبا: هي ريح طيبة النسيم يكون مهبها من مطلع الثريا إلى بنات نعش، قيل بأن الإنسان المهموم إذا استنشقها وخاصة في ساعات الصباح الأولى فإنه يشعر بالنشاط والحيوية وسعة الصدر.

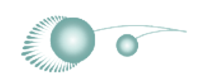
(٣) على العلات: على كل الأحوال.

إذا هبَّتْ ريـــاح أبـي عـقـيلِ دَعَـــوْنا عـنـد هبَّتها الـولـيدَا
أشـــمَّ الأنف أصيَد عبْشَمياً[1] أعـــان على مُـــــروءته لبيدَا
بأمـــثال الهضـــاب كأن رَكْباً عليـهـا مـن بني حـــام قُعُـودَا
أبـا وهـب جـزاك الله خـــيراً نحـرنـاهـا وأطـعـمـنا الـوفـودَا
فعُدْ، إنَّ الكــريـم له مـعـــادٌ وظـنِّـي بابـن أروى أن يعـــودَا

فقال لبيد: أجبت وأحسنت، لولا أنك سألت في شعرك!

قالت: إنه أمير وليس بسُوقةٍ، ولا بأس بسؤاله، ولو كان غيره ما سألناه.

قال: أجل، إنه على ما ذكرت، وأنتِ يا بنيةُ في هذا أشعر.

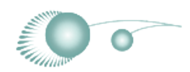


(١) عبشمياً: نسبة إلى عبد شمس.

الحسن بن علي[1]

يعتبر الحسن بن علي رضي اللّٰه عنهما من الأجواد الأسخياء، تصدق بشطر ماله ثلاث مرات في حياته، وتنازل عن الخلافة لمعاوية رضي اللّٰه عنه عام «٤٠»هـ، حقناً لدماء المسلمين. وله أقوال مأثورة في البذل والعطاء، ومن ذلك أن رجلا من جلسائه قال له: من أحسن الناس عيشاً؟ فقال رضي اللّٰه عنه: من أشرك الناس في عيشه.

وأعطى رضي اللّٰه عنه شاعراً فأجزل له العطاء، فقال له رجل من جلسائه: سبحان اللّٰه! أتعطي شاعرا يقول البهتان مثل هذا العطاء؟ فقال : يا عبد اللّٰه! إن خير ما بذلت من مالك ما وقيت به عرضك، وإن من ابتغاء الخير اتقاء الشر.



دخل رجل على الحسن رضي اللّٰه عنه فقال: لقد سمعت أنه لا يفلح قوم ملّكوا عليهم امرأة، وإنني قد ملّكت علي امرأتي فأمرتني أن أشتري عبدا فاشتريته، فهرب مني.

فقال الحسن: اختر أحد ثلاثة: إن شئت فثمن العبد..

فقاطعه الرجل وقال : ههنا ولا تتجاوز..! قد اخترنا. فأعطاه ثمنه.



---

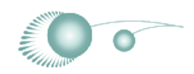
(١) الحسن بن علي بن أبي طالب: ولد سنة ثلاث من الهجرة، وقد بُشّر النبي عليه الصلاة والسلام بأن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة. تحلى بخصال الخير كالحلم والعلم والجود والحكمة، توفي عام «٥٠» هـ. ودفن بالبقيع.

الحسين بن علي [1]

اشتهر الحسين رضي الله عنه بالجود والكرم، وممن شهد له بذلك معاوية ابن أبي سفيان رضي الله عنه، فقد بعث إلى وجهاء وسادات المدينة بهدايا من كسىً وطيبٍ وصلاتٍ من المال، ثم قال لرسله: ليحفظ كلّ رجلٍ منكم ما يرى ويسمع من الردّ. فلما خرج الرسل من عنده، قال لمن حضر: إن شئتم أنبأتكم بما يكون من القوم!

قالوا: أخبرنا يا أمير المؤمنين.

فأخذ يحدث جلساءه بما يفعله كل واحد منهم بتلك الألطاف، فقال في الحسين رضي الله عنه: فأما الحسين فيبدأ بأيتام من قُتِل مع أبيه بِصِفّين، فإن بقي شيء نَحرَ به الجُزر، وسقى به اللبن.



مر الحسين بن علي رضي الله عنهما براعٍ فأهدى له شاة، فقال له الحسين: حر أنت أم مملوك؟ فقال : مملوك. فردها الحسين عليه، فقال له المملوك: إنها لي. فقبلها منه، ثم اشتراه واشترى الغنم فأعتقه وجعل الغنم له.

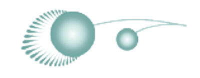


(١) الحسين بن علي بن أبي طالب ولد بالمدينة في السنة الرابعة من الهجرة، ونشأ في بيت النبوة، كان عالماً زاهداً شجاعاً سخياً وحكيماً، قتل بكربلاء سنة «٦١»هـ.

خرج الحسنان وعبدالله بن جعفر وأبو دحية الأنصاري رضي الله تعالى عنهم من مكة إلى المدينة، فأصابتهم السماء بمطر، فلجؤوا إلى خباء أعرابي، فأقاموا عنده ثلاثة أيام حتى سكنت السماء، فذبح لهم الأعرابي في كل يوم شاة من غنمه.

فلما ارتحلوا قال عبدالله للأعرابي: إن قدمت المدينة فسل عنا. فاحتاج الأعرابي بعد سنين. فقالت له امرأته لو أتيت المدينة فلقيت أولئك الفتيان. فأتى المدينة فلقي فيها الحسن رضي الله عنه فأمر له بعدد من الأبل، ثم أتى الحسين رضي الله عنه فقال: كفانا أبو محمد مؤونة الإبل، فأعطاه قطيع من الغنم، ثم أتى عبدالله بن جعفر رضي الله عنه فقال: كفاني إخواني الإبل والشياه.. فأعطاه مالاً كثيراً، ثم أتى أبا دحية رضي الله عنه فقال: والله ما عندي مثل ما أعطوك، ولكن ائتني بإبلك فأحملها لك تمراً.

فلم يزل اليسار في عقب الأعرابي منذ ذلك اليوم!.



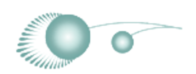
عبدالله بن جعفر [1]

كان عبدالله بن جعفر من الجود بالمكان المشهود، وله فيه أخباراً يكاد سامعها ينكرها لبعدها عن المعهود، وفي جوده يقول عُبيدالله بن قيس الرقيات:

وما كنت إلا كالأغر ابن جعفر   رأى المال لا يبقى فأبقى له ذِكرا

وكان رضي الله عنه يقول: إنَّ الرجل ليسألني الحاجة فأبادرُ إلى قضائها مخافةَ أن يستغني عنها.

ومن أخبار جوده أن الشاعر نصيب بن رباح مدحه فأعطاه مالاً كثيراً وخيلاً ورواحل، فقال له رجل: مثل هذا الأسود تعطي له هذا المال؟ فقال: إن كان أسود فإن ثناءه أبيض! ولقد استحق بما قال أكثر مما نال، وهل أعطيناه إلا ثياباً تبلى، ومالاً يفنى، وأعطانا مدحاً يروى، وثناء يبقى!؟

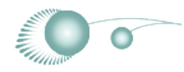


سمّن رجل بهيمة، ثم خرج بها لبيعها فمر بعبدالله بن جعفر رضي الله تعالى عنه فقال: يا صاحب البهيمة أتبيعها ؟ قال : لا ، ولكنها هي لك هبة. ثم تركها له وانصرف إلى بيته. فلم يلبث إلا يسيراً وإذا بالحمالين على بابه عشرون نفراً، عشرة منهم يحملون حنطة، وخمسة لحماً وكسوة، وأربعة يحملون فاكهة ونقلاً، وواحد يحمل مالاً، فأعطاه جميع ذلك واعتذر إليه رضي الله تعالى عنه.

---

(١) تقدم التعريف به في الصفحة ٦١.

حين مات معاوية رضي الله عنه وفد عبدالله بن جعفر على يزيد ابنه فقال: كم كان أمير المؤمنين معاوية يعطيك؟ فقال: كان رحمه الله يعطيني ألف ألف، فقال يزيد: قد زدناك لترحمك عليه ألف ألف. فقال: بأبي وأمي أنت. فقال: ولهذه ألف ألف. فقال: أما إني لا أقولها لأحد بعدك. فقيل ليزيد: أعطيت هذا المال كله من مال المسلمين لرجل واحد. فقال: والله ما أعطيته إلا لجميع أهل المدينة، ثم وكّل به يزيد من صحبه وهو لا يعلم، لينظر ما يفعل، فلما وصل المدينة فرق جميع المال حتى احتاج بعد شهر إلى الدَّين.



خرج عبدالله بن جعفر رضي الله عنه يوماً إلى ضيعة له فنزل على حائط به نخيل لقوم، وفيه غلام أسود يقوم عليه، فأتى بقوته ثلاثة أقراص، فدخل كلب فدنا من الغلام فرمى إليه بقرص فأكله، ثم رمى إليه بالثاني، والثالث فأكلهما، وعبدالله ينظر إليه. فقال: يا غلام كم قوتك كل يوم؟ قال: ما رأيت. قال: فلم آثرت هذا الكلب؟ قال: أرضنا ما هي بأرض كلاب، فعلمت أنه جاء من مسافة بعيدة جائعاً، فكرهت أن أرده. قال: فما أنت صانع اليوم؟ قال: أطوي[1] يومي هذا. فقال عبدالله بن جعفر: أأُلام على السخاء؟ وإن هذا لأسخى مني، فاشترى الحائط[2] وما فيه من النخيل والآلات. واشترى الغلام، ثم أعتقه، ووهبه الحائط بما فيه.



(١) أطوي: أبيت دون طعام.

(٢) الحائط: البستان.

كان لعبدالله بن جعفر على رجل مالٌ، فتحمَّل عليه بابن عبَّاس ليؤخِّرَه، فقال عبدالله بن جعفر: هي له يا ابنَ عمٍّ، قال: ما أردتُ هذا كله. قال ابنُ جعفر: لكنِّي أنا أردتُّه.

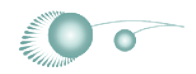


أسلفَ عبدالله بن جعفر للزبير مالاً كثيراً. فلما توفيَ الزبير قال ابن الزبير لعبدالله بن جعفر: إني وجدت في كتبِ أبي أن له عليك ديناً.

قال: هو صادق، فاقضها إذا شئت.

ثم لقيه بعد ذلك فقال: وهمتُ عليك! المال لك عليه.

قال: فهو له.



ابن عباس والأعرابية

قال تميم بن عديٍّ اليربوعي:

كنت مع عبدالله بن العباس[1] عند منصرفه من دمشق، فسألته في بعض الأيام وقلت له: بماذا يتم عقلُ الرجل؟ فقال: إذا صنع المعروف مبتدئاً به، وجاد بما هو محتاج إليه، وتجاوز عن الزّلة، وجازى على المكرمة، وتجنَّب مواطن الاعتذار، فقد تم عقله.

فحفظت ذلك منه وألصقته بقلبي، ثم بعد أيام نزلنا منزلاً فطلبنا طعاماً فلم نجده ولا قدرنا عليه لأن زياد بن أبي سفيان كان قد نزل بذلك المنزل قبلنا بأيام قليلة في جمع كثير، فأتوا على ما كان فيه من الطعام، فقال عبدالله لوكيله: اخرج إلى هذه البرية، فعلّك تجد بها راعياً معه طعام.

فمضى الوكيل ومعه غلمان، فأطالوا التوقف، فلما كادوا يرجعون لاح لهم خباء فأمّوه فوجدوا فيه عجوزاً، فقالوا لها: هل عندك طعام نبتاعه منك؟ فقالت: أما طعام بيع فلا! ولكن عندي أكْلة لي ولأولادي، قالوا: وأين أولادك؟ قالت: في رَعْيهم، وهذا وقت عودتهم. قالوا: فما أعددت لهم؟ قالت: خبزة تحت ملَّتها أنتظر بها أن يجيئوا. قالوا لها: فجودي لنا بنصفها، قالت: لا، ولكن بها كلّها، قالوا: ولِمَ منعت النصف وُجدت بها كلّها، ولا خبز عندك غيرها. قالت: إن إعطاء الشطر من خبزة نقيصة، فأنا أمنع ما يُنْقِصني وأجود بما يرفعني، فأخذوا الخبزة لفرط حاجتهم إليها وانصرفوا، ولم تسأل من هم، ولا من أين جاؤوا.

---

(١) عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، حبر الأمة وفقيهها وإمام التفسير، توفي بالطائف عام « ٦٨ » هـ.

فلما أتوا عبدالله وأخبروه خبر العجوز عجب من ذلك! وقال: ارجعوا إليها فاحملوها في دعة وأحضروها.

فرجعوا إليها وقالوا لها: إن صاحبنا أحبَّ أن يراك. فقالت: ومن صاحبكم؟ قالوا: عبدالله بن العباس. قالت: ما أعرف هذا الاسم. قالوا: العباس بن عبدالمطلب وهو عمّ النبي صلى الله عليه وسلم. قالت: والله هذا الشرف العالي وذِرْوته الرفيعة، وماذا يريد مني؟ قالوا: يريد أن يكافئك على ما كان منك. فقالت: لقد أفسد الهاشمي ما أثّل له ابن عمه عليه السلام! والله لو كان ما فعلتُ معروفاً ما أخذت عليه ثواباً! وإنما هو شيء يجب على كل إنسان أن يفعله. قالوا: فإنه يحب أن يراك ويسمع كلامك. قالت: أصير إليه لأني أحب أن أرى رجلاً من جناح النبي وعضواً من أعضائه.

فلمّا سارت إليه رحَّب بها، وأدنى مجلسها، وقال: كيف حالك؟ قالت: لم يبقَ من الدنيا ما يفرح إلا وقد بلغته، وإني الآن أعيش بالقناعة، وأصون القرابة، وأنا أتوقَّع مفارقة الدنيا صباحاً ومساءً.

قال: أخبريني ما الذي أعددت لأولادك عند انصرافهم بعد أخذنا الخبزة؟ قالت: أعددتُ لهم قول العربيّ:

ولقد أبيتُ على الطّوى وأظلُّه ... حتّى أنال به كريم المأكلِ

فأعجبه قولها.

وقال لبعض غلمانه: انطلق إلى خبائها، فإذا أقبل بنوها فجِئْ بهم. فقالت للغلام: انطلق فكن بفناء البيت، فإنَّهم ثلاثة، فإذا رأيتهم تجد أحدهم دائم النظر نحو الأرض، عليه شعار الوقار، فإذا تكلّم أفصح، وإذا طلب أنجح.

والآخر حديد النظر، كثير الحذر، إذا وعد فعل، والآخر كأنه شعلة نار، وكأنه يطلب بثأر، فإذا رأيت هذه الصفة فيهم، فقل لهم عنِّي: لا تجلسوا حتى تأتوني.

فانطلق الغلام فأخبرهم الخبر، فما بعد أمده حتى جاؤوا. فأدناهم عبدالله وقال: إني لم أبعث إليكم وإلى والدتكم إلا لأصلح من أمركم، وأصنع ما يجب لكم. فقالوا: إن هذا لا يكون إلا عن مسألة أو مكافأة لفعلٍ جميلٍ تقدَّم، ولم يصدر منا واحدة منهما! فإن كنت أردت التكرُّم مبتدئاً فمعروفك مشكور، وبرّك مقبول مبرور.

فأمر لهم بسبعة آلاف درهم وعشر من النوق، فقالت لهم العجوز: ليقل كل واحد منكم بيتاً من قوله:

فقال الأكبر:

شهدتُ عليك بحسنِ المقال   وصدق الفعال وطيب الخبَرْ

وقال الأوسط:

تبرّعت بالبذْل قبل السؤال   فعال كريم عظيم الخطَرْ

وقال الأصغر:

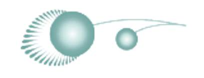
وحق لمن كان ذا فعله   بأن يسترقَّ رقاب البشَرْ

وقالت العجوز:

فعمَّرك الله من ماجد   ووقِّيت ما عشت شرّ القدَرْ

ثم ودعوه وانصرفوا.

قال تميم اليربوعي: فالتفت إليَّ وقال لي: يا تميم! وددت لو وجدت مزيداً في ابتداء المعروف إلى هذه المرأة وبنيها، وجعل يتأوّه من تقصيره عن مراده في ذلك. فقلت له: لقد أحسنت وأرْجحت، وقد شهد فعلك بما سبق من قولك. فأنت أتمّ الناس عقلاً، وأكملهم مُروءةً!



عبيدالله بن عباس [1]

من جود عبيدالله بن عبّاس، أنه أولُ من فطَّر جيرانه، وأول من وضع الموائد على الطُّرق، وفيه يقول شاعر المدينة المدينة المنورة:

وفي السَّنة الشهباء أطعمتَ حامضاً ... وحُلــواً، ولحـمــاً تامكاً ومُمَزَّعا

وأنتَ ربيـــعٌ لليتــامى وعِصْـمــةٌ ... إذا المحلُ من جوِّ السمــاء تطَلّعا

أتى رجل إلى عبيدالله بن عباس وهو بفناءِ داره، فقام بين يديه فقال: يا ابن عباس، إن لي عندك يداً، وقد احتجتُ إليها. فصعَّد فيه بصره وصوَّبه، فلم يعرفه، ثم قال له: ما يدك عندنا؟

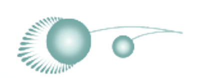
قال: رأيتُك واقفاً بزَمْزَم وغلامُك يمتح لك من مائها، والشمس قد صهرتك، فظلَّلتُك بطَرَف كسائي حتى شربت.

قال: إني لأذكرُ ذلك، وإنه يتردّدُ بين خاطري وفكري.

ثم قال ل لوكيله: ما عندك؟

قال: مائتا دينار وعشرة آلاف درهم.

قال: فادفعها إليه، وما أراها تفي بحقٍّ يده عندنا!.



ضاقت على الحسين بن علي رضي اللّه عنهما أحواله، فقيل له: لو وجّهت إلى ابن عمك عبيدالله، فإنه قد قدم بنحوٍ من ألف ألف درهم.

فقال الحسين: وأين تقعُ ألف ألفٍ من عبيداللّه، فواللّه لهو أجود من

---

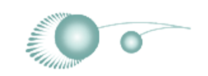
(١) عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب كان مشهوراً بالجود كثير العطاء والصِلات، توفي سنة «٨٧» هـ.

الريح إذا عصفت، وأسخى من البحر إذا زخر.

ثم وجّه إليه مع رسوله بكتاب ذكر فيه ضيق حاله، وأنه يحتاج إلى مائة ألف درهم. فلما قرأ عبيدالله كتابه، وكان من أرقّ الناس قلباً، وألينهم عطفاً، انهملت عيناه، ثم قال لقهرمانه: احمِل إلى الحُسين نصفَ ما أملكه من فضّة وذهبٍ وثوبٍ ودابةٍ، وأخْبِرْه أني شاطرتُه مالي، فإن أقنعه ذلك، وإلا فارجع واحمل إليه الشطر الآخر.

فلما أتى الرسول برسالته إلى الحسين، قال: إنا لله! حملتُ والله على ابن عمي وما حسبته يتّسع لنا بهذا كله. فأخذ الشطر من ماله.

وهو أول من فعل ذلك في الإسلام.



جاء رجل من الأنصار إلى عبيدالله فقال: يا ابن عم رسول الله، إنه وُلد لي في هذه الليلة مولود، وإني سمَّيته باسمك تبرُّكاً مني به، وإنّ أمّه ماتت. فقال عبيدالله: بارك الله لك في الهِبة، وأجزلَ لك الأجر على المصيبة.

ثم دعا بوكيله، فقال: انطلق الساعةَ فاشتر للمولود جارية تحضِنْه، وادفع إليه مائتي دينار للنفقة على تربيته، ثم قال للأنصاري: عُد إلينا بعد أيام، فإنك جئتنا وفي العيش يُبس، وفي المال قلّة.

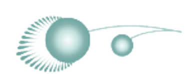


قيس بن سعد [١]

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عبيدة رضي الله عنه في سرية فيها المهاجرون والأنصار، وهم ثلاثمائة، إلى حي من جهينة على ساحل البحر، فأصابهم جوع شديد. فأمر أبو عبيدة بالزاد، فُجمع، حتى كانوا يقتسمون التمرة.

فقال قيس بن سعد: من يشتري مني تمراً بجُزر[٢]، يوفيني الجزُر هاهنا وأوفيه التمر بالمدينة!؟ فوجد رجلاً من جهينة، فاشترى منه خمس جزائر، كل جزور بوسق من تمر، فنحرها لهم في ثلاثة مواطن. فلما كان في اليوم الرابع، نهاه أميره، وقال: أخشى أن تخرب ذمتك ولا مال لك.

ولما بلغ أباه سعداً ما أصاب القوم من المجاعة، قال: إن يك قيس كما أعرف، فسوف ينحر للقوم! فلما قدم، قص على أبيه الخبر، وكيف منعوه آخر شيء من النحر، فكتب له أربع حوائط أدنى حائط منها يجدُّ خمسين وسقاً. وحين علم النبي صلى الله عليه وسلم بما فعل قيس قال: «أما إنه في بيت جود».



مرض قيس رضي الله عنه فلم يزره أصحابه، فاستبطأهم، فقيل له: إنهم يستحيون ممّا لك عليهم من الدين. فقال: أخزى الله مالاً يمنع الإخوان من الزيارة.

---

(١) قيس بن سعد بن عبادة، من السادات الكبار ومن الأجواد المشهورين، كان من دهاة العرب، مات سنة «٥٨» هـ.

(٢) جُزر: جمع جزور وهو السمين من الإبل.

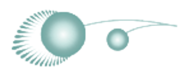
ثم أمر منادياً فنادى: من كان لقيس عليه حق فهو منه في حلّ. قيل: فانكسرت عتبة باب داره من شدة الزحام لكثرة من عاده.



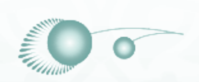
قيل لقيس: هل رأيت قط أسخى منك؟ قال: نعم! كنا في قافلة فأصابتنا السماء بمطر فنزلنا على رجل في البادية، فجاء بناقة فنحرها. وقال: شأنكم.

فلما كان من الغد جاء بأخرى فنحرها وقال: شأنكم. فقلنا: قد بقي من التي نحرت البارحة. فقال: إني لا أطعم ضيفاني البائت. فبقينا عنده أياماً، والسماء تمطر، وهو يفعل كذلك.

فلما أردنا الرحيل وضعنا مائة دينار في بيته. وقلنا للمرأة: اعتذري لنا إليه. ومضينا. فلما ارتفع النهار إذا برجل يصيح خلفنا: قفوا أيها الركب اللئام! أعطيتمونا ثمن قِرانا، ثم إنه لحقنا وقال: خذوها وإلا طعنتكم برمحي هذا. فأخذناها وانصرفنا.



حين خرج سعد بن عبادة والد قيس إلى الشام قسم ماله بين أولاده ثم مات هناك. وأنجبت إحدى زوجاته ولداً بعد موته، فجاء أبو بكر وعمر – رضي الله عنهما – إلى ابنه قيس، فقالا: نرى أن ترد على هذا، فقال: ما أنا بمغير شيئاً صنعه سعد، ولكن نصيبي له.



الأجواد الثلاثة

تمارى ثلاثة في الأجواد فقال رجل: أسخى الناس في عصرنا عبدالله بن جعفر بن أبي طالب، وقال آخر: بل أسخى الناس اليوم عرابة الأوسي[1]. وقال آخر: بل هو قيس بن سعد بن عبادة، فتلاحوا فأفرطوا في المراء، وكثر ضجيجهم.

فقال لهم رجل: قد أكثرتم الملاحاة فلا عليكم أن يمضي كل واحد منكم إلى صاحبه يسأله حتى ننظر ما يعطيه، فنحكم على العيان.

فقام صاحب عبدالله بن جعفر إليه، فصادفه وقد وضع رجله في غرز راحلته يريد ضيعة له، فقال له: يا ابن عم رسول الله! قال: قل ما تشاء. قال: ابن سبيل منقطع به، فأخرج رجله من الغرز وقال: ضع رجلك واستو على الناقة، وخذ ما في الحقيبة ولا تُخدعن عن السيف، فإنه من سيوف علي بن أبي طالب قال: فجاء بالناقة، والحقيبة فيها مطارف خز، وأربعة آلاف دينار، وأعظمها وأجلها السيف.

ومضى صاحب قيس بن سعد بن عبادة فصادفه نائماً، فقالت الجارية: هو نائم فما حاجتك إليه؟ قال: ابن سبيل ومنقطع به. قالت: حاجتك أهون من إيقاظه، هذا كيس فيه سبعمائة دينار، ما في دار قيس اليوم غيرها، وامض إلى معاطن الإبل فخذ راحلة من رواحله وما يصلحها وعبداً، وامض لشأنك.

قيل: إن قيساً لما انتبه أخبرته الجارية بما صنعت فأعتقها. ولو لم تعلم

---

(١) عرابة بن أوس بن قيظي الأوسي، من الأجواد المشهورين وأحد سادات المدينة، مات سنة «٦٠» هـ.

أن ذلك يرضيه ما جسرت أن تفعله، فخُلُق خدم الرجل مقتبس من خُلُقه. قال بعض الشعراء:

وإذا ما اختبرت ود صديق فاختبر وده من الغلمانِ

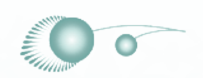
ومضى صاحب عرابة فوجده قد خرج من منزله يريد الصلاة. فقال: يا عرابة! ابن سبيل ومنقطع به. وكان معه عبدان فصفق بيده اليمنى على اليسرى، وقال: أواه أواه! والله ما أصبح ولا أمسى الليلة عند عرابة شيء، ولا تركت له الحقوق مالاً، ولكن خذ هذين العبدين. فقال الرجل: والله ما كنت بالذي يسلبك عبديك. فقال: إن أخذتهما أو لا فهما حران لوجه الله تعالى، فإن شئت فخذ، وإن شئت فأعتق. فأخذ الرجل العبدين ومضى.

ثم اجتمعوا وذكروا قصة كل واحد فحكموا لعرابة لأنه أعطى على جهده.

وكان سبب ارتفاع عرابة الأوسي وسؤدده أنه قدم من سفر فجمعه والشماخ بن ضرار المزني الطريق، فتحادثا، فقال له عرابة: ما الذي أقدمك المدينة يا شماخ!؟ قال: قدمتها لأمتارَ[1] منها، فملأ له عرابة رواحله براً وتمراً، وأتحفه بتحف غير ذلك، فأنشد يقول:

رأيت عرابة الأوسي يسمو إلى الخيرات منقطع القرينِ

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمينِ



(١) أمتار: أجلب الطعام.

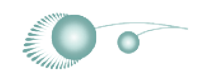
معاوية بن أبي سفيان (١)

وفد أبو الجهم العدوي على معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وكان من شيوخ قريش وأكابرهم، فأمر له بمائة ألف درهم، فأراد بعد ذلك أن يسأله حاجة، فقال له ابنه: يا أبة! لا تكثر على أمير المؤمنين فتملَّه، قال: يا بني إن أمير المؤمنين كما قال الشاعر:

نقلِّبه لنخبُر حالتيه ... فنخبُرُ منهما كرماً ولينا

نميل على جوانبه كأنّا ... نميل إذا نميل على أبينا

فأمر له معاوية بمائة ألف أخرى.



وفد أهل الكوفة على معاوية رضي الله عنه بدمشق حين خطب لابنه يزيد بالعهد بعده، وفي أهل الكوفة هانئ بن عروة المراديّ، وكان سيّداً في قومه، فقال يوماً في مسجد دمشق والناس حوله: العجبُ لمعاوية يريد أن يقْسرنا على بيعة يزيد، وحالُه حالُه وما ذاك بالله بكائن.

وكان يجلس في القوم غلام من قريش، فتحمَّل الكلمة إلى معاوية، فقال معاوية: أنت سمعت هانئاً يقولها؟ قال: نعم!

قال: فاخرج فأْتِ حَلْقته فإذا خفَّ الناس عنه، فقل له: أيها الشيخ قد وصلت كلمتك إلى معاوية ولست في زمن أبي بكر وعمر، ولا أحبُّ أن تتكلم

---

(١) معاوية بن صخر بن حرب بن أمية القرشي، أسلم عام الفتح، كان من كتبة القرآن، ولّي الشام لعمر، ثم لعثمان ثم تولى الخلافة سنة «٤١» هـ، وتوفي سنة «٦٠» هـ.

بهذا الكلام، ولم يَدْعُني إلى هذا القول لك إلا النصيحة والإشفاق عليك.
ثم انظر ما يقول فأتني به!.

فأقبَل الفتى إلى مجلس هانئ، فلمّا خفّ من عنده دنا منه، فقص عليه الكلام وأخرجه مَخْرَج النصيحة له.

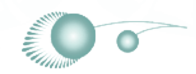
فقال هانئ: واللّه يا ابن أخي ما بلغَتْ نصيحتك كلَّ ما أسمع، وإن الكلام لكلامُ معاوية أعرفه، فما عليك! إذا لقيته فقل له: يقول لك هانئ: واللّه ما إلى ذلك من سبيل. انهض يا ابن أخي راشداً.

فقام الفتى فدخل على معاوية. فأعلمه، فقال: نستعين باللّه عليه.

ثم قال معاوية بعد أيام للوفد: ارفعوا حوائجكم، وهانئ فيها، فعرض عليه كتابه فيه ذكر حوائجه. فقال: يا هانئ، ما أراك صنعت شيئاً! زِدْ. فقام هانئ فلم يدع حاجة له إلا ذكرها. ثم عرض الكتاب عليه، فقال: أراك قصَّرت فيما طلبت. زدْ! فقام هانئ، فلم يدع حاجة لقومه ولا لأهل مصره إلا ذكرها. ثم عرض عليه الكتاب. فقال: ما صنعت شيئاً، زدْ! فقال: يا أمير المؤمنين، حاجة بقيت! قال: ما هي؟ قال: أن أتولى أخذ البيعة ليزيدَ ابن أمير المؤمنين بالعراق! قال: افعَلْ، فمازلت لمثل ذلك أهلاً. فلمّا قدم هانئ العراق قام بأمر البيعة ليزيد بمعونة من المغيرة بن شعبة، وهو والي العراق يومئذٍ.

الأحنف بن قيس [1]

قال رجل للأحنف: أتيتك في حاجة لا ترزؤك ولا تنكؤك (يعني يسيرة).
قال: إذاً لا تقضى، أن مثلي لا يؤتى إلا فيما يَرْزَؤه ويَنْكَؤه.



قدم وفد من العرب على معاوية رضي الله عنه وفيهم الأحنف بن قيس. فقال الحاجب: إن أمير المؤمنين يعزم عليكم أن لا يتكلم منكم أحد إلا لنفسه.

فلما وصلوا إليه قال الأحنف: لولا عزم أمير المؤمنين لأخبرته أن رادفة ردفت ونازلة نزلت، ونائبة نابت، والكل بهم حاجة إلى المعروف من أمير المؤمنين. فقال له معاوية: حسبك يا أبا بحر، فقد كفيت الشاهد والغائب.



قال الأحنف بن قيس يوماً لقومه: إنّما أنا رجل منكم ليس لي فضل عليكم، ولكني أبسط لكم وجهي، وأبذل لكم مالي، وأقضي حقوقكم، وأحفظ حرمتكم، فمن فعل مثل فعلي فهو مثلي، ومن زاد عليّ فهو خير مني، ومن زدتُ عليه فأنا خير منه.

فقيل له: ما يدعوك إلى هذا الكلام؟

قال: أحضُّهم على مكارم الأخلاق.

---

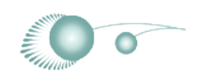
(١) الأحنف بن قيس بن معاوية التميمي، يضرب بحلمه وسؤدده المثل، اسمه الضحاك، وقيل صخر، واشتهر بالأحنف، أسلم في حياة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ووفد على عمر، توفي سنة «٦٧» هـ.



قدم وفد من البصرة على عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان فيهم الأحنف بن قيس، فتكلم كل رجل في خاصة نفسه.

وكان الأحنف في آخر القوم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد: يا أمير المؤمنين! فإن أهل مصر نزلوا منازل فرعون وأصحابه، وإن أهل الشام نزلوا منازل قيصر وأصحابه، وإن أهل الكوفة نزلوا منازل كسرى ومصانعه في الأنهار والجنان تأتيهم ثمارها قبل أن تبلغ، وإن أهل البصرة نزلوا في أرض سبخة زعقة نشاشة لا يجف ترابها، ولا ينبت مرعاها، طرفها في بحر أجاج، وطرف في فلاة، لا يأتينا شيء إلا في مثل مريء النعامة! فارفع خسيستنا، وأنعش وكيستنا، وزد في عيالنا عيالا، وفي رجالنا رجالا، وصفر درهمنا، وكبر قفيزنا، ومر لنا بنهر نستعذب منه.

فقال عمر: أعجزتم أن تكونوا مثل هذا؟ هذا والله السيد!

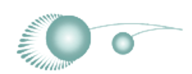


قيس بن عاصم [(١)]

كان رضي اللّه عنه سيداً كريماً حليماً يُقتدى به، فقد قيل للأحنف رضي اللّه عنه: ممن تعلمت الحلم؟ قال: من قيس بن عاصم؛ رأيته يوماً محتبيا فأُتي برجل مكتوف وآخر مقتول، فقيل: هذا ابن أخيك، قتل ابنك.

فالتفت إلى ابن أخيه فقال له: «يا ابن أخي! بئسما فعلت، أثمت بربك، وقطعت رحمك، ورميت نفسك بسهمك».

ثم قال لابن له آخر: «قم يا بني فوارِ أخاك، وحل كتاف ابن عمك، وسُق إلى أمه مائة ناقة دية ابنها، فإنها غريبة».



قال له النبي صلى اللّه عليه وسلم: «يا قيس أمالك أحب إليك أم مال مواليك؟».

قال رضي اللّه عنه: بل مالي.

فقال صلى اللّه عليه وسلم: «فإنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت، أو أعطيت فأمضيت، وما بقي فلورثتك».

فقال رضي اللّه عنه: «يا رسول اللّه! لئن بقيت لأدعن عددها قليلاً »، وقد قيل عنه أنه فعل ذلك.



---

(١) قيس بن عاصم المنقري، سيد تميم، وفد على النبي صلى اللّه عليه وسلم سنة تسع من الهجرة، فبسط عليه الصلاة والسلام له رداءه وقال: «هذا سيد أهل الوبر».

لما حضرت قيس بن عاصم رضي اللّه عنه الوفاة دعا بنيه فقال:

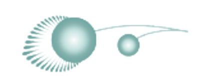
يا بني! احفظوا عني فلا أحد أنصح لكم مني، إذا أنا مت فسودوا كباركم ولا تسودوا صغاركم، فتسفه الناس كباركم وتهونوا عليهم. وعليكم بإصلاح المال فإنه منبهة للكريم، ويستغني به عن اللئيم. وإياكم ومسألة الناس فإنها آخر كسب المرء، ولا تقيموا عليّ نائحة فإني سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم نهى عن النائحة.

وحين توفي رضي اللّه عنه تحركت لموته القلوب، فقال فيه الشاعر عَبْدة بن الطبيب التميمي مرثية رائعة منها قوله:

عَلَيْكَ سَلامُ اللّه قَيْسَ بنَ عَاصِم ... وَرحمتُهُ مَا شَاءَ أنْ يتَرَحَّمَا

تَحِيَّةُ مَنْ أَوْلَيْتَهُ مِنْكَ نِعْمَةً ... إذا ذُكِرَتْ مِثْلُهَا تَمْلأُ الفما

ومَا كانَ قَيْسٌ هُلْكُهُ هُلْكَ واحِدٍ ... ولِكَنَّهُ بُنْيَانُ قَومٍ تَهَدَّمَا



سعيد بن العاص[1]

كان من الأجواد وقد جمع الشرف والسخاء والفصاحة. وفيه يقول الفرزدق:

ترى الغُرّ الجحاجحَ من قريشٍ إذا ما الأمـرُ في الحَدَثان عالا

قيـامـاً ينظــرونَ إلى سعيدٍ كـــأنهم يـــرونَ به هــلالا

ومما يذكر من جوده أن أعرابياً يُطلب في أربع دياتٍ قدِمَ المدينةَ، فقيل له: عليك بالحسن بن عليّ، أوبعبداللّه بن جعفر، أو بسعيد بن العاص، أوبعبيداللّه بن العباس رضي اللّه تعالى عنهم.

فدخل المسجد فرأى رجلاً يخرج معه جماعةٌ، فقال: مَن هذا؟ فقيل: سعيد بن العاص. قال: هذا أحدُ أصحابي الذين ذُكروا لي. فمشى معه فأخبره بالّذي قَدِمَ له ومَنْ ذُكِرَ له، وأنّه أحدُهم، وهو ساكتٌ عنه لا يجيبه. فلمّا بلغ باب منزله أخرج إليه أربعين ألفاً. فاحتملها الأعرابيُّ، فمضى إلى البادية ولم يَلْقَ غيره.



قدم سعيد بن العاص الكوفةَ عاملاً عليها، فكانت له موائدُ يغشاها الأشرافُ والقُرّاء، فكان فيمن يغشى موائدَه رجلٌ من القُرَّاء فقير، فقالت له امرأته يوماً: إنه يبلغُنا عن أميرنا هذا كرمٌ وجود، فاذكُر له بعضَ ما نحنُ فيه.

(١) تقدم التعريف به ص ٦٢.

فتعشّى عنده ذاتَ ليلة، فلما انصرف الناسُ ثبت الرجل، فقال له سعيد: إني أرى جلوسَك، وما جلستَ إلا ولك حاجة، فاذكرها رحمك اللّه! فتعقد الرجل وتلعثم.

فقال سعيد لغلمانه: تنحّوا، ثم قال له: رحمك اللّه لم يَبْقَ إلا أنا وأنت، فاذْكُرْ حاجتَك، فتعقّد أيضاً وتعصّى، فنفخ سعيدٌ المصباح فأطفأه، ثم قال له: رحمك اللّه! إنك لست ترى وجهي، فاذكرْ حاجتك!

قال: أصلح اللّه الأمير، أصابتنا حاجة فأحببتُ ذكرها لك. فقال له: إذا أصبحت فَالْقَ فلاناً وكيلي!

فلما أصبح لقي الوكيلَ، فقال له: إن الأمير قد أمرني بشيءٍ، فهل جئتَ بمَنْ يحمل؟ قال: لا واللّه ما عندي من يحمل! ورجع إلى امرأته، وجعل يَعْذلها ويلومها. وقال لها: إن وكيله قال: لو جئتَ بمن يحمل؟ وما هي إلا كيس من تمر، أو قفيز من بر! ولو كانت دراهم أو دنانير أعطانيها بيده! قالت: ما كان من شيء فقوتنا به.

فمكثَ أياماً، ثم لقيه الوكيل، فقال له: ويحك! أين تكون؟ أخبرتُ الأميرَ أنه ليس عندك من يحمل، فأمرني أن أوجه معك بمن يحمل.

فوجّه معه بثلاثة من السودان يحمل كل واحد بدرة[1] على عاتقه، حتى أوردها منزله. فأطلق وكاء بدرة منها، ووهب لهم منها دريهمات، وقال: انصرفوا! قالوا: إلى أين؟ ما حمل له مملوكٌ قطُّ هدية، فرجع في ملكه!.



---

(١) بدرة: كيس فيه عشرة آلاف درهم.

كان معاوية رضي الله عنه يداول ولاية المدينة بين سعيد بن العاص ومروان بن الحكم. وحين دخل سعيد عليه قال له معاوية: كيف تركت أبا عبدالملك؟ يعني مروان.

قال: تركته منفذاً لأمرك، مصلحاً لعملك.

قال معاوية: إنه كصاحب الخبزة كُفي إنضاجها فأكلها.

قال: كلا يا أمير المؤمنين، إنه من قومٍ لا يأكلون إلا ما حصدوا، ولا يحصدون إلا ما زرعوا.

قال: فما الذي باعد بينك وبينه؟

قال: خفتُه على شرفي وخافني على مثله.

قال: فأي شيء كان له عندك؟

قال: أسوؤه حاضراً وأسره غائباً.

قال: يا أبا عثمان، تركتنا في هذه الحروب.

قال: حملتَ الثقلَ وكُفيتَ الحزم.

قال: فما أبطأ بك؟

قال: غِناك عني أبطأني عنك، وكنتُ قريباً، لو دعوتَ لأجبناك، ولو أمرت لأطعناك.

قال: ذلك ظنُّنا بك.

فأقبل معاوية على أهل الشام، فقال: يا أهل الشام، هؤلاء قومي وهذا كلامهم.

ثم قال: أخبرني عن مالِكَ، فقد نُبِّئت أنك تتحرى فيه.

قال: يا أمير المؤمنين، لنا مال يخرج لنا منه فَضْل، فإذا كان ما خرج قليلاً أنفقناه على قلّته، وإن كان كثيراً فكذلك، غير أننا لا ندّخر منه شيئاً عن معسر، ولا طالب، ولا مستحمل، ولا نستأثر منه بفلذة لحمٍ، ولا مزعة شحم.

قال: فكم يدوم لك هذا؟

قال: من السنة نصفها.

قال: فما تصنع في باقيها؟

قال: نجدُ من يسلِّفنا ويسارعُ إلى معاملتنا.

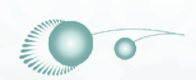
قال: ما أحد أحوجُ إلى أن يصلَح من شأنِه منك.

قال: إن شأننا لصالح يا أمير المؤمنين، ولو زدتُ في مالي مثله ما كنت إلا بمثل هذه الحال.

فأمر له معاوية بمال كثير، وقال: اشترِ به ضيعة تعينُك على مروءتك.

فقال سعيد: بل أشتري به حمداً وذِكراً باقياً، أُطعِمُ الجائع، وأزوِّج الأيِّمَ، وأفُكّ العاني، وأواسي الصديقَ، وأصلحُ حال الجار.

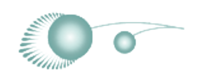
فلم تأتِ عليه ثلاثةُ أشهرٍ وعنده منها درهم. فقال معاوية: ما فضيلةٌ بعد الإيمان باللهِ هي أرفع في الذكر، ولا أنبه في الشرف من الجود، وحسبك أن الله تبارك وتعالى جعل الجود إحدى صفاته.



باع سليمان بن الجهم داره بمائة ألف درهم، ثم قال: بكم تشترون جوار سعيد بن العاص؟ قالوا: وهل يُشترى جوار قط؟

قال: ردوا عليّ داري وخذوا مالكم، فإني والله لا أدع جوار رجل إن قعدت سأل عني، وإن رآني رحب بي، وإن غِبْتُ حفظني، وإن شهدت قربني، وإن سألته قضى حاجتي، وإن لم أسأل بدأني، وإن نابتني حاجة فرَّج عني.

فبلغ ذلك سعيداً، فبعث إليه بمائة ألف درهم، وقال: أمسك عليك دارك.



لما حضرت سعيد بن العاص الوفاة، جمع بنيه فقال: أيكم يكفل دَيني؟ فسكتوا. فقال: مالكم لا تكلّمون؟ فقال ابنه عمرو: وكم دَينك؟ قال: ثمانون ألف دينار. قال: وفيم استدنتها يا أبتِ؟ قال: في كريم سددت فاقته، ولئيم فديت عرضي منه، قال: هي عليَّ يا أبت.

قال سعيد: مضت خلّة وبقيت خلّتان. قال عمرو: ما هما يا أبت؟

قال سعيد: إخواني، إن فقدوا وجهي فلا يفقدوا معروفي، قال عمرو: أفعلُ يا أبت.

قال سعيد:مضت خلّتان وبقيت خلّة. قال عمرو: وما هي؟ قال: بناتي، لاتزوجهن إلا من الأكفاء، ولو تقلوا حبَّ الشعير. قال عمرو: أفعلُ يا أبت.

قال سعيد: والله لقد عرفت نجابتك في حماليق وجهك وأنت في مهدك.

عبدالله بن عامر (١)

يعتبر عبدالله بن عامر أحد قادة الفتوحات الإسلامية البارزين، واشتهر بالوجاهة والشجاعة والكرم. استعمله عثمان رضي الله عنه على البصرة وعزل أبا موسى، فقال أبو موسى: قد أتاكم فتى من قريش، كريم الأمهات والعمات والخالات، يقول بالمال فيكم هكذا وهكذا.

وكان الناس يفدون عليه لسخائه وكثرة عطائه، ومن ذلك أن رجلين من المدينة خرجا للوفادة عليه، أحدهما من ولد جابر بن عبدالله الأنصاري والآخر من ثقيف، فأقبلا يسيران، حتى إذا كانا بناحية البصرة، قال الأنصاري للثقفي: هل لك في رأي رأيته؟

قال: اعرضه.

قال: ننيخ رواحلنا، ونتوضأ، ونصلّي ركعتين، نحمد الله عز وجل فيهما، على ما قضى في سفرنا.

قال له: نعم، هذا الرأي الذي لا يُردّ.

قال: ففعلا.

ثم التفت الأنصاري إلى الثقفي، فقال له: يا أخا ثقيف، ما رأيُك؟

قال: وأيُّ موضعِ رأيٍ هذا؟ قضيتُ سفري، وأضنيتُ بَدَني، وأتعبتُ راحلتي، ولا مؤمَّلَ دون ابنِ عامرٍ، فهل لك من رأي غير هذا؟

---

(١) عبد الله بن عامر بن كريز القرشي، كان من كبار أمراء العرب وقادتهم وشجعانهم وأجوادهم، افتتح خراسان وقتل كسرى، ثم أحرم من نيسابور شكراً لله، توفي سنة «٥٩» هـ فقال معاوية: بمن نفاخر وبمن نباهي بعده!؟

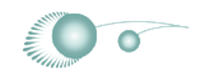
قال: نعم، إنِّني لمّا صلَّيت، فكّرتُ، فاستحييتُ من ربّي، أن يراني طالبَ رزقٍ من عند غيرِه. ثم قال: اللهمَّ رازقَ ابن عامرٍ ارزقني من فضلك، ثم ولّى راجعاً إلى المدينة.

ودخل الثقفي إلى البصرة، فمكثَ على باب ابنِ عامرٍ أيّاماً، فلمّا أذِنَ له دخل عليه، وكان قد كُتب إليه من المدينة بخبرهما.

فلمّا رآه رحَّب به، وقال: ألم أخبَرّ أنَّ ابن جابرٍ خرجَ معك؟

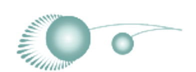
فأخبرَه ما كان منهما. فبكى ابنُ عامر، وقال: واللّه ما قالها أشراً ولا بطراً، ولكن رأى مجرى الرِّزق، ومخرجَ النِّعمة، فعلمَ أن اللّه عز وجل هو الذي فعل ذلك، فسألَه من فضله.

ثم أمر للثقفي بأربعة آلاف، وكسوةٍ وطُرَفٍ، وأضعفَ ذلك للأنصاري.



وصيــة

أخذ أحد الولاة عروة بن أُذينة، وقطع يده ورجله، وصلبه على باب داره. فقال لأهله وهو مصلوب: انظروا إلى هؤلاء الموكَّلين بي من الحرس فأحسنوا إليهم، فإنهم أضيافُكم.



رؤيــا

هناك قصصاً تؤكد قول القائل: «إن الكريم إذا خادعته انخدعا».

فقد دخل ابن عبدل على بشر بن مروان[1] لما ولي الكوفة فقال: أيها الأمير! إني رأيت رؤيا فأذن لي في قصصها. فقال له: قل. فقال:

أغفيتُ قبل الصبح نوم مسهّد ... في ساعة ما كنتُ قبل أنامها

فرأيتُ أنك رُعْتني بوليدة ... مفلوجة، حسن عليَّ قيامها

وببدرة حملت إليّ، وبغلة ... شهباء، ناجية يصر لجامها

فقال له بشر بن مروان: كل شيء رأيتَ فهو عندي، وسوف أعطيك إياه إلا البغلة، فإنها دهماء فارهة.

قال: امرأتي طالقٌ ثلاثاً إن كنتُ رأيتُها إلا دهماء، إلا أني غلطت!.

فضحك منه وأعطاه ما اشار إليه في رؤياه.

(١) بشر بن مروان بن الحكم القرشي أحد الأمراء الأجواد، ولي إمرة العراقين «البصرة والكوفة»، مات سنة «٧٥»هـ.

عبيدالله بن أبي بكرة [1]

كان من أجود الأجواد، وكان - رحمه الله - ينفق على أربعين داراً من جيرانه عن يمينه، وأربعين عن يساره، وأربعين أمامه وأربعين خلفه، ويبعث إليهم بالأضاحي والكسوة في الأعياد، ويعتق في كل عيد مائة مملوك.

عطش ابن أبي بكرة يوماً في طريقه فاستسقى من منزل امرأة، فأخرجت له كوزاً، وقامت خلف الباب وقالت: تنحوا عن الباب، وليأخذه بعض غلمانكم، فإني امرأة عزب مات زوجي منذ أيام.

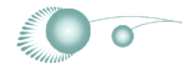
فشرب عبيدالله الماء، وقال: يا غلام! احمل إليها عشرة آلاف درهم.

فقالت: سبحان الله! أتسخر بي؟

فقال: يا غلام احمل إليها عشرين ألفاً.

فقالت: أسأل الله العافية.

فقال: يا غلام احمل إليها ثلاثين ألفاً، فما أمست حتى كثر خطابها.



خرج ابن أبي بَكرة يريد المدينة، فرأى خباءً مضروباً رثّاً، فقال: لمن هذا؟ قالوا: لسعيد بن عثمان بن عفان، يريد خراسان فقد ولاه معاوية إياها.

فمشى إليه، وقال: أنت ابن أمير المؤمنين عثمان والي خراسان في هذه الهيئة؟! اجعل طريقك بالبصرة، وسوف أكتُبُ إلى وكيلي ليُجهِّزك، فكتب

---

(١) عبيد الله بن أبي بكرة الثقفي كان أميراً جواداً كبير القدر، قيل: إن المهلب طلب منه لبن بقر، فبعث إليه بسبعمائة بقرة ورعاتها، توفي سنة «٧٩»هـ.

إلى وكيله سُليم الناصح: أن أعطِهِ عشرين ألفاً، وعشرين عبداً، وعشرين برذوناً، وعشرين بعيراً، وعشرين طيلساناً.

فظنَّ سعيد أنه يهزأ به، فدخل البصرة، فنزل على مولى لعثمان بن عفان، وقال: إن ابن أبي بكرة قد كتب إلى وكيله بشيء، أفتراهُ يُنفِّذ ما كتبَ له؟

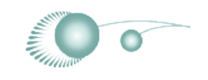
فأرسل إلى وكيله، فأعطاه الكتاب، فقال: أجِّلْني جُمعةً، فأجّله، فأتاه بما في الكتاب.

ثم قال له سُليم: أَلَكَ حاجةٌ؟

فقال سعيد: ولو كانت لي حاجةٌ كنتَ تقضيها؟

قال: أمَّا في مِثل ما أعطاك مولاي ما كنتُ لأفعلَ.

فقال سعيد: ما أدري أيُّكما أكرَمُ؟!



دخل عبيدالله بن أبي بكرة على الحجاج مرة وفي يده خاتم، فقال له الحجاج: كم ختمت بخاتمك هذا.

قال: على أربعين ألف ألف دينار.

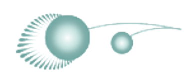
قال: ففيم أنفقتها؟

قال: في اصطناع المعروف، ورد الملهوف، والمكافأة بالصنائع، وتزويج العقائل.

زين العابدين علي بن الحسين [1]

كان أناس بالمدينة يعيشون لا يدرون من أين يعيشون ومن يعطيهم!. فلما مات علي بن الحسين «زين العابدين» فقدوا ذلك. فعرفوا أنه هو الذي كان يأتيهم في الليل بما يأتيهم به، ولما مات وجدوا في ظهره وأكتافه أثر حمل الجراب إلى بيوت الأرامل والمساكين في الليل.

وقيل: إنه كان يعول مائة أهل بيت بالمدينة ولا يدرون بذلك حتى مات.



دخل علي بن الحسين على محمد بن أسامة بن زيد يعوده، فبكى ابن أسامة. فقال ما يبكيك؟

قال: علي دين. قال: وكم هو؟

قال: خمسة عشر ألف دينار قال: هي علي.



قيل: إن رجلاً استطال في سب علي بن الحسين، فتغافل عنه. فقال الرجل: إياك أعني.

فقال علي: وعنك أُغضي.

---

(١) علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أمه شاه زنان - أي ملكة النساء - بنت يزدجرد ملك الفرس، كان من كبار الأجواد، وكان أكثر إنفاقه سراً، توفي سنة «٩٤» هـ.

يزيد بن المهلب (١)

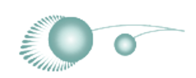
كان يزيد بن المهلب من الأجواد الأسخياء، وله أخبار في الجود عجيبة، ومن ذلك أنه مرّ في طريق البصرة بأعرابية فأهدت إليه عنزاً فقبلها، وقال لابنه معاوية: ما عندك من نفقة؟

قال: ثمانمائة درهم.

قال: ادفعها إليها.

قال: إنها لا تعرفك ويرضيها اليسير.

قال: إن كانت لا تعرفني، فأنا أعرف نفسي، وإن كان يرضيها اليسير، فأنا لا أرضى إلا بالكثير.



دخل كُريز بن زُفر بن الحارث على يزيدَ بن المهلّب فقال: أصلح الله الأمير، أنت أعظم من أن يُستعان بكَ ويُستعانَ عليك، ولستَ تفعلُ من الخير شيئاً إلا وهو يصغر عنك وأنت أكبر منه، وليس العجب أن تفعل، ولكن العجب أن لا تفعل.

قال: سَلْ حاجتك.

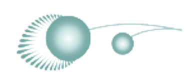
قال: قد حملتُ عن عشيرتي عَشْرَ ديات.

قال: قد أمرت لك بها وشفعتُها بمثلها.

(١) يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي من القادة الشجعان الفاتحين، اشتهر بالجود وكثرة العطاء، مات سنة «١٠٢» هـ.

الحكم بن حنطب [1]

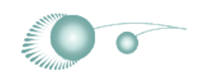
ومن أجواد الإسلام الحكم بن حنطب. قيلَ لنُصيب بن رباح: خرِفَ شِعركَ أبا محجن، قال: لا، ولكن خرف الكرم، لقد رأيتني ومدحت الحكم ابن حنطب، فأعطاني ألف دينار ومائة ناقة وأربعمائة شاة.



سأل أعرابي الحكم بن حنطب، فأعطاه خمسمائة دينار، فبكى الأعرابي، فقال: ما يبكيك يا أعرابي؟ لعلّك استقللت ما أعطيناك؟ قال: لا والله، ولكني أبكي لما تأكل الأرض منك. ثم أنشأ يقول:

وكأن آدم، حين حان وفاتُه ... أوصاكَ، وهو يجود بالحوباء

ببنيه أن ترعاهم فرعيتهم ... وكفيت آدم عَيلة الأبناء



قال رجل من أهل مَنْبِجَ [2] قدِمَ علينا الحكم بن حَنْطب وهو فقير فأغنانا، فقيل له: كيف أغناكم وهو فقير؟

قال: علَّمنا المكارمَ؛ فعاد غنينا على فقيرنا.



---

(١) الحكم بن المطلب بن عبد الله بن حنطب القرشي، أحد سادات قريش، كان من الأجواد البارزين في الإسلام.

(٢) منبج: مدينة على بعد ٨٠كلم تقريباً، شمال شرق حلب بسورية، قرب الحدود التركية..

مسلمة بن عبد الملك (١)

كان القائدُ الأموي مسلمة بن عبد الملك غنيًّا واسع الثراء وافر الأموال بسبب الغنائم التي يكسبها في فتوحاته الكثيرة، وتجارته واستثماراته في مجال الزراعة والفلاحة وغيرها، ومع هذا كان كريمًا غايةً في الكرم، كثيرَ الإنفاق في وجوه الخير، وإذا كثُر عليه أصحاب الحوائج وخشي الضجر أمرَ أن يحضر مجلسَه ندماؤه من أهل الأدب، فيتذاكرون محاسن الناس وجميل خصالهم، وطرائف الكرام وعجائب أخبارهم، فيستمع لحديثهم حتى ينشرح صدره، ثم يأذن لأصحاب الحوائج فلا يتركُ أحدًا منهم إلا أكرمه وقضى حاجته.

ومن أقواله المأثورة في الكرم: عجبت لمن قَدِر كيف لا يغفر، ولمن وُسِّع عليه كيف لا يَجود!

وكان يعرف للشعراء مكانتهم وحقهم، ومن أمثلة كرمه أنه قال يومًا للشاعر نصيب بن رباح: سَلني.

قال: لا.

فقال مسلمة: ولمَ؟

قال نصيب: لأنّ كفك بالجزيل أكثر من مسألتي باللسان.

فأعطاه ألف دينار ذهبًا.

كما كان يحب الأدب وأهله، ويحفظ لهم مكانتهم وقدرهم، وحين حضرته الوفاة أوصى بثلث ماله لأهل الأدب، وقال: هذه صناعةٌ مجفوٌّ أهلُها.

---

(١) مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم يعتبر من ألمع القادة العسكريين المسلمين، وقد عُرف بضراوته في الحروب وشدة وطأته على الأعداء، حتى لُقّب بـ (الجرادة الصفراء) إذ أنّ الجراد إذا ما هاجم بستاناً أتى عليه وخرج منه وهو فارغ لَم يبقي منه شيئاً، توفي عام (١٢١) هـ.

جابر عثرات الكرام

كان في أيام سليمان بن عبد الملك[1] رجل يقال له خزيمة بن بشر من بني أسد بالرقة، وكان له مروءة، ونعمة حسنة، وفضل وبر بالإخوان، فلم يزل على تلك الحال حتى احتاج إلى إخوانه الذين كان يتفضل عليهم، فواسوه حيناً، ثم ملّوه.

فلما لاح له تغيرهم أتى امرأته ـ وكانت ابنة عمه ـ فقال لها: يا ابنة عمّي، قد رأيت من إخواني تغيراً، وقد عزمت على لزوم بيتي إلى أن يأتيني الموت، ثم إنه أغلق بابه عليه، وأقام يتقوت بما عنده حتى نفد، وبقي حائراً في حاله.

وكان عكرمة بن ربعي الفياض والياً على الجزيرة، فبينما هو في مجلسه وعنده جماعة من أهل البلد إذ جرى ذكر خزيمة بن بشر في مجلسه، فقال عكرمة: ما حاله؟ فقالوا: صار من سوء الحال إلى أمر لا يوصف، فأغلق بابه ولزم بيته. فقال الفياض ـ وإنما سُمي بذلك لأجل كرمه – فما وجد خزيمة بن بشر مواسياً ولا مكافئاً؟ قالوا: لا. فأمسك، ثم لما كان الليل عمد إلى أربعة آلاف دينار، فجعلها في كيس واحد، ثم أمر بإسراج دابته، وخرج سرّاً من أهله، فركب ومعه غلام من غلمانه يحمل المال، وسار حتى وقف بباب خزيمة، ثم أخذ الكيس من الغلام، وأبعده عنه، وتقدم فدفعه بنفسه، فخرج إليه خزيمة، فناوله الكيس، وقال: أصلح بهذا شأنك. فتناوله، فرآه ثقيلاً، فوضعه، ثم أمسك بلجام الدابة، وقال له: من أنت جُعلت فداك؟ فقال:

---

(١) سليمان بن عبدالملك بن مروان بن الحكم: الخليفة الأموي السابع تولى الخلافة عام « ٩٦ »هـ واتسعت الفتوحات في عهده، كان الناس يحبونه ويسمونه « مفتاح الخير » توفي مرابطاً في دابق شمال مدينة حلب عام «٩٩» هـ.

يا هذا. ما جئتك في هذه الساعة وأنا أريد أن تعرفني. قال خزيمة: فما أقبله أو تعرفني من أنت. قال: أنا جابر عثرات الكرام. قال: زدني. قال: لا مزيد.

ومضى عكرمة إلى منزله فوجد امرأته قد افتقدته، وسألت عنه، فأُخبرت بركوبه منفرداً، فارتابت فشقّت جيبها ولطمت خدّها، فلما رآها على تلك الحال قال لها: ما دهاك؟ قالت: يا ابن عمي غدرت. قال: وما ذاك؟ قالت: أمير الجزيرة يخرج بعد هدوء من الليل منفرداً عن غلمانه في سرٍّ من أهله إلا إلى زوجة أو سرية. قال: لقد علم الله ما خرجت إلى واحدة منهما. قالت: فخبرني فيم خرجت. قال: يا هذه، لم أخرج في هذا الوقت وأنا أريد أن يعلم بي أحد. قالت: لا بد أن تخبرني بالقصة. قال: فاكتميه إذاً. قالت: أفعل. فأخبرها بالقصة على وجهها، وما كان من قوله له ورده عليه، ثم قال لها: أتحبين أن أحلف لك؟ قالت: لا فإن قلبي قد سكن إلى ما ذكرت.

فلما أصبح خزيمة صالح الغرماء، وأصلح حاله، ثم تجهّز يريد سليمان ابن عبد الملك بفلسطين. فلما وقف ببابه دخل الحاجب، فأخبره بمكانه ـ وكان مشهور المروءة، وكان سليمان به عارفاً ـ فأذن له، فلما دخل عليه وسلّم بالخلافة. قال: يا خزيمة ما أبطأك عنّا؟ قال: سوء الحال. قال: فما منعك من النهضة إلينا؟ قال: ضعفي. قال: فبم نهضت؟ قال: لم أعلم بعد هدوء من الليل إلا ورجل طرق بابي، فكان منه كيت وكيت، وأخبره بقصته من أولها إلى آخرها، فقال له: هل تعرفه؟ فقال: ما عرفته يا أمير المؤمنين، وذلك أنه كان متنكراً، وما سمعت منه إلا «جابر عثرات الكرام».

فتلهف سليمان على معرفته وقال: لو عرفناه لأعنّاه على مروءته. ثم قال عليَّ بقناة. فعقد لخزيمة الولاية على الجزيرة التي على عمل عكرمة الفياض، فخرج خزيمة طالباً الجزيرة، فلما وصل إليها خرج عكرمة وأهل بلده للقائه فسلم عليه، ثم سارا إلى أن دخلا جميعاً. فنزل خزيمة دار الإمارة، وأمر أن يؤخذ عكرمة بكفيل، وأن يُحاسب، فحوسب فوجد عليه

فضول كثيرة، فطالبه بأدائها، قال: ما لي إلى شيء منها سبيل. قال: لا بد منها. قال: ما هي عندي، فاصنع ما أنت صانع. فأمر به إلى الحبس ثم بعث إليه يطالبه، فأرسل إليه: لست ممن يصون ماله بعرضه، فاصنع ما شئت.

فأمر به فكبّل بالحديد، وضيق عليه، وأقام كذلك شهراً أو أكثر، فأضناه ذلك، وأضرَّ به، وبلغ ابنة عمه ضُرُّه، فجزعت واغتمت لذلك، ثم دعت مولاة لها ذات عقل، وقالت: امضي الساعة إلى باب هذا الأمير خزيمة بن بشر فإذا دخلتِ عليه فسليه أن يخليك، فإذا فعل فقولي له: ما كان هذا جزاء «جابر عثرات الكرام» منك أن كافأته بالحبس والضيق والحديد.

ففعلت ذلك. فلما سمع خزيمة قولها قال: واسوأتاه، وإنه لَهُو؟! قالت: نعم. فأمر من وقته بدابته، فأسرجت، وبعث إلى وجوه أهل البلد فجمعهم، وأتى بهم إلى الحبس، ففتح، ودخل خزيمة ومن معه، فلقي عكرمة في قاعة الحبس متغيراً، قد أضناه الضر.

فلما نظر إليه عكرمة وإلى الناس أحشمه ذلك، فنكس رأسه إليه وقال: ما أعقب هذا منك؟! قال: كريم فعالك وسوء مكافأتي. قال: يغفر الله لنا ولك.

ثم أمر بالحداد ففك القيد عنه، وأمر خزيمة أن يوضع القيد في رجله نفسه، فقال عكرمة: تريد ماذا؟ قال: أريد أن ينالني من الضُّرِّ مثل ما نالك. فقال: أقسم عليك بالله أن لا تفعل.

فخرجا جميعاً إلى أن وصلا إلى دار خزيمة، فودّعه عكرمة وأراد الانصراف، فقال له: ما أنت ببارح. قال: فماذا تريد؟ قال: أغير من حالك ما رثَّ، وحيائي من ابنة عمك أشد من حيائي منك.

ثم أمر بالحمام فأُخلي، فدخلا جميعاً، ثم قام خزيمة فتولى خدمته بنفسه، ثم خرجا، فخلع عليه وجمَّله، وحمل إليه مالاً كثيراً، ثم سار معه

إلى داره، واستأذنه في الاعتذار من ابنة عمه، فأذن له، فاعتذر إليها وتذمم من ذلك. ثم سأله بعد ذلك أن يسير معه إلى أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك، فأنعم له بذلك.

فسارا جميعاً حتى قدما عليه، فدخل الحاجب فأعلمه بقدوم خزيمة بن بشر، فراعه ذلك وقال: والي الجزيرة يقدم بغير أمرنا! ما هذا إلا لحادث عظيم.

فلما دخل عليه قال له قبل أن يُسلّم: ما وراءك يا خزيمة؟ قال: خير يا أمير المؤمنين. قال: فما الذي أقدمك؟ قال: ظفرت بجابر عثرات الكرام، فأحببت أن أسرَّك لما رأيت من تلهفك عليه، وتشوقك إلى رؤيته. قال: ومن هو؟ قال: عكرمة الفياض.

فأذن له بالدخول، فدخل وسلم عليه بالخلافة، فرحَّب به وأدناه من مجلسه، فقال له: يا عكرمة ما كان خيرك لخزيمة إلا وبالاً عليك.

ثم قال له: اكتب حوائجك كلها وما تختاره في رقعة. قال: أو تعفيني يا أمير المؤمنين؟ قال: لا. لا بد من ذلك.

ثم دعا بدواة وقرطاس وقال: اعتزل واكتب جميع حوائجك، ففعل ذلك، فأمر بقضائها جميعاً من ساعته، وأمر له بعشرة آلاف دينار، وبسفطين ثياباً، ثم دعا بقناة وعقد له على الجزيرة وأرمينيا وأذربيجان.

وقال له: أمر خزيمة إليك، إن شئت أبقيته، وإن شئت عزلته. قال: بل أردّه إلى عمله، ثم انصرفا جميعاً، ولم يزالا عاملين لسليمان بن عبد الملك مدة ولايته.



بذل ومنع

جاء سعيد بن خالد بن عمرو إلى الخليفة/ سليمان بن عبدالملك وقال: يا أمير المؤمنين إن الشاعر/ موسى شهوات قد هجاني. فاستحضره سليمان وقال: لا أم لك، أتهجو سعيداً

قال: يا أمير المؤمنين أخبرك الخبر. عشقت جارية مدنية وأتيت سعيداً فقلت: إني أحب هذه الجارية، وإن مولاتها طلبت مني مائتي دينار ثمناً لها وقد أتيتك. فقال لي: بورك فيك.

فقال سليمان: ليس هذا موضع بورك فيك.

قال: فأتيت يا أمير المؤمنين سعيد بن خالد بن عبدالله بن أسيد فذكرت له حالي فقال: يا جارية هاتي مطرفاً، فأتته بمطرف خز فصرّ لي في كل زاوية مائتي دينار فخرجت وأنا أقول:

أبا خالد أعني سعيد بن خالد ... أخا العرف لا أعني ابن بنت سعيدِ
ولكنني أعني ابن عائشة الذي ... أبو أبويه خالد بن أسيدِ
عقيد الندى ما عاش يرضى به الندى ... فإن مات لم يرض الندى بعقيدِ
ذروه ذروه إنكم قد رقدتم ... وما هو عن إحسانكم برقودِ

ولما فرغ موسى من شعره قال: يا أمير المؤمنين اتفق اسماهما واسما أبويهما فتخوفت أن يذهب شعري باطلا، ففرقت بينهما بأميهما، فأغضبه أن مدحت ابن عمه.

فقال له سليمان: مادام الأمر كما ذكرت.. فقل ما شئت.

ثم قال سليمان: علي ياغلام بسعيد بن خالد بن عبدالله، فأتي به، فلما رآه سليمان تمثل بهذا البيت:

إني سمعت مع الصباحِ منادياً يا من يعين على الفتى المعوانِ

وحين سلم عليه رحب به ثم قال: أحق ماوصفك به موسى؟

قال: وماذاك ياأمير المؤمنين.؟

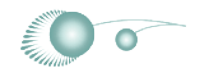
فأعاد عليه الخبر،

فقال: قد كان ذلك ياأمير المؤمنين.

قال: فما طوّقتك هذه الأفعال؟

قال: دين ثلاثين ألف دينار.

فقال الخليفة: قد أمرت لك بمثلها وبمثلها وبمثلها وبثلث مثلها، فحُملت إليه مائة ألف دينار.



عمر بن هبيرة [1]

أشرف عمر بن هبيرة يوماً من قصره، فإذا هو بأعرابي يرقل قلوصه[2] فقال عمر لحاجبه: إن أرادني هذا الأعرابي فأوصله إليّ.

فلما وصل الأعرابي سأله الحاجب، فقال: أردت الأمير، فدخل به عليه.

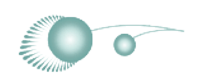
فلما مثل بين يديه قال له: ما حاجتك؟

فأنشد الأعرابي يقول:

أصلحـك اللّه قلّ ما بيدي ولا أطـيق العيال إذ كثـروا

أنـاخ دهــري عليّ كلكله[3] فأرسلوني إليك، وانتظـروا

فأخذت عمر الأريحية [4] فجعل يهتز في مجلسه، ثم قال: أرسلوك إليّ وانتظروا؟ إذن لا تجلس حتى ترجع إليهم، ثم أمر له بألف دينار.



---

(١) عمر بن هبيرة بن معاوية الفزاري، أحد الأمراء الأجواد، ولي العراق وكانت وفاته عام « ١٠٧ » هـ.

(٢) قلوصه: ناقته.

(٣) أناخ علي كلكله: أي أنزل علي مصائبه.

(٤) أخذته الأريحية: أي ارتاح للجود وشرع في العطاء.

فصاحة وكرم

قحطت البادية في أيام هشام بن عبد الملك[1]، فقدمت العرب من أحياء القبائل، فجلس هشامٌ لرؤسائهم، فدخلوا عليه، وفيهم درواس بن حبيب، وله أربع عشرة سنة، عليه شملتان، وله ذؤابة، فأحجم القوم وهابوا هشاماً، ووقعت عينُ هشام على درواس فاستصغره، فقال لحاجبه: ما يشاءُ أحدٌ أن يصل إليّ إلا وصل! حتى الصبيان؟!

فعلم درواس أنه يريده، فقال:

يا أمير المؤمنين، إن دخولي لم يُخلَّ بك شيئاً، ولقد شرَّفني، وإن هؤلاء القوم قدموا لأمرٍ أحجموا دونه، وإن الكلام نشرٌ، والسكوت طيٌّ، ولا يُعرفُ الكلامُ إلا بنشره.

فقال له هشام وقد أعجبه كلامه: فانشر لا أبالك!!

فقال: أصابتنا سنون ثلاثةٌ، فسنةٌ أذابتِ الشَّحم، وسنةٌ أكلتِ اللَّحم، وسنةٌ أنقتِ العظم، وفي أيديكم فضولُ أموال، إن كانت لله ففرِّقوها على عباده المستحقين لها، وإن كانت لهم فعلامَ تحبسونَها عنهم؟ وإن كانت لكم فتصدَّقوا بها عليهم، فإن الله يجزي المتصدِّقين، ولا يضيع أجر المحسنين، واعلم يا أمير المؤمنين، أن الوالي من الرعية كالروح من الجسد، لا حياة للجسد إلا به.

فقال هشام: ما ترك الغلام في واحدةٍ من الثلاث عذراً، وأمر أن يقسم

---

(١) هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، تميز عهده بسيادة الأمن في أرجاء البلاد الإسلامية، واستمرت الفتوحات وانتشر الإسلام في بلاد ما وراء النهر، كانت دمشق في عهده مناراً للعلم والحضارة، توفي عام ١٢٥هـ.

في باديته مائة ألف دينار، وأمر لدرواس بمائة ألف درهم.

فقال: يا أمير المؤمنينارددها إلى جائزة العرب، فإنِّي أكره أن يعجز ما أمر لهم به أمير المؤمنين عن كفايتهم.

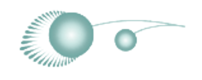
فقال هشام: فما لك حاجة تذكرها لنفسك؟

فقال: مالي حاجة دون عامة المسلمين.

فقال هشام: للّه درك من غلام.

فخرج الصبي وهو من أنبل القوم وأكرمهم، فلما صار إلى منزله بعث إليه هشام بمائة ألف درهم. ففرق درواس في تسعة أبطن من العرب حوله تسعين ألفا وأخذ لنفسه عشرة آلاف.

فلما بلغ ذلك هشاماً قال: إن الصنيعة عند درواس لتضعف على سائر الصنائع.

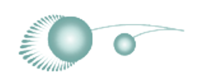


من عجائب الضيافة

نزل بأبي البحتري وهبُ بنُ وهبٍ القرشي ضيفاً، فسارع عبيده إلى إنزاله وخدموه أحسن خدمة، وفعلوا به كل جميل.

فلما همّ بالرحيل لم يقربه أحدٌ منهم وتجنبوه فأنكر ذلك عليهم.

فقالوا: نحن إنما نعين النازل على الإقامة، ولا نعينه على الرحيل!.



كرم ورحمة

باع أعرابي ناقةً له لمالك بن أسماء بن خارجة، فلما صار الثمن في يده نظر إليها فذرَفت عيناه، ثم قال:

وقد تنزع الحاجات يا أمّ معمر … كرائمَ من ربٍّ بهنّ ضنـــينِ

فقال له مالك: خُذ ناقتك وقد سوّغتُك الثمنَ.

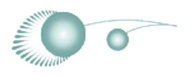


الخصم اللجوج

ركب خالد بن عبد الله القسري في يوم شديد البرد كثير الغيم، فتعرض له رجل في الطريق، فقال له: ناشدتك الله إلا ضربت عنقي. فقال له: أكفرٌ بعد إيمان؟ قال: لا، قال: أَفتَرغب عن طاعة الرحمن؟ قال: لا: قال: أفقتلت نفساً؟ قال: لا. قال: فما سبب ذلك؟ قال: لي خصم لجوج قد علق بي، ولزمني وقهرني. قال: مَن هو؟ قال: الفقر. قال: فكم يكفيك لدفعه؟ قال: أربعة آلاف درهم، قال: إني ممدك بأربعة آلاف درهم.

ثم قال خالد: يا غلام، ادفَع له أربعة آلاف درهم، والتفتَ لمن حوله وقال: هل ربح أحدٌ من التجار كربحي اليوم؟ قالوا: وكيف ذلك؟ قال: عزمتُ على أن أعطي هذا الرجل ثلاثين ألف درهم، فلما طلب أربعة آلاف درهم وفر عليّ ستة وعشرين ألف درهم.

فلما سمع الرجل ذلك منه قال: حاشاك وأعيذك بالله أن تربح على مؤمِّلك. فقال: يا غلام، أعطه ثلاثين ألفاً، ثم قال للرجل، اقبض المال، واذهب آمناً إلى خصمك، ومتى رجع يعارضك فاستنجد بنا عليه.



يروى أن رجلاً جاء إلى خالد القسري وسأله أن يملأ له جرابه دقيقاً، فأمر بأن يُملأ له دراهم.

فقيل له حين خرج من خالد: ما فعل معك؟

فقال: سألته ما أشتهي، فأمر لي بما يشتهي.

عفو وكرم

لما أفضت الخلافة إلى بني العباس، اختفت رجال من بني أمية، وكان ممن اختفى إبراهيم بن سليمان بن عبدالملك، حتى أخذ له داود بن العباس أماناً، وكان إبراهيم رجلاً عالماً حدَثاً أديباً، فخُص بأبي العباس فقال له يوماً: حدثني عمّا مرَّ بك في اختفائك!.

قال: كنت يا أمير المؤمنين مختفياً بالحيرة في منزل شارع على الصحراء، فبينما أنا على ظهر بيت إذ نظرت إلى أعلام سود قد خرجت من الكوفة تريد الحيرة، فوقع في روعي أنها تريدني.

فخرجت من الدار متنكراً حتى أتيت الكوفة ولا أعرف بها أحداً أختفي عنده، فإذا أنا بباب كبير ورحبة واسعة، فدخلت فإذا رجل وسيم الوجه حسن الهيئة، فقال: من أنت؟ وما حاجتك؟.

فقلت: رجل مختف، يخاف على دمه استجار بمنزلك، فأدخلني منزله، ثم صيَّرني في حجرة تلي حرمه، فكنت عنده في كل ما أحبُ من مطعم ومشرب وملبس، ولا يسألني عن شيء من حالي، إلا أنه يركب في كل يوم ركبة.

فقلت له يوماً: أراك تدمن الركوب، ففيم ذلك؟ فقال: إن إبراهيم بن سليمان قتل أبي صبراً، وقد بلغني أنه مختف، وأنا أطلبه لأدرك ثأر أبي منه.

فكثر والله تعجبي من إدبارنا إذ ساقني القدر إلى حتفي في منزل من يطلب دمي، وكرهت الحياة.

فسألت الرجل عن اسمه واسم أبيه، فأخبرني، فعرفت أن الخبر صحيح،

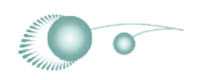
وأني قتلت أباه صبراً، فقلت: يا هذا! لقد وجب عليّ حقك، مِنْ حقك أن أدلّك على خصمك، وأقرب عليك الخطوة، قال: وما ذاك؟ قلت: أنا إبراهيم بن سليمان قاتل أبيك، فخذ بثأرك.

فقال: إني أحسبك رجلاً قد مضه الاختفاء فأحببت الموت.

فقلت: بل الحق قلت لك، أنا قتلته يوم كذا وكذا، بسبب كذا وكذا.

فلما عرف صدقي اربدَّ وجهه، واحمرَّت عيناه، وأطرق ملياً، ثم قال: أما أنت فستلقى أبي، فيأخذ بثأره منك، وأما أنا فغير مخفر ذمَّتي، فاخرج عني، فلست آمن من نفسي عليك بعدها.

وأعطاني ألف دينار، فلم آخذها، وخرجت من عنده، فهذا أكرم رجل رأيته!



السخي العدّاء

قال المهاجر بن عبدالله والي اليمامة لرجل كان مشهوراً بالسرقة: أخبرني عن بعض عجائبك!

قال: إنها لكثيرة، ومن أعجبها أنه كان لي بعير لا يُسبق، وكان لي فرس لا تُلحق، فكنتُ أخرج فلا أرجع خائباً. فخرجت يوماً، فاصطدت ضبًّا فعلقته على قتبي[1]، ثم مررت بخباء ليس فيه إلا عجوز، فقلت: أخلق بهذا الخباء أن يكون له رائحة من غنم أو إبل! فلما أمسيت إذا بإبلٍ مائة فيها شيخ عظيم البطن، مثدّن اللحم ومعه عبدأسود.

فلما رآني رحب بي، ثم قام إلى ناقة فاحتَلبها، وناولني العُلبة فشربت ما يشرب الرجل، فتناول الباقي، ثم نحر حواراً فطبخه، فأكلنا، ثم حَثَا كومةً من بطحاء وتوسَّدها، وغطَّ غطيط البِكْرِ.

فقلت: هذه والله الغنيمة! ثم قمت إلى فَحْل إبله فخطمتُهُ ثم قرَنْتُه إلى بعيري وصحتُ به، فأتبعني الفحل، واتَّبعته الإبل، فسارت خلفي كأنها حبل ممدود، فمضيت أبادر ثنيَّة بيني وبينها مسيرة ليلة للمسرع، فلم أزل أضرب بعيري بيدي مرة، وأقرعَه برجلي أخرى حتى طلع الفجر.

فأبصرت الثنيَّة، فإذا عليها سواد، فلما دَنوْتُ إذا أنا بالشيخ قاعداً وقوسُه في حجره، فقال: أضيفنا؟

قلت: نعم!

قال: أتسخو نفسكَ عن هذه الإبل؟

---

(١) القتب: هو ما يوضع على ظهر البعير للركوب عليه.

قلت: لا.

فأخرج سهماً، ثم قال: أبصِرْ بين أذني الضبّ، ثم رماه فصدَع عظمه عن دماغه! قال: ما تقول؟ قلت: أنا على رأيي الأول! قال: انظر هذا السهم الثاني في فقرة ظهره الوسطى! ثم رمى به، فكأنما قدَّره بيده، ثم وضعه بإصبعه! ثم قال: أرأيت؟ قلت: إني أحب أن أستثبت.

قال: انظر هذا السهم الثالث في عكوة[1] ذنبه، والرابع والله في بطنك، ثم رماه فلم يخطئ العُكْوَة! فقلت: أنزلُ آمناً؟

قال: نعم.

فنزلتُ، فدفعت إليه خِطام فحله، وقلت: هذه إبلك لم يذهب منها وبرة وأنا أنتظر متى يرميني بسهم ينتظم قلبي. فلما تنحَّيت قال لي: أَقْبِل، فأقبلتُ والله خوفاً من شره، لا طمعاً في خيره.

فقال: أيّ هذا، ما أحسبك جَشِمْتَ الليلة ما جشِمتَ إلا من حاجة. قلت: أجل! قال: فاقْرُن من هذه الإبل بعيرين وامض لطيَّتك[2]. قلت: أما والله حتى أخبرك عن نفسك قبلاً!.

ثم قلت: والله ما رأيت أعرابياً قط أشدَّ ضِرساً، ولا أعدى رِجْلاً، ولا أرْمى يداً، ولا أكرم عفواً، ولا أسخى نفساً منك!.



---

(١) العكوة: أصل ذنب الضب.

(٢) لطيتك: لقصدك.

إنصاف مظلوم

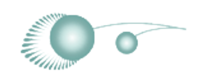
أتى رجل إلى الوزير علي بن سليمان، فقال له: بالذي أسبغ عليك هذه النعم ـ من غير شفيع كان لك إليه تفضّلاً منه عليك ـ إلا أنصفتني من خصمي، وأخذت الحق منه، فإنه ظلوم غشوم، لا يستحيي من كبير، ولا يلتفت إلى صغير.

فقال له: أعلمني من هو؟ فإن ينصفك، وإلا أخذتُ الذي فيه عيناه، من هو؟

فقال: الفقر.

فأطرق إلى الأرض مليّاً، ينكت الأرض بإصبعه، ثم رفع رأسه، فأمر له بعشرة آلاف دينار، فأخذها ومضى، فلما سار خارجاً قال: ردّوه.

فلما مثل بين يديه قال: يا ذا الرجل، سألتك بالله متى أتاك خصمك متعسِّفاً إلا أتيت إلينا متظلماً.



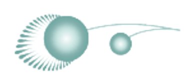
معن بن زائدة [١]

ومن أجواد العرب وفرسانهم المعدودين معن بن زائدة الشيباني، وكان يقال فيه: حدَّث عن البحر ولا حرج، وحدث عن معنٍ ولا حرج.

وكان دوماً يتمثل بهذا البيت:

ذريني أُنهب[٢] الأموال حتى   أعف الأكرمينَ عن اللئام

أتاه رجل يسأله أن يحمله، فقال: يا غلام، أعطه فرساً وبِرذَوناً وبغلاً وعيراً وبعيراً. وقال: لو عرفت مُركوباً غير هذه لأعطيتك.



خرج معن في جماعة من خواصّه للصيد، فاعترضهم قطيع ظباء فتفرّقوا في طلبه، وانفرد معن خلف ظبي حتى انقطع عن أصحابه. فلما ظفر به نزل فذبحه، فرأى شيخاً مقبلاً من البرية على حمار، فركب فرسه واستقبله، فسلّم عليه، فقال: من أين؟ وإلى أين؟

قال: أتيتُ من أرضٍ لها عشرون سنة مجدبة، وقد أخصبت في هذه السنة، فزرعتها مقثأة فأخرجت القثّاء في غير أوان، فجمعت منها ما استحسنته، وقصدت به معن بن زائدة لكرمه المشكور، وفضله المشهور، ومعروفه المأثور، وإحسانه الموفور.

قال: وكم أمَّلت منه؟ قال: ألف دينار، قال: فإن قال لك: كثير. قال: خمسمائة. قال: فإن قال لك: كثير. قال: ثلثمائة. قال: فإن قال لك: كثير.

---

(١) مِعن بنِ زائدة الشيباني أمير جواد جزل العطاء كثير المعروف والصِلات، توفي سنة «١٥٨» هـ.

(٢) أنهب: أعطي العطاء الجزيل.

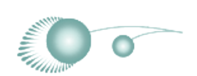
قال: مائة. فمازال به حتى قال: لا أقل من الثلاثين. قال: فإن قال: ذلك كثير! قال: أدخل قوائم حماري في بطنه، وأرجع إلى أهلي خائباً.

فضحك معن، وساق جواده حتى لحق بأصحابه، ونزل في منزله، وقال لحاجبه: إذا أتاك شيخ على حمار بقثاء فادخل به عليَّ.

فأتى الرجل بعد ساعة، فلمّا دخل عليه لم يعرفه لهيبته وجلاله، وكثرة حشمه وخدمه، وهم قيام عن يمينه وشماله وبين يديه.

فلمّا سلَّم عليه قال: ما الذي أتى بك يا أخا العرب؟ قال: أمَّلْت فضل الأمير وأتيته بقثاء في غير أوان، فقال: كم أمَّلْت فينا؟ قال: ألف دينار. قال: كثير. فقال في نفسه: واللّه لقد كان ذلك الرجل شؤما عليّ. ثم قال: خمسمائة دينارٍ. قال معن: كثير، ثم مازال به إلى أن قال: خمسين ديناراً، فقال له: كثير. فقال: لا أقل من الثلاثين، فضحك معن!

فعلم الأعرابي أنه صاحبه فقال: يا سيدي! إن لم تُجب إلى الثلاثين فالحمار مربوط بالباب. فضحك معن حتى استلقى على فراشه، ثم دعا بوكيله فقال: أعطه ألفاً، وخمسمائة، وثلاثمائة، ومائة، وخمسين، وثلاثين، ودع الحمار مكانه.



قال معن بن زائدة: لما هربتُ من المنصور خرجت من باب حرب، بعد أن أقمتُ في الشمس أياماً، وخففّت لحيتي وعارضيّ، ولبستُ جبة صوف غليظة، وركبت جملاً، وخرجت عليه لأمضي إلى البادية، فتبعني أسود متقلد سيفاً، حتى إذا غبت عن الحرس، قبض على خطام الجمل فأناخه، وقبض عليّ.

فقلت: ما شأنك؟ فقال: أنت بغية أمير المؤمنين. فقلت له: ومن أنا حتى يطلبني أمير المؤمنين؟ فقال: معنُ بن زائدة. فقلت: يا هذا، اتق الله وأين أنا من معن؟ فقال: دع هذا عنك، فأنا والله أعرفُ بك. فقلت له: فإن كانت القصة كما تقول، فهذا جوهر حملتُه معي بأضعاف ما بذله المنصور لمن جاءه بي، فخذه ولا تسفك دمي.

فقال: هاتِه، فأخرجته إليه، فنظر إليه ساعة، وقال: صدقتَ في قيمته، ولستُ قابله حتى أسألك عن شيء، فإن صدقتني أطلقتُك، فقلت: قل.

فقال: إن الناس وصفوك بالجود، فأخبرني: هل وهبت قط مالك كله؟ قلت: لا، قال: فنصفه؟ قلت: لا، قال: فثلثه؟ قلت: لا، حتى بلغ العشر، فاستحييت، وقلتُ: أظن أني قد فعلت هذا.

فقال: ما ذاك بعظيم، أنا عطائي من أبي جعفر عشرون درهماً، وهذا الجوهر قيمته ألف دينار، وقد وهبته لك ووهبتك لنفسك لجودك المأثور بين الناس، ولتعلم أن في الدنيا من هو أجود منك، فلا تعجبك نفسك، ولتحقِّر بعد هذا كلَّ شيء تفعله، ولا تتوقف عن مكرمة. ثم رمى بالعدل إليّ، وخلى خطامَ الجمل وانصرف.

فقلت: يا هذا قد فضحتني، ولسفك دمي أهون عليّ مما فعلت، فخذ ما دفعته إليك، فإني عنه في غنى.

فضحك، ثم قال: أردتَ أن تكذبني في مقامي هذا! فوالله لا آخذه، ولا آخذ لمعروف ثمناً أبداً، ومضى.

فوالله لقد طلبته بعد أن أمنت، وبذلتُ لمن يجيء به ما شاء، فما عرفتُ له خبراً، وكأن الأرض ابتلعته.

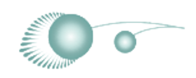


أُتي معن بن زائدة بأسرى، فعرضهم على السيف، فقال له بعضهم: نحن أسراك أيها الأمير، ونحن جياع.

فأمر لهم بشيء من الطعام فأحضر، وأتى بأنطاع الدم فبسطت، وأتي بالطعام.

فقال الأسير لأصحابه: أمعنوا في الأكل! ومعن ينظر إليهم، ويتعجب منهم. فلما فرغوا من أكلهم قام قائماً وقال: أيها الأمير قد كنا أسراك، ونحن الآن أضيافك. فانظر ماذا تصنع بأضيافك؟

فعفا عنهم وخلَّى سبيلهم، فقال له بعض من حضر: ما ندري أيها الأمير أي يوميك أسر وأشرف: أيوم ظفرك أم يوم عفوك؟!



بعد وفاة معن بن زائدة دخل ابن أخيه القائد يزيد بن مزيد الشيباني مسجداً باليمن، فوجد مكتوباً في قبلته:

مضى معن وخلاني ببثّي   على معن بن زائدة السلامُ

فسأل عن قائله، فإذا هو معهم، فقال: يا غلام، أمعك شيء؟ قال: نعم. ألف دينار. قال: ادفعها إليه. فخرج الرجل وهو يقول:

رحم الله معن بن زائدة وصلني حياً وميتاً.



دخل مروان بن أبي حفصة على جعفر بن يحيى البرمكي فطلب منه أن ينشده مرثيته في معن بن زائدة، فأنشده:

كأنّ الشمس يوم أصيب معن　　من الظلماء ملبسة جلالا
وأنّ الناس كلهم لمعن　　إلى أن زار حفرته عيالا

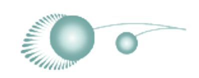
فقال جعفر: هل أثابك على هذه المرثية أحد من ولده وأهله؟

قال: لا.

قال: فلو كان حياً ثم سمعها منك بكم كان يثيبك؟

قال: خمسمائة دينار.

قال: أظن أنه كان لا يرضاها لك. قد أمرنا لك عن معن بخمسمائة كما ظننت، وزدناك مثلها كما ظننا به فيك، فاغدُ على الخازن لقبضها منه.



الليث بن سعد [1]

يُروى عن الإمام الشافعي - رحمه الله - أنه أتى إلى قبر الإمام الليث بن سعد وقال: لله درك يا إمام! لقد حزت أربعة خصال لم يُكملهن عالم: العلم، والعمل، والزهد، والكرم.

وكان الإمام الليث رحمه الله ذا غلّة سنوية تزيد على ثمانين ألف دينار يتصدق بها كلها، حتى قالوا: ما وجبت عليه زكاة.

وللإمام الليث مواقف نبيلة، تنم عن معالي الأخلاق، وكرائم الخصال، فقد حباه الله رحمة فياضة، أدخل بها على الفقراء والمحتاجين سروراً، ورفع عنهم الكرب والحرج، إرضاءً لله ولرسوله.

فقد حدثوا أنه اشترى مرة داراً، فلما أرسل رسوله بالمفاتيح ليستلمها، وجد في الدار أرملة وأيتاماً صغاراً، فأخبروه بأن ليس لهم دار غيرها، فلما بلغ ذلك الليث، أرسل إليهم أن الدار لهم، ومعها ما يصلحهم كل يوم.

وكان ذا ثراءٍ عريض، نبيلاً، سخياً، له دار ضيافة، يضيّف فيها الفقراء والأرامل واليتامى وطلاب العلم.

قيل: إنه وصل منصور بن عمار بألف دينار.

واحترقت دار ابن لهيعة فبعث إليه بألف دينار.

وحج فأهدى له مالك بن أنس رطباً على طبق فرد الطبق وعليه ألف دينار.

وما التقى بعالم أو سمع به إلا وصله، وكان العطاء له بدون حدود، لعلمه أن مهمة العالم مهمة جليلة، تحتاج منه إلى تفرغ، لتوصيل العلم للناس، وأنه كلما كان العالم متفرغاً لعلمه، كان ذلك أنفع للناس.

---

(١) الليث بن سعد بن عبدالرحمن الفهمي، كان فقيهاً كريماً كثير العطاء، توفي سنة «١٧٥» هـ.

عبدالله بن المبارك (١)

كان ابن المبارك من العلماء المجاهدين الأجواد ، وكان إخوانه من أهل مرو يجتمعون إليه وقت الحج يطلبون صحبته، فيقول لهم:هاتوا نفقاتكم. فيأخذ نفقاتهم فيجعلها في صندوق ويقفل عليها، ثم يكتري لهم، ويخرجهم من مرو إلى بغداد، فلا يزال ينفق عليهم، ويطعمهم أطيب الطعام وأطيب الحلوى حتى يصلوا إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، فيقول لكل واحد: ما أمرك عيالك أن تشتري لهم من المدينة من طرفها؟ فيقول: كذا وكذا. فيشتريه له، ثم يخرجهم إلى مكة فإذا قضوا حجهم اشترى لكل واحد منهم من متاع مكة، ولا يزال ينفق عليهم إلى أن يعودوا إلى مرو، فإذا كان بعد ثلاثة أيام عمل لهم وليمة،وبعد فراغهم من طعامهم يأمر بإحضار الصندوق الذي وضع فيه نفقاتهم، فيفتحه ويدفع إلى كل رجل منهم صرّته التي عليها اسمه.

ومما يروى من جود ابن المبارك أنه كان كثير الاختلاف إلى مدينة الرقة، وكان يسكن بها في بيت متواضع، فكان شاب يختلف إليه ويقوم بحوائجه ويسمع منه الحديث، فقدم عبدالله الرقة مرة، فلم يرَ ذلك الشاب.

وكان قد سمع بالنفير للخروج لملاقاة العدو فخرج مع الغزاة، فلما قفل من غزوته، ورجع إلى الرقة سأل عن الشاب، فقالوا: إنه محبوس لدَيْن ركبه. فقال عبدالله: وكم مبلغ دَينه؟ قالوا: عشرة آلاف درهم. فلم يزل يستقصي، حتى دُلَّ على صاحب المال، فدعا به ليلاً، ووزن له عشرة آلاف درهم، وحلَّفه

---

(١) عبدالله بن المبارك: عالم رباني تركي الأب خوارزمي الأم، كان ذا علم وفضل وكرم وزهد جمع الكثير من خصال الخير، وكان كثير الغزو والجهاد، توفي عام «١٨١» هـ.

ألا يخبر أحداً بذلك. وقال: إذا أصبحت، فأخرج الرجل من السجن.

وخرج عبدالله بن المبارك ليلاً من الرِقة، وأُخرج الفتى من الحبس وقيل للفتى: إن عبدالله بن المبارك كان هاهنا، وكان يذكرك وقد خرج من الرقة ليلاً.

فخرج الفتى في أثره، فلحقه على مرحلتين أو ثلاث من الرّقة، فقال عبدالله للفتى: أين كنت؟ لم أرك في البيت؟ قال: نعم يا أبا عبدالرحمن، كنت محبوساً بدَيْن. قال له: وكيف كان سبب خلاصك من الحبس؟ قال: جاء رجل وقضى عني ديني، ولم أعلم به، حتى أُخرجت من الحبس. فقال له عبدالله: يا فتى احمد الله على ما وفّق لك من قضاء دينك.

وروي أن الإمام ابن المبارك خرج ومعه جماعة إلى حج نافلة، فاجتاز ببعض البلاد، فرأى في طريقه بنتاً صغيرة تأخذ طائراً ميتاً من مزبلة، فسألها عن ذلك فأخبرته أنهم أيتام، وفي فقر شديد، وقد حلّت لهم الميتة!.

فقال لوكيله: كم معك من النفقة؟

قال: ألف دينار.

فقال له : أبقِ لنا عشرين ديناراً تكفينا لإيابنا، وتصدق بالباقي على الفقراء. فهذا أفضل من حجنا في هذا العام.



يزيد بن مزيد [1]

سمع يزيد بن مزيد يوماً صائحاً يقول: يا يزيد بن مزيد! فطلبه فأُتي به إليه، فقال: ما حملك على هذا الصياح؟ قال: فقدت دابتي، ونفدت نفقتي، وسمعت قول الشاعر:

إذا قيل: من للجود والمجد والندى؟ فنادِ بصوت يا يزيد بن مزيد

فأمر له بفرس أبلق كان معجباً به، وبمائة دينار، وخلعة سنية فأخذها وانصرف.

قال مسلم بن الوليد: كنت يوماً جالساً عند خياط بإزاء منزلي، فمر بي إنسان أعرفه، فقمت إليه وسلمت عليه، وجئت به إلى منزلي لأضيفه وليس معي درهم، بل كان عندي زوج أخفاف، فأرسلتها مع جاريتي لبعض معارفي فباعها بتسعة دراهم، واشترت بها ما قلته لها من الخبز واللحم. فجلسنا نأكل، وإذا بالباب يُطْرق، فنظرت من شق الباب وإذا بإنسان يسأل: هذا منزل فلان؟ ففتحت الباب وخرجت.

فقال: أنت مسلم بن الوليد؟ قلت: نعم. واستشهدت له بالخياط على ذلك. فأخرج لي كتاباً وقال: هذا من الأمير يزيد بن مزيد، فإذا فيه: قد بعثنا لك بعشرة آلاف درهم لتكون في منزلك، وثلاثة آلاف درهم تتجمل بها لقدومك علينا.

فأدخلته إلى داري، وزدت في الطعام، واشتريت فاكهة، وجلسنا فأكلنا، ثم وهبت لضيفي شيئاً يشتري به هدية لأهله.

وتوجهنا إلى باب يزيد بالرقة، فوجدناه في الحمام. فلما خرج استؤذن لي عليه، فدخلت فإذا هو جالس على كرسي وبيده مشط يسرح به لحيته. فسلمت عليه فرد أحسن رد وقال: ما الذي أقعدك عنا؟ قلت: قلة ذات اليد، وأنشدته قصيدة مدحته بها.

---

(١) يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني ابن أخي معن، كان أحد القادة الأجواد، ولي سجستان وأرمينية للرشيد، قاتل الخوارج وكانت وفاته عام «١٨٥» هـ.

قال: أتدري لم أحضرتك!؟ قلت: لا أدري. قال: كنت عند الرشيد [1] منذ ليال أحادثه فقال لي: يا يزيد من القائل فيك هذه الأبيات:

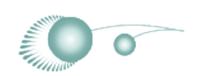
سلّ الخليفة سيفاً من بني مضر — يمضي فيخترق الأجسام والهاما

كالدهـــر لا ينثني عـمـا يهم به — قد أوســع الناس إنعاماً وإرغاماً

فقلت: والله لا أدري يا أمير المؤمنين! فقال: سبحان الله أيقال فيك مثل هذا ولا تدري من قاله؟

فسألت: فقيل لي: هو مسلم بن الوليد. فأرسلت إليك فانهض بنا إلى الرشيد.

فسرنا إليه واستؤذن لنا فدخلنا عليه، فأنشدته مالي فيه من شعر، فأمر لي بمائتي ألف درهم، وأمر لي يزيد بمائة وتسعين ألف درهم، وقال: لا ينبغي لي أن أساوي أمير المؤمنين في العطاء.



---

(1) هو هارون بن محمد بن عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبد المطلب: الخليفة العباسي الخامس ويلقب بالرشيد، وهو أكثر من تعرض تاريخه للتشويه والتزوير من خلفاء الإسلام، مع أنه كان من أكثر خلفاء الدولة العباسية جهاداً وغزواً واهتماماً بالعلم والعلماء، ولعل ما يثبت أنه لم يكن متجهاً نحو اللعب والترف أن عصره شهد الكثير من التألق والازدهار، علمياً، وسياسياً، واجتماعيا، واقتصاديا، فقد كان قائداً وحاكماً يتمتع بعقل وفكر راجح، تمكن من السيطرة على الأمور في دولته ونهض بها، ويشهد له مدى القوة والعظمة التي وصلت إليها الدولة الإسلامية في عهده، ويكفيه أنه عُرف بالخليفة الذي يحج عاماً ويغزو عاما، توفي رحمه الله بمدينة طوس أثناء إحدى الغزوات وذلك عام «١٩٣» هـ، وكان عمره خمسة وأربعون عاماً.

شاعر يمدح فلا يُثاب

امتدح ربيعة الرقّي العباس عم هارون الرشيد بقصيدة لم يُسبق إليها، يقول فيها:

ما إن أعد من المكارم خصلة ... إلا وجدتك عمها أو خالها
وإذا الملوك تسايرت في بلدة ... كانوا كواكبها وكنت هلالها
إن المكارم لم تزل معقولة ... حتى حللت براحتيك عقالها

فبعث العباس إليه بدينارين، وكان يقدّر فيه ألفين، فلما نظر إلى الدينارين كاد أن يجن غضباً؛ وقال للرسول: خذ الدينارين فهما لك على أن ترد إلي الرقعة من حيث لا يدري العباس، ففعل الرسول ذلك، فأخذها ربيعة وأمر من كتب على ظهرها قصيدة منها قوله:

هززتك هزة السيف المحلى ... فلما أن ضربت بك انثنيت
فهبها مدحة ذهبت ضياعاً ... كذبت عليك فيها وافتريت

ثم دفعها إلى الرسول، وقال: ضعها في الموضع الذي أخذتها منه. ففعل، فلما كان من الغد أخذها العباس فنظر فيها فلما قرأ الأبيات غضب وقام من فوره فركب إلى الرشيد وكان أثيراً عنده يبجله ويقدمه، وكان قد همّ أن يخطب منه ابنته.

فرأى الرشيد الكراهة في وجهه فقال: ما شأنك؟ قال: هجاني ربيعة الرقي.

فأحضره الرشيد وقال له: أتهجو عمي وآثر خلق الله عندي؟

فقال: يا أمير المؤمنين! والله لقد امتدحته بقصيدة ما قال أحد مثلها، ولقد

بالغت في الثناء، وأكثرت من الوصف.

فلما سمع الرشيد ذلك سكن غضبه، وأحب أن ينظر في القصيدة. فأمر العباس بإحضارها فتلكأ عليه. فقال له الرشيد: طلبتك بحقي عليك إلا أمرت بإحضارها.

فأُحضرت فإذا فيها القصيدة بعينها، فاستحسنها، واستجادها، وأعجب بها، وقال: والله ما قال أحد من الشعراء في أحد من الخلفاء مثلها، ولقد صدق ربيعة فبرّ، ثم قال للعباس: كم أثبته عليها؟

فسكت العباس، وتغير لونه، وغص بريقه، فقال ربيعة: أثابني عليها بدينارين يا أمير المؤمنين. فتوهم الرشيد أنه قال ذلك من الموجدة عليه فقال: يارقي كم أثابك؟ فقال يا أمير المؤمنين ما أثابني إلا بدينارين.

فغضب الرشيد غضباً شديداً، ونظر في وجه العباس وقال: سوءة لك! أية حال قعدت بك عن إثابته؟ فنكس العباس رأسه ولم ينطق.

فقال الرشيد: أعطوا ربيعة ثلاثين ألف درهم.

ثم قال له: لا تذكر عمي في شيء من شعرك تعريضاً ولا تصريحاً.

وفتر الرشيد عما كان قد همّ به من أن يتزوج ابنته.. ولله درّ القائل:

ويُظهر عيب المرء في الناس بخله ... ويستره عنهم جميعاً سخاؤه

تغط بأثواب السخاء فإنني ... أرى كل عيب فالسخاء غطاؤه

من أخبار البرامكة

دخل رجل من الشعراء على يحيى بن خالد البرمكي [1] فأنشده:

سألت النّدى: هل أنت حرّ؟ فقال: لا ولكنّني عبد ليحيى بن خالد

فقلت: شراءً؟ قال: لا، بل وراثةً تــوارثني عن والدٍ بعد والد

فأمر له بجائزة كبيرة.

حين حج جعفر بن يحيى البرمكي [2] فلما كانوا بالمدينة قال لرجل من أصحابه: انظر جارية أشتريها تكون فائقة في الجمال والدعابة، ففتش الرجل فوجد جارية على النعت، فطلب سيدها فيها مالا كثيرا بشرط أن يراها جعفر.

فذهب جعفر إلى منزل سيدها، فلما رآها أعجب بها، فساومه صاحبها فيها، فقال له جعفر: قد أحضرنا مالاً فإن أعجبك وإلا زدناك.

فالتفت سيدالجارية وقال لها: إني كنت في نعمة وكنتِ عندي في غاية السرور، وإنه قد انقبض علي حالي، وإني قد أحببت أن أبيعك لهذا الملك، لكي تكوني عنده كما كنت عندي.

---

(١) يحيى بن خالد بن برمك، وهو مؤدب الرشيد ومعلمه، تولى الوزارة واشتهر بجوده وحسن سياسته، مات سنة «١٩٠» هـ.

(٢) جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي: وزير الرشيد، كان فصيحاً مفوهاً أديباً حاتمي السخاء، قُتل عام «١٨٧» هـ وكان عمره ٣٧ سنة.

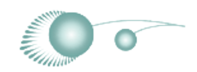
فقالت له الجارية: والله يا سيدي لو ملكت منك كما ملكت مني لم أبعك بالدنيا وما فيها، وأين ما كنت عاهدتني أن لا تبيعني ولا تأكل من ثمني؟!

فقال سيدها لجعفر وأصحابه: أشهدكم أنها حرة لوجه الله، وأني قد تزوجتها.

فلما قال ذلك نهض جعفر، وقام أصحابه، وأرادوا أن يحملوا المال.

فقال جعفر: والله لا يتبعني.

وقال للرجل: قد وهبتك هذا المال.. فأنفقه على أهلك.. بارك الله لكم.



هجا أبو الهول الحميري الفضل بن يحيى البرمكي [1] ثم أتاه راغباً إليه. فقال له: ويلك! بأي وجه تلقاني؟

فقال: بالوجه الذي ألقى به الله عز وجل وذنوبي إليه أكثر من ذنوبي إليك، فضحك ووصله.

---

(١) الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي، كان أخاً للرشيد من الرضاعة، وكان نبيلا شجاعاً مهيباً سخياً كثير العطاء، مات عام «١٩٢» هـ وعمره خمس وأربعون سنة.

داود المهلبي[1]

دخل فتى عليه شعث السفر، على داود المهلبي ـ وكان إذا حضر الطعامُ يتقدّمُ بِصَرف البوابين، ولا يمنع أحداً من الوصول إلى طعامه ـ فلما فرغوا من الطعام أومى إليه، وقال له: من أنتَ يا فتى؟ قال: شاعر قصدْتُكَ بأبيات من الشعر.

فأراد داود أن يمازحه فدعا بقوس فأوترها، وأومى إليه، وقال له: قُل، فإن أنت أحسنتَ خلعتُ عليك وأجزَلتُ لك العطية، وإن أخطأتَ رميتُك بهذا السهم يقع في أي موضع يقع فيه، فتبسم الفتى، وقال:

أمنتُ بداودٍ وجودِ يمينه ... من الحَدث المرهوب والبؤس والفقرِ
وأصبحتُ لا أخشى بداود نبوَةً ... ولا حدَثاناً إن شدَدْتُ به أزري
له حكمُ لُقمانٍ وصورةُ يوسف ... ومُلكُ سليمانٍ وصدقُ أبي ذرٍّ
فتى تهربُ الأموال من جود كفّه ... كما يهرب الشيطان من ليلة القدرِ
فقوسك قوس الجود، والوَتَرُ الندى ... وسهمك فيه الموت، فاقتل به فقري

فضحك داود ورمى بسهمه مع القوس من يده، وقال: يا فتى العرب، بالله هل كان ذكرُ القوس في الأبيات؟

فقال: لا والله. ففرح بذلك، وقال: يا فتى العرب، أيما أحب إليك: أعطيك

---

(١) داود بن يزيد بن حاتم المهلبي، أحد الأمراء الشجعان العقلاء الأجواد، كان والياً على أفريقية، ثم ولاه الرشيد السند، توفي سنة «٢٠٥» هـ.

على قدرك أم على قدري؟

قال: بل على قَدْري.

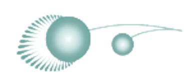
قال: كم على قدرك؟

قال: مائة ألف درهم، فأمر له بها.

ثم قيل له: ما منعك أن تقول على قدر الأمير؟

فقال: أردتُ أن أقول ذلك، فإذا الأرض لم تُسَاوِ قدرَ الأمير، فطلبتُ على قدري.

فقال له داود: لله درُّك! والله إن نثْرك لأحسنُ من نظمك. وأمر له بمائة ألف ثانية، وأمره أن لا ينقطع عنه.



زبيدة بنت جعفر[1]

«أعظم نساء عصرها ديناً وأصلاً وجمالاً وصيانة ومعروفاً»..

هكذا وصفها أحد المؤرخين.. ولعل من أبرز مآثرها التي لا تزال باقية (درب زبيدة) والذي يعتبر من أهم طرق الحج والتجارة، فحين ادركت - رحمها الله - الصعوبات التي تواجه الحجيج في طريقهم إلى مكة قامت بانشاء هذا الطريق الذي يحوي الكثير من المنازل والمساجد، وحفرت على طولها الآبار والعيون، وحددت معالم طريق الحج بالأميال، ليعرف الحجاج المسافات التي قطعوها.

وبعد أن رأت ما يعانيه أهل مكة المكرمة من جهد في سبيل الحصول على الماء الصالح للشرب، بادرت باستدعاء وكيلها، وأمرته أن يجمع المهندسين والعمال من أنحاء البلاد لإيجاد حل سريع لهذه المشكلة، فأخبرها الوكيل أن هناك صعوبات كبيرة تحول دون حلّها، وأن إيجاد الماء العذب لمكة سيكلفها أموالا طائلة، فما كان من زبيدة إلا أن أمرته بتنفيذ المشروع حتى لو كانت ضربة المعول بدينار، وهذا دليل يؤكد أن قلبها عامر بالخير كما يثبت صدق عزيمتها للقيام بهذا المشروع.

وقد قام المهندسون والعمال بتمهيد الطريق للماء في كل منخفض وسهل وجبل، ثم قاموا بوصل منابع المياه من الجبال حتى أوصلوها لمكة، وكان

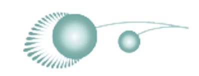
---

(١) زبيدة: والدة محمد الأمين بن هارون الرشيد اسمها أمة العزيز بنت جعفر ابن الخليفة عبدالله المنصور بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب ، لقّبها جدها المنصور بزبيدة لبياضها وحسنها، توفيت رحمها الله سنة «٢١٦» هـ.

طولها حوالي عشرة أميال،

ويُذكر لزبيدة أيضاً أن لها مائة جارية يحفظن القرآن الكريم، وكان قصرها أشبه ما يكون بمدرسة راقية تتعلم فيه الفتيات حفظ القرآن فكان يُسمع من قصرها دوي كدوي النحل من كثرة القراءة.

ومن كرم أخلاقها مسامحتها للخليفة المأمون بعد قتله لولدها الأمين، فقد هنأته بالخلافة وقالت: هنأت نفسي بها عنك قبل أن أراك، ولئن كنت فقدت ابناً خليفة فلقد عوضت ابناً خليفة لم ألده، وما خسر من اعتاض مثلك، ولا ثكلت أم ملأت يدها منك، وأنا أسأل الله أجراً على ما أخذ، وإمتاعاً بما عوض.



مكافأة المعروف

قال صاحب شرطة المأمون[١]:

دخلتُ يوماً مجلسَ أميرِ المؤمنين ببغداد، وبين يديه رجلٌ مكبّل بالحديد: فلمّا رآني، قال لي: يا عبّاس. قلت: لبيك يا أمير المؤمنين.

قال: خذ هذا إليك، واحتفظ به، وبكّر به إليّ في غد.

فدعوتُ جماعةً فحملوه ولم يقدِرْ أن يتحرّك، فقلت في نفسي: مع هذه الوصية التي أوصاني بها أميرُ المؤمنين من الاحتفاظ به يجبُ أن يكون معي في بيتي، فأمرتُهم فتركوه في مجلس لي في داري.

ثم أخذتُ أسألُه عن قضيّته وعن حاله، ومن أين؟

فقال: أنا من دمشق. فقلت: جزى الله دمشق وأهلَها خيراً، فمن أنْتَ من أهلها؟ قال: وعمّن تسألُ؟ قلت: أتعرفُ فلاناً؟ قال: ومن أين تعرفُ ذلك الرجل؟ قلت: وقعت لي معه قضية. فقال: ما كنتُ بالذي أعرِّفك خبرَه حتى تعرِّفني قضيتك معه.

فقلت: كنت مع بعض الولاة بدمشق، فبغى أهلُها، وخرجوا علينا حتى إنّ الوالي هرب هو وأصحابه، وهربتُ في جملة القوم. فبينما أنا هاربٌ في بعض الدّروب إذ بجماعة يعدُون خلفي، فما زلت أعدو أمامهم، حتى فُتُّهم، فمررت بهذا الرجل الذي ذكرته لك، وهو جالس على باب داره، فقلت: أغثني أغاثك

---

(١) عبدالله المأمون بن هارون الرشيد: أحد أشهر رجال بني العباس حزماً وعزماً وعلماً وهيبةً، كان وافر الخُلق عظيم الحلم ممدحاً معطاء، قيل إنه فرّق في جلسة واحدة ستة وعشرين ألف ألف درهم، مات سنة «٢١٨» هـ.

الله. فقال: لا بأس عليك، ادخل الدار.

فدخلت، فقالت زوجتُه: ادخل تلك المقصورة. فدخلتها، ووقف الرجل على باب الدار، فما شعرت إلا وقد دخل، والرجال معه يقولون: هو والله عندك.

فقال: دونكم الدار، فتِّشوها، ففتَّشوها حتى لم يبقَ سوى تلك المقصورة، وامرأتُه فيها، فقالوا: هو هنا. فصاحت بهم المرأة ونهرتَهم، فانصرفوا.

وخرج الرجل وجلس على باب داره ساعةً، وأنا قائم أرجُف، ما تحملني رجلاي من شدة الخوف، فقالت المرأة: اجلس لا بأس عليك. فجلستُ فلم ألبث حتى دخل الرجل فقال: لا تخف، قد صرف الله عنك شرَّهم.

وصِرْتُ إلى الأمن والدَّعة. فقلت له: جزاك الله خيراً. ثم إنه ما زال يعاشرني أحسن معاشرة وأجملها، وأفرَد لي مكاناً في داره، ولم يفتُر عن تفقد أحوالي.

فأقمتُ عنده أربعة أشهر في أرغَد عيش وأهنئه إلى أن سكنت الفتنةُ وهدأتْ وزال أثرُها، فقلت: أتأذنُ لي في الخروج حتى أتفقّد حال غلماني، فلعلي أقفُ منهم على خبر. فأخذ عليَّ المواثيق بالرجوع إليه.

فخرجتُ فطلبت غِلماني، فلم أرَ لهم أثراً، فرجعتُ إليه وأعلمتُهُ الخبر، وهو مع هذا كله لا يعرفني ولا يسألني، ولا يعرف اسمي، ولا يخاطبُني إلا بالكُنْية.

ثم قال: عَلامَ تَعزم؟ فقلت: عزمتُ على التوجّه إلى بغداد، فقال: القافلة بعد ثلاثة أيام، وهأنذا قد أعلمتُك.

فقلت له: إنك تفضّلت عليّ هذه المدَّة، ولك عليّ عهدٌ ألا أنسى لك هذا الفضل، ولأكافئنَّك ما استطعت.

ثم دعا غلاماً له أسود، وقال له: أسْرج الفرس، ثم جهّز آلة السفر، فقلت في نفسي: ما أظنُّ إلا أنه يريد أن يخرجَ إلى ضيعةٍ أو ناحيةٍ من النواحي.

ولما حان يوم خروج القافلة جاءني وقت السَّحَر، وقال لي: قم، فإن القافلةَ تخرجُ الساعة، وأكره أن تَنْفرد عنها.

فقلتُ في نفسي: كيف أصنعُ، وليس معي ما أتزوّد به، ولا ما أكْتَرِي به مركوباً! ثم قمتُ، فإذا هو وامرأتُه يحملان أفخَرَ الملابس، وخفَّين جديدين، وآلة السفر، ثم جاءني بسيف ومِنْطَقة فشدّهما في وسطي، ثم قدّم بَغْلاً فحمل عليه صندوقين وفوقهما فَرْش، وقدّم إليّ فرساً، وقال: اركب، وهذا الغلام الأسود يخدمك، ويَسوسُ مركوبك.

وأقْبلَ هو وامرأتُه يعتذران إليّ من التقصير في أمري، وركب معي يشيّعني، وانصرفتُ إلى بغداد وأنا أتوقَّع خبره، لأفي بعهدي له في مجازاته ومكافأته، واشتغلتُ مع أمير المؤمنين، فلم أتفرّغ أن أُرسل إليه من يكشف خبره، فلهذا أسألُ عنه.

فلما سمع الرجلُ الحديث قال: لقد أمكنك الله من الوفاء له، ومكافأتِه على فعله ومجازاته على صنيعه بلا كلفة عليك، ولا مؤونة تلزمك!

فقلت: وكيف ذلك؟

قال: أنا ذلك الرجل، وإنما الضرُّ الذي أنا فيه غيّر عليك حالي، وما كنتَ تعرفُه منِّي.

فما تمالَكْتُ أن قمتُ وقبَّلتُ رأسه، ثم قلتُ له: فما الذي أصارَك إلى ما أرى؟

فقال: هاجَت بدمشق فتنةٌ مثلُ الفتنة التي كانت في أيامك، فنُسبَتْ إليَّ وبعث أمير المؤمنين بجيوش، فأصلحوا البلد، وأُخذْتُ أنا وضُربتُ إلى أن أشرفتُ على الموت، وقُيِّدتُ وبُعثَ بي إلى أمير المؤمنين، وأمري عنده عظيمٌ، وخطبي لديه جسيم، وهو قاتلي لا محالة، وقد أُخرجْتُ من عند أهلي بلا وصيَّة، وقد تَبِعني من غِلمَاني من ينصرفُ إلى أهلي بخبري، وهو نازل عند فلان، فإن رأيتَ أن تجعلَ من مكافأتك لي أن ترسلَ من يُحضِرُه حتى أوصيَه بما أريد، فإن أنت فعلتَ ذلك فقد جاوزتَ حدَّ المكافأة، وقمتَ لي بوفاء عهدك.

قلت: يصنع اللّه خيراً.

ثم أحضَرْت حدّاداً في الليل فكّ قيوده، وأزال ما كان فيه من الأنكال، وأدخلته حمّام داري، وألبسته من الثياب ما احتاج إليه، ثم سيَّرت من أحضَرَ إليه غلامه.

فلما رآه جعل يبكي ويوصيه، فاستدعيت نائبي، وقالت له: عليّ بالأفراس والهدايا، ثم أمرته أن يشيّعه إلى حدّ الأنبار.

فقال لي: إن ذَنْبي عند أمير المؤمنين عظيمٌ، وخَطْبي جسيم، وإن أنتَ احتججت بأني هربتُ بعثَ في طلبي كلّ من على بابه، فأُرد وأُقتل.

فقلت: انجُ بنفسك ودَعْني أدبِّر أمري.

فقال: واللّه لا أبرحُ ببغداد حتى أعلم ما يكون من خبرك، فإن احتجتَ

إلى حضوري حضرتُ.

فقلت: إن كان الأمر على ما تقول، فلتكن في موضع كذا، فإن أنا سَلِمتُ في غداة غدٍ أعلمتُكَ، وإن أنا قُتِلتُ فقد وقيتُك بنفسي كما وقيتني.

ثم تفرغت لنفسي، وتحنّطت وجهّزت لي كفناً، فلم أفرغ من صلاة الصبح إلا ورسلُ المأمون في طلبي، وهم يقولون: هات الرجل معك وقُمْ.

فتوجّهت إلى دار أمير المؤمنين، فإذا هو جالسٌ ينتظر. فقال: أين الرجل؟ فسكتُ، فقال: ويحك! أين الرجل؟

فقلت: يا أمير المؤمنين! اسمعْ مني. فقال: للّه عليّ عهدٌ لئن ذكرتَ أنه هرب لأضربنَّ عُنقك.

فقلت: لا، واللّه يا أمير المؤمنين ما هرب، ولكن اسمع حديثي وحديثه، ثم شأنك وما تريد أن تفعلَه في أمري. قال: قل.

فقلت: يا أمير المؤمنين، كان من حديثي معه كيت وكيت، وقصصتُ عليه القصة جميعها، وعرّفته أني أريدُ أن أفيَ له، وأكافئه على فعله معي.

وقلت: أنا وسيدي ومولايَ أمير المؤمنين بين أمرين: إما أن يصفح عني، فأكون قد وفيتُ وكافأتُ، وإما أن يقتلني فأقيه بنفسي،وقد تحنّطت، وها هو ذا كفني يا أمير المؤمنين.

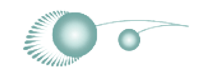
فلما سمع المأمون الحديث قال: ويلك لا جزاك اللّه عن نفسك خيراً! إنه فعل بك ما فعل من غير معرفة، وتكافئُه بعد المعرفة بهذا؟ هلا عرّفتني خبرَه، فكنا نكافئُه عنك، ولا نقصّر في وفائك له.

فقلت: يا أمير المؤمنين، إنه ههنا وقد حلف ألا يبرح حتى يعرفَ سلامتي،

فإن احتجت إلى حضوره حضر.

فقال المأمون: وهذه منّةٌ أعظمُ من الأولى، اذهَبْ إليه الآن، فطيّب نفسه وسكّن روعه، وائتني به حتى أتولّى مكافأته. فأتيتُ إليه وقلت له: ليزُل خوفُك، إن أمير المؤمنين قال كذا وكذا.

فقال: الحمد لله الذي لا يحمدُ على السراء والضراء سواه، ثم قام وركب، فلما مَثَل بين يدي أمير المؤمنين أقبل عليه، وأدناه من مجلسه وحدّثه، حتى حضر الغداء فأكل معه، وخلع عليه، وعرض عليه أعمال دمشق، فاستعفى، فأمر له بصلة وكتب إلى عامله بدمشق بالوصية به.



الأصمعي وكريم فقير

قال الأصمعي[1]:

قصدت في بعض الأيام رجلاً كنتُ أغشاه لكرمه، فوجدتُ على بابه بوّاباً. فمنعني من الدخول إليه، ثم قال: والله يا أصمعيّ ما أوقفني على بابه لأمنع مثلك إلا لرقّة حاله، وقصور يده.

فكتبتُ رُقعة فيها:

إذا كان الكريم له حجــــاب فما فضل الكريم على اللئيـم

ثم قلت له: أَوصلِ رُقعتي إليه، ففعل وعاد بالرُّقعة، وقد وقّع على ظهرها:

إذا كان الكريم قليلَ مـــــالٍ تحجَّب بالحجابِ على الغريمِ

ومع الرقعة صُرّة فيها خمسمائة دينار.

فقلت: والله لأتحفنّ المأمون بهذا الخبر، فلما رآني قال: من أين يا أصمعيّ؟ قلتُ: من عند رجلٍ من أكرم الأحياء حاشا أمير المؤمنين.

قال: ومَنْ هو؟ فدفعتُ إليه الورقة والصُّرة، وأعدتُ عليه الخبر. فلما رأى الصّرة قال: هذا من بيت مالي، ولا بد لي من الرجل. فقلتُ: والله يا أمير المؤمنين إني أستحيي أن تروّعه برسُلك، فقال لبعض خاصته: امض مع الأصمعيّ، فإذا أراك الرجل، فقل له: أجب أمير المؤمنين من غير إزعاج.

فلمّا حضر الرجلُ بين يدي المأمون قال له: أنت الذي وقَّعت لنا بالأمس،

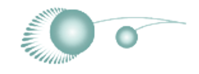
---

(١) عبد الملك بن قريب الأصمعي، كان ذا حفظ وذكاء وله تصانيف ونوادر كثيرة، تناظر مرّة مع سيبويه فقال أحد الحاضرين: الحق مع سيبويه وهذا يغلبه بلسانه، توفي سنة «٢١٥» هـ.

وشكوت رقة الحال، وأن الزمان قد أناخ عليك بكلْكَلِه، فدفعنا إليك هذه الصرة لتصلح بها حالك، فقصدك الأصمعي ببيتٍ واحدٍ، فدفعتَهَا إليه.

فقال: نعم يا أمير المؤمنين، والله ما كذبتُ فيما شكوتُ لأمير المؤمنين من رقّة الحال، لكني استحيَيْتُ من الله تعالى أن أُعيدَ قاصدي إلا كما أعادني أميرُ المؤمنين.

فقال له المأمون: لله أنتَ، فما ولدت العربُ أكرم منك. ثم أمر له بألف دينار، وجعله من خاصته.



صداقة نادرة

قال الواقدي[1]: كان لي صديقان، وكنا كنفس واحدة، فنالتني ضائقة شديدة، وحضر العيد، فقالت لي امرأتي: أما نحن في أنفسنا فنصبر على البؤس والشدة، وأما صبياننا هؤلاء فقد قطّعوا قلبي رحمة لهم، لأنهم يرون صبيان جيراننا، وقد تزينوا في عيدهم، وهم على هذه الهيئة، فلو احتلت فيما نصرفه في كسوتهم.

قال: فكتبت إلى صديقي الأول أسأله التوسعة عليَّ مما حضر، فوجَّه إليَّ كيساً مختوماً ذكر أنه ألف درهم.

فما استقر قراره حتى كتب إليَّ الصديق الآخر يشكو مثل ما شكوت إلى صاحبي فوجهت إليه الكيس على حاله.

وخرجت إلى المسجد فأقمت فيه ليلتي مستحيياً من امرأتي، فلما دخلت عليها وأخبرتها الخبر استحسنت ذلك.

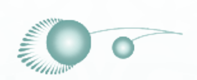
فبينما أنا كذلك إذ وافاني صديقي الأول ومعه الكيس على هيئته، فقال: اصدقني فيما فعلته فيما وجهت به إليك فعرفته الخبر على جهته.

فقال: إنك وجهت إلي ولا أملك على الأرض إلا ما بعثت به إليك، ثم كتبت إلى صديقنا أسأله المواساة فوجه إليّ بكيسي هذا وخاتمي عليه.

قال: فأخرجنا للمرأة مائة درهم، وتقاسمنا الباقي بيننا أثلاثاً.

ونمى الخبر إلى المأمون فدعاني، وسألني عنه فشرحت له ما وقع بيننا.

فأمر لنا بسبعة آلاف دينار منها ألف للمرأة، وألفان ألفان لكل واحد منا.



---

(١) محمد بن عمر بن واقد من أشهر المؤرخين في الإسلام، توفي سنة «٢٠٧» هـ.

النعم محروسة بالبر

قال يحيى بن أكثم: كنت يوماً عند المأمون، فلما خرجت من عنده، وصرت إلى الدهليز، قام إليّ رجل وقال: أيها القاضي، استأذن لي أمير المؤمنين. فقلت له: ويحك، لقد أخطأ حِزْرك فيَّ، فما أنا بحاجب فأستأذن لك، ولا تعوَّدت سرعة رجوعي إلى أمير المؤمنين بعد خروجي عنه.

فقال: يا يحيى، النعَم محروسة بالبرّ، مهنأة بالشكر، محفوظة بالإحسان، فإن تلقيت إحسان الله إليك بإحسانك إلى خلقه كان حريّاً أن يتمّها ويديمها، وإلا كان قادراً قاهراً أن ينزعها منك، ثم لا يردّها إليك.

قال يحيى: فلما سمعت كلامه ثنيت رجلي عن ركابي، ثم نزلت فقلت له: ومن أنت؟

قال:انا كلثوم بن عمرو العتابي[1]

فدخلت على المأمون، فقال: يا يحيى، ماردّك على قرب عهدك؟ قلت: كلام سمعته من رجل ببابك. فقال: اروِه يا يحيى، فأعدت عليه الكلام، فرأيت دموعه تتحدر على لحيته، ثم قال لخادم بين يديه: أدخله.

فلما دخل قال له المأمون: هات الكلام الذي قلته ليحيى. فأعاده العتابي،

---

(١) كلثوم بن عمرو العتابي: شاعر، وكاتب حسن الترسل، عذب الكلام، كثير الحفظ، كان من أدباء العصر العباسي البارزين، توفي سنة «٢٢٠» هـ.

فلما استتمه أنشأ يقول:

تخـيّـر قــريباً من فعـالك إنـمـا ... قـرينُ الفتى في كل ما كان يفعلُ
ولابدّ قـبـل المــــوت مـمـا تـعـدّهُ ... لـيـوم يـناديك المـنادي فتـسألُ
فإن كنتَ مشغولاً بشيء فـلا تكن ... بغير الـذي يرضى به اللّه تُشغلُ
إلا إنـمـا الإنـســان ضيفٌ لأهــله ... يُقيم قـــليلاً عندهم ثم يــرحلُ

فبكى المأمون بكاءً شديداً، ثم أحسن صلة العتابي، وأمر بكتابة الأبيات في مواضع كثيرة.

أبو دلف العجلي [1]

كان أبو دلف القاسم بن عيسى العجلي قد ركبته الديون لكثرة عطائه، واشتهر ذلك عنه، فدخل عليه بعضهم وأنشده:

أيـــــا ربَّ المنائح والعـطــايا ... ويـــا طـلق المـحـــــيا واليدين
لـقـد خـبـرت أن عليك ديـــنـاً ... فـزد في رقم دينك واقض ديـني

فوصله أبو دلف وقضى دينه.

وقد أحبه الناس لشدة كرمه حتى إن الشاعر علي بن جبلة قال فيه قصيدة طويلة بالغ فيها بالمدح والوصف منها قوله:

إنمــــــا الدنيا أبو دلف ... بين مغزاه ومحتضــــــــــــرِه
فإذا ولّــى أبــــــــو دلف ... ولّت الدنيا على أثــــــــرِه
كُلُّ مَن في الأَرضِ من عَــرَبٍ ... بَينَ باديهِ إِلى حَضَــــــرِه
مُستَعـــــــــيرٌ مِنكَ مَكرُمَةً ... يَكتَسيها يَومَ مُفتَخَــــــــرِه

فاستحسنها أبو دلف وأجازه، وبعد مُضي زمن كان أبو دلف يسير مع أخيه معقل إذ مرّ بامرأتين تتماشيان، فقالت إحداهما لصاحبتها: هذا أبو دلف.

فقالت الأخرى: ومن أبو دلف ؟ قالت: الذي يقول فيه الشاعر:

إنـمـــــا الدنيــــــا أبو دلف ... بين مغزاه ومحتضــــــــرِه

فاستعبر أبو دلف ثم بكى، فقال له معقل: ما لك تبكي ؟

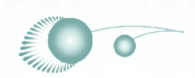
قال: لأني لم أقض حق علي بن جبلة.

---

(١) أبو دلف: هو القاسم بن عيسى العجلي أحد القادة الشجعان الأجواد، له أخبار ووقائع مشهورة، مات سنة «٢٢٥» هـ.

قال: أ لم تعطه مئة ألف درهم على قصيدته هذه ؟

قال: ما في قلبي حسرة تقارب حسرتي على أني لم أعطه مئة ألف دينار.



استنشد أبو دلف الشاعر/ أبا تمام قصيدته التي رثى بها القائد محمد بن حميد الطوسي[1] بعد مقتله والتي منها قوله:

كذا فليجلّ الخطب وليفدح الامــــرُ ... فليس لعين لم يفض مــــاؤها عذرُ

توفيت الآمــــال بعــد محمـــد ... وأصبح في شغل عن السفر السفرُ

وما كـان إلا مال من قـــل مالــه ... وذخـراً لمن أمســى وليـس لـه ذخـرُ

فتى مات بين الضــرب والطعن ميتةً ... تقوم مقام النصر إن فاتها النصرُ

تردى ثياب الموت حمـــراً فما دجى ... له الليل إلا وهي من سندس خضـرُ

كأن بني نبهــان يــــوم وفــاته ... نجوم سماء خر من بينهـــا البدرُ

لئن ألبســت فيه المصــيبة طــيئاً ... فما عـريت منها تـميم ولا بـــكرُ

كـذلك ما ننفـك نفقـد هالكـــاً ... يشاركنا في فقـده البدو والحضـرُ

وكيـف احتمـالي للسحــاب صنيعة ... باسقائهـا قبـراً وفي لحده البحـرُ

مضى طـــاهر الأثواب لم يبق روضة ... غداة ثوى إلا اشتهت أنها قبـــرُ

عليك سلام الله وقفـــاً فإنني ... رأيت الكريم الحر ليس لـه عمرُ

وحين انتهى قال أبو دلف: إنه لم يمت من رثي بمثل هذا الشعر.

---

(١) محمد بن حميد الطوسي الطائي أحد أبرز قادة جيوش الدولة العباسية، قتل في معركة بابك عام (٢١٤) هـ.

علو في الحياة وفي الممات

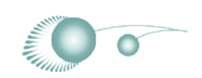
تذكر كتب التراث أن أبو الحسن محمد بن عمران الأنباري كان مقلاً في الشعر، وكان يفد على الوزير ابو الطاهر محمد بن بقيّة وزير عز الدولة البويهي، وكان هذا الوزير كريماً جواداً، من أصحاب المروءة، وله مكانة كبيرة في قلوب الناس، فقد كان يقضى حوائجهم، وينفق على المساكين.

وحدث نزاع بين عز الدولة وابن عمه عضد الدولة آلت إلى حرب بينهما، وحين انتصر عضد الدولة طلب الوزير ابن بقيّة فقتله ثم صلبه على باب الطاق ببغداد عند نهر دجلة، وأمر بتشديد الحراسة عليه حتى لا ينزله أحد من الناس، فسمع الناس بالخبر فساءهم كثيراً وحزنوا وتجمعوا حول جثمانه، وأصابتهم الحسرة لما أصابه.

ولما جاء صاحبه الأنباري لوفادته رآه مصلوباً على خشبة عالية والناس قياماً حوله فرثاه بقصيدة ذاع صيتها حتى إنها وصلت أقاصي البلاد خلال مدة وجيزة، وهي من المراثي المشهورة، وذلك لقوة بنائها، وصدق عاطفة قائلها، وبراعة الوصف فيها، وكثرة ما بها من صور شعرية معبرة، منها قوله:

علـو في الحـياة وفي الممات ... لحـقٌ أنت إحـدى المعجـزاتِ
كأن الناس حولك حين قامـوا ... وفـود نَداك أيام الصـلاتِ
كأنك قـائـم فيهم خطـيبا ... وكلـهـم قـيامٌ للصـلاةِ
مددت يديك نحـوهـم احتفاءً ... كـمدهـمـا إليـهـم بالـهباتِ
ولما ضاق بطن الأرض عن أن ... يضم عـلاك من بعد الـوفاةِ
أصاروا الجو قبرك واستعاضوا ... عن الأكفـان ثوب السافياتِ
لعظمك في النفوس تبيت تُرعى ... بحـراسٍ وحفـاظ ثقـاتِ

وتـوقـد حــولك النيران ليلا كذلك كنت أيــام الحـــــياةِ
غلـيل باطــن لك فـي فـؤادي يخفف بالدمـوع الجــاريات
ولو أنــي قدرت على قـــــيام بفرضك والحقوق الواجـباتِ
ملأت الأرض من نظم القوافي وبحت بها خلاف النائحــاتِ
ولكني أصـــــبّر عنك نفسي مخافة أن أُعد من الـــجناةِ
ومالك تـــربة فأقــول تسقى لأنك نصب هطـل الهاطلاتِ
عليك تحية الرحمــن تــترى برحمـات غـــواد رائحـــاتِ



أحمد الفليحي وخادمه الذكي [1]

يحكي القاضي محمد بن إسماعيل العمراني: أن الذي بنى مسجد الفليحي بصنعاء القديمة كان رجلاً صالحاً يدعى أحمد بن عبدالله الفليحي، فأوصى ببناية المسجد بعد موته من تركته.

وفي إحدى الليالي كان احمد الفليحي سائراً مع خادماً له في أحد الطرق المظلمة، والخادم يحمل سراجاً ليضيء له، فكان يسير بالسراج خلفه فقال له: سر أمامي، الذي يريد أن يضيء لإنسان ينبغي أن يسير أمامه لا خلفه.

فقال الخادم: هذا على مذهبك.

فقال الفليحي: على مذهبي ! كيف ؟

قال: أنت عندما أردت أن تعمل حسنة وهي بناء المسجد لتضيء لك جعلتها بعد موتك أي خلفك، فهلا جعلتها أمامك لُتضيء لك!.

فقال الفليحي: صدقت.

وقام على بناء المسجد في حياته، فلما عمرَ المسجد وابتدأ الناس يصلون فيه وذلك عام (٦٦٥هـ-١٢٦٧م)، طلب الفليحي من الخادم المتقدم ذكره أن يدعو جميع المصلين في صلاة العشاء ليتعشوا عنده، فنزل الخادم وحين عاد بعد الصلاة جاء معه عدد قليل وكان المصلون في المسجد كثيرين.

---

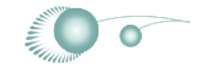
(١) كتاب قصص وحكايات من اليمن للدكتور/ محمد عبدالرحمن غنيم.

فقال الفليحي: ألم أقل لك أن تدعو جميع المصلين، وجئتني بهذا العدد القليل، أين بقية المصلين ؟

فقال الخادم: أنت طلبت دعوة المصلين للعشاء، وهؤلاء هم المصلون.

قال: كيف، والباقي ؟

قال الخادم: بعد صلاة العشاء سألتهم عن السورة التي قرأها الإمام في الصلاة، فلم يعرف الجواب إلا هؤلاء، والباقون لم يجيبوا، فلم أعتبرهم مصلين!.







الفصل السادس

قصص شعبية



مَن جادْ سادْ ومَنْ يشحْ بحـــــلالَهْ
ما أدركْ مرامْ ولا صعَدْ مصعَدْ عال
ولا يفتخِرْ مَنْ جادْ جدُّهْ وخـــالَهْ
هِيْ بالهِمَمْ لا بالرمَمْ مِثلْ ما قـالْ

محمد بن عبدالله القاضي



تنويــه

هذا الفصل من الكتاب يحوي قصصاً شـعبية تــروى بطــرق متعـددة، لذلـك فإنــه لا يمكن لأي باحـث القطـع بثبوتهـا أو نفي شــيء من تفاصيلها، لأن مـن واقـع القصـة الشـعبية وحقائقها أن الأمية كانت سـائدة حتى وقت قريــب بــين النــاس الذيــن كانــوا يتناقلــون القصص والأشعار مشافهة فيما بينهم؛ مما كان له ابلغ الأثر في تداخل الاحداث أو اختلاف الروايــات حتى وان كانــت عن طريق الثقاة.



راشد الخلاوي

راشد الخلاوي هو أحد الأعلام الذين اختلف الناس حول الزمن الذي عاش فيه، لكن العديد من الباحثين ذهبوا إلى أنه عاش في القرن العاشر الهجري، جمع بين مكارم الأخلاق، وعلم الفلك والشعر، وتناقلت الأجيال المتعاقبة أخباره وأشعاره التي لا تخلو من الحكمة، ولعل من أشهر قصائده قصيدته المسماة البائية، والتي بلغ عدد أبياتها ألفاً وخمسمائة بيت، منها قوله:

حريب جدّك لو صفا ما يودّك ... وعينيه لو تبكي لك الدم كاذبه
واحذر عدوك في الملا فرد مره ... واحذر صديق السو ألف تحاط به
وترى ابرك ساعات الفتى ما بها الفتى ... وما فات مات وساعة الغيب غاييه
ولا عاب قوم قط إلا حسودهم ... ومن عاب شخص عاجز عن مراتبه
واجهد وجاهد واغنم الروح يافتى ... وحافظ على خمس من الله واجبه
فلا راس مال المرء إلا صلاته ... فان ضاع راس المال فالحال خاربه

كانت تربطه بحاكم الإحساء منيع بن سالم صداقة قوية وقد ذكره بقصائد كثيرة، وفي سنة مجدبة خرج منيع مع عدد من أصحابه إلى منطقة الصمّان التي كان ينزل بها الخلاوي، وعند اقترابه من مكان الخلاوي في ليلة شاتية أخبر منيع رفاقه بأنه سيتظاهر بوجود رمد في عينيه ويتلثّم عند وصولهم إلى بيت الخلاوي لينظر ماذا يصنع بضيوفه في تلك السنة الشهباء، وهل ما يدّعيه دائما من حرص على إكرام الضيف صحيح؟

وحين أناخوا حول بيت الخلاوي استقبلهم بالبشاشة والترحاب، وعمد إلى حلوب ابنه الصغير ليذبحها وليس لديه سواها. فتعلّق بها الطفل وأم الطفل لاعتماده في غذائه عليها فطردهما عنها وذبحها ليتمكن من تقديم القرى لضيوفه، وقد قال في ذلك:

يلوموني هلي وهذي طبايعي	ولوم الفتى عقب المشيب قبيح
يلوموني في طارش قد لفت به	من البعد فجا المنكبين مشيح
ياليت عين من منيع بن سالم	حضرتنا يوم الجنين يصيح
في ليلة شتوية هرمزيه	تلقى الشحم فوق الصّحون طفيح
إليا هبّت أنسام السعود على الفتى	فمليح وما حاشت يديه مليح
وإليا سكنت أنسام السعود عن الفتى	لو كان قصره من حديد يطيح

ومن بديع الحكمة قوله:

من عوّد العين الرقاد تعوّدت	ومن عوّد العين المساري تعاود
ومن عوّد الصبيان أكل ببيته	عادوه في عسر الليالي الشدايد
ومن عوّد الصبيان ضرب بالقنا	نخوه نهار الكون يا أبا العوايد
نعد الليالي والليالي تعدّنا	العمر يفنى والليالي بزايد
قولوا لبيت الفقر لا يامن الغنى	وبيت الغنى لا يامن الفقر عايد
ولا يامن المظهود جمعٍ يعزّه	ولا يامن الجمع العزيز الظهايد

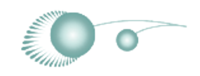
كان الخلاوي لا يكذب أبداً بل إنه يتحاشى حتى الاحتمالات التي قد توقعه في الكذب، لذلك أراد قوم أن يوقعوه في الكذب ولو مرة واحدة وذلك بعد رهان بينهم، فأعدوا خططاً لإيقاعه بالكذب فلم يفلحوا.

ومن ذلك أنهم احتالوا عليه فأخذوا يتهيؤون للرحيل، وكان من عادته أن يتقدم الظعينة فغادر موقعهم وهم على أهبة الرحيل، لكنهم بعد أن غاب عن أعينهم أقاموا في مكانهم ولم يرحلوا، ثم أرسلوا إليه من يسأله هل رحل القوم؟

فأجاب الخلاوي: «شدّوا ولا مدّوا ورأي البدو مراواه».

والشديد يعني التأهب للرحيل وحمل المتاع على ظهور الإبل، أما المديد فهو السير والتوجه إلى الجهة المقصودة.

ومرة أخرى ترقب هؤلاء منه ساعة جوع، فطلبوا من إحدى العجائز أن تعمل له طعاماً قليلاً وتدفعه إليه على أن تسأله بعد فراغه من الطعام عن مدى شِبعه!. وكان من عادة البدو أن لا يردّوا الإناء خالياً مهما كانت قلّة ما فيه. فلما سألته أبت مروءته أن يقول لمضيّفته: لم أشبع، ولو قال: شبعت؛ لكانت كذبة عليه. فسألته العجوز ثانية هل شبعت؟ فقال: ما أكلت خير، ولا أبقيت خير[1].



(١) للمزيد حول هذا العلم يُنظر كتاب راشد الخلاوي للعلامة عبدالله بن خميس، وكذلك كتاب راشد الخلاوي شاعر القرن الثامن ـ سعد بن عبدالله الحافي.

حماية الجار

قبيلة زعب من القبائل الكبيرة التي تنتشر في شبه الجزيرة العربية، منهم البادية، ومنهم الحاضرة، وتشتهر هذه القبيلة حسب سيرتها بشجاعة رجالها واتصافهم بالأخلاق الحميدة.

في إحدى السنوات نزلوا بأرض محمية لأحد الأشراف، وجاء رجاله ليبعدوهم عن الحمى فرأوا معهم إبلاً غريبة في ضخامتها وأشكالها. وحين أخبروا الشريف بذلك بعث وفداً إلى أمير زعب يطلب منه الإبل.

وبما ان الإبل كانت مملوكة لابن صبخي وهو جاراً لهم من قبيلة حرب فقد عرض عليه أمير زعب أن يبيعه الإبل، وأخفى عليه طلب الشريف خشية أن يكون قبوله البيع هيبة من الشريف وليس رغبة.

فأخبره الحربي بأنه لا يرغب في بيعها. فأعطاه عن الناقة ناقتين فرفض، ثم أعطاه عن الناقة أربعاً فامتنع أيضاً، وأخبرهم بعدم رغبته في التفريط بإبله المسماة الحيزا لأنها إبل نادرة ورثها عن أجداده.

عند ذلك أشعر أمير زعب وفد الشريف بأن الإبل لو كانت لأحد من قبيلة زعب لأرسلها معهم، ولكن صاحبها جاراً لهم وقد امتنع عن بيعها، وأرسل مع الوفد مندوباً ليعتذر للشريف عن تلبية طلبه، إلا أن الشريف رفض قبول العذر وأصر على إحضار الإبل.

وعندما بلغ الأمر هذا الحد أمر أمير زعب رجال قبيلته بالرحيل للخروج

من ديار الشريف، وسرعة التوجه إلى ديارهم، على أن يذهب هو مع عدد من الفرسان للتفاوض مع الشريف.

وعند مقابلته للشريف أخبره بأن إبل جارهم لن تأتي دون رضاه حتى لو هلكت قبيلة زعب عن بكرة أبيها في سبيل حماية جارهم.

فقال الشريف: إذاً أريد تسعين فرساً صفرا أي بيضاء اللون بدلاً عن الإبل التسعين.

فوافق أمير زعب على هذا الشرط، وغادر ديار الشريف. وبعد وصوله ومن معه إلى ديارهم أمر عبده بإشعال نار عظيمة ليلاً في قمة أحد الجبال العالية ليراها أفراد قبيلته.

وبعد أن رأى الناس النار على تلك الصفة علموا بوقوع أمر جلل، فتوجهوا إليها على عجل، ولم يكد يبزغ نور الفجر حتى كانوا مجتمعين لدى أميرهم، فأخبرهم بما حدث واستشارهم فآثروا بذل العطاء فداء لجارهم ومحبة في الوفاء له ليعيش بينهم مكرماً عزيزاً.

وبدأوا في جمع الخيل، وتنافسوا في تقديم أفضل ما لديهم، وبعد اكتمالها على الصفة التي طلبها الشريف وحلول موعد التسليم توجه نخبة من فرسان قبيلة زعب المدججين بالسلاح إلى الشريف وسلّموها له ومعها تكملة العدد الحصان شعيطان حصان مهوّس الزعبي المشهور بسرعته، وكان أغلى على مهوس من روحه، ولكنه جاد به حرصاً على إنهاء هذا الأمر وحفظاً لحقوق الجار.

وقد أكرمهم الشريف، ثم رد عليهم الخيل وقال: لابد من مجيء الإبل!.
وكان أمير زعب على جانب كبير من الدهاء والفطنة، فعلم أن الشريف يريد حربهم لا محالة.

وما هي إلا فترة وجيزة حتى أرسل لهم الشريف عدة فرق رجعت كلها مهزومة، بعد ذلك رأى الشريف أن يقود جيشاً بنفسه، واستعدت قبيلة زعب.

وحيث إن عدد جيش الشريف والقبائل المتحالفة معه يفوق عدد قبيلة زعب، فقد برز دور ما يسمى العمّاريات ويسميها البعض العطفة أو المجونح وهو الهودج الذي تركب فيه الفتيات أثناء المعارك للسير مع الجموع، بهدف تشجيع الرجال وإثارة النخوة والحمية فيهم ليقاتلوا بشراسة واستبسال، وانتهت الحرب بخسائر كثيرة للطرفين، واستطاعت قبيلة زعب حماية جارها وإبله.

وفى خضم هذه الحروب والغارات بين قبيلة زعب وشريف مكة وأحلافه كانت الحجاز وما جاورها بالنسبة لزعب ديار خطر، فكان فرسان زعب عند الرغبة في تنقل القبيلة يضعون ظعينة أهلهم تحت الحراسة، ثم يناوشون أعداءهم لإشغالهم أثناء رحيل الظعينة على أن يتبعوهم عند زوال الخطر.

وفي إحدى المرات كانت بنت الشيخ ابن غافل على ذلولها مع أهلها أثناء رحيلهم فنامت من شدة التعب والحذر، فانحرف ذلولها عن مسير الأظعان، وأخذ طريقاً آخر وهي نائمة لا تعلم بما يدور حولها، ولم ينتبه أهلها في بداية الأمر لضياعها، حيث إن رحيلهم كان بطريقة سريعة وحذرة لأنهم وسط

طرق الأعداء وأحلافهم.

وعندما أفاقت صُعقت حيث وجدت نفسها وحيدة في الخلاء وسط منطقة موحشة، فما كان منها إلا أن استمرت في مشيها حتى رأت عين ماء وبجانبها شجرة كبيرة، فنزلت من ذلولها، وضربته ليذهب بعيداً عنها، وتعمدت إخفاء أثرها، وقامت بترتيب مكان لها في أعلى الشجرة لتختبئ به عند مرور أحد.

وبعد مرور عدة أيام مر بالوادي قافلة فنزلوا قرب عين الماء للاستراحة، وأثناء ذلك رآها أميرهم وطلب منها النزول.

فقالت: لن أنزل حتى تعطيني عهد الله وميثاقه أن لا تمسني بسوء.

فأعطاها ما طلبت، وحين نزلت عرّفها بنفسه، وأخذها معهم إلى أهله، وبقيت معهم مدة فرآها ابنه فبهره جمالها وعقلها، فطلب من أبيه أن يزوجها له، فأنكر عليه ذلك وقال: إننا لا نعرف نسبها وهي لم تخبرنا، فأصر الولد على الزواج منها فتزوجها ورزق منها بولد أسماه سبّاع.

ومع نشأته بدأت تظهر عليه علامات تدل على علو همته، فقد كان اسماً على مسمى، لأنه فاق أقرانه بكل شيء؛ سواء بالصيد أو الفروسية أو السباقات التي يجريها أبناء البادية فغار منه بعض أقرانه فكانوا يذهبون لأهلهم يشتكون لهم تغلب سباع عليهم في كل شيء.

فقالت أم أحد الأطفال لابنها: اسأل سباع من هم أخواله؟ وبذلك سوف تحبطه، ولن يتغلب عليك.

فأخبر الولد أقرانه فأصبحوا يعيرون سباع بأن أمه لا نسب لها! وفي يوم من الأيام ذهب سباع مع أولاد عمه للصيد في مكان بعيد فمرّوا بموقع كانت تسكنه قبيلة زعب، فرأى قدوراً كبيرة وأحذية خيول كثيرة، وأنصال سيوف وتروس مهشمة وغير ذلك من آلات الحرب مما يوحي بوقوع حرب ضروس فيه.

وعند عودته أخبر والدته بما شاهده، ووصف لها المكان وجميع ما رآه، وكانت جالسة بين النساء فَجَرَتْ دموعها من عينيها، فلاحظ النساء تأثرها وغزارة دموعها، فأخبرن والد زوجها بهذا الأمر.

أما والد زوجها فقد كان حكيماً في تصرفاته رغم استغرابه الدائم وشكوكه بأن هناك ما تخفيه هذه المرأة الصموت! ومن شدة حنكته عمد إلى حيلة قد يكشف من خلالها سرها، فأمر بإحضار كيس كبير من القمح يحتاج طحنه بالرحى إلى ساعات طويلة، وطلب منها تجهيزه قبل بزوغ الفجر لأنهم سيخرجون للغزو.

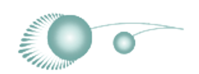
وكان هدفه أن تتهيض كعادة الكثير من النساء عند سماعهن لصوت الرحى لتقول ما في خاطرها، ثم جاء خفية من حيث لا تشعر وجلس وراء الخيمة ليسمع ما تقول!

وكان له ما أراد فتهيّضت بقصيدة على الطرق الهلالي ذكرت فيها كامل قصتها مع افتخارها بقبيلتها وأفعال أهلها.. والقصيدة طويلة جداً منها هذه الأبيات:

تهيضْت يا سبّاع لدارٍ ذكرتها ولا عاد منها إلا مواري حيودها
سبّاع أمّك تبكي بعينٍ حفيه ودموعها تحفي مذاري خدودها
ولكن وقود النار بأقصى ضميرها هاضَ الغرام و بيّحَ اللّه سدُودها
ولكن حجر العين فيها مليلة ولكن ينهش موقها من برودها
دمعٍ يشادي قربةٍ شُوشليّة بعيدٍ معشّاها زعُوجٍ قعودها
زِعبيّةٍ ياعمّ ماني هميه ولاني من الليّ هافياتٍ جدودها
أنا من زِعب وزعب إيلاَ أوْجَهوا على الخيل عجّلاتٍ سريع ردودها
أهل سربةٍ إليا أدْبرَت كِنّها مهجّرة وإنْ أقبلت كنَّ الجوازي وُرودها
إليا طاح طايحهم شوي ترايعوا تقول فهودٍ مخطياتٍ صيودْها
إليا صاح صيّاحٍ بالسّبيب اِفزَعواله عزيٍّ لغمرٍ ثبرَّت بهْ بلودها
لحقوا على مثل القطا يوم ورّد متغانمٍ عينٍ قراحٍ يرودها
خيلٍ تغذّى للبلا والمعارك ترهِب صناديد العِدا في طرودها
لا تلقّحونَ الخيل يا زعب ياهلي ترى لقاحَ الخيل يردي جهودها
جينا الشّريف بديرتِه وإلتقانا كلّ القبايل جامعين جنودها
طَلَبْ علينا الخُورهجمت قصيرنا مصمّل يبغي حنازيب سودها
يَامَا عطينا دونها من سبيّه تسعين صفرا حسبها ومعدودها
تمامهن شعيطان خيالة مهوّس أصايل صنع النّصارى قيودها
يقطع قبيلة ضفّها مايذرّي تشدي جمالٍ عظّها في بدودها
قصيرنا في راس عيطاً طويلة يحجى ذراها من عواصيف نودها
عيّوا عليها لابِتي واحتمُوها بمصقّلات مرِهفاتٍ حدودها
حَرَبنا والبنت نشوٍ بهامها لين استتمت واستوى زين عودها

خيلٍ تناحي خيل وتضرب بالقنا | مثل التهامي يوم أحلى جرودها
بنات عميّ كلّهن شقّن الخبا | بيضِ الترايب ناقضات جعودها
على الحنايا نقّضن الجدايل | سمرِ الذوايب كاسياتٍ نهودها
وجيههن مثل مزنةٍ عقربيّة | هلّت مطرها يوم حنّت رعودها
كل نهارَ الهوش تنخَى رجالها | ستر العذارى بالملاقى أسودها
لباسةٍ للدّرّع والطّاس باللقاء | على سروج الخيل عجل ورودها
مِن صنع داود عليهم مشالح | تجيبه رجالٍ مِن غنايم فهودها
ياما طعنوا في حربةٍ عولقيّة | شلف تلظى يَشرَب الدّم عودها
زِعب أهلَ المدح والمجد والثنا | من الربع الخالي للحجاز حدودها
إن أجْنبوا للصّيد منهم تحوّز | الرّبد والوضيحي والجوازي عنودها
وِان أشملوا تهجّ مِنهم قبايل | ودارٍ يجونها ضدهم مايرودها
نمرٍ تشادي للجراد التهامي | ماطاعوا الحكام من عظم كودها
لكن قرون الصّيد من خلف بيتنا | هشيم الغضا يدني لحامي وقودها
قنّاصنا يروح شريقٍ وينثني | ويجيب الجوازي دامياتٍ خدودها
وروّاينا يروى بيومه وينثني | ويجيب الجلادى لاحقاتٍ حدودها
وغزّاينا يروح بيومه وينثني | ويجيب العرابا ضايمتها ديودها
قِليبنا غزيرةَ الجمّ عيلم | ما ينشدون صدورها من ورودها
أشوف بالحرّة ضعون تقلّت | أبوي حمّاي السرايا يقودها
شفي معه صفرا تباريه عندل | مرٍّ يباريها ومرٍّ يقودها
أنا فتاة الحي بنت بن غافل | كم مِن فتاةٍ غرّ فيها قعودها
شرشوح ذودٍ ضاربٍ له خَريمة | ما ودّك يشوفه بعينه حسُودها

حوّلت من نظوى ورقيت سرحه   حطّيت لي عش بأعلى فنودها
جاني ركيبٍ ونوّخوا في ذراها   وشافني عِقيدَ القوم زيزوم قودها
قال حولي يابنت وأنتي بوجهي   ولا جيته إلاّ واثقة من عهُودها
أمرٍ كِتبه الله وصار وتكوّن   وسبّب علينا من الأَعادي قرودها
بحرب شِديدٍ ماتمنّاه عاقل   يعدّه اللي صاغر في مهودها[1]



---

(١) هذه القصة وردت في كتاب من القائل للأديب عبدالله بن خميس رحمه الله، كما ترددت في الكثير من المنتديات والمجالس - على اختلاف بين الرواة حول اسم الشريف وكذلك مكان وزمان المعركة.

عطية غبيني

حمدان بن عيد بن غبين أحد شيوخ الفدعان من قبيلة عنزة، عاش في القرن الحادي عشر للهجرة، وكان يملك حصان شبوة يسمى شقير. فطلبه منه ابن عريعر حاكم الإحساء آنذاك إعارة لكي يشبّي خيله فرفض حمدان أن يعيره الحصان. فتبرع أحد الرجال الذين اشتهروا بـ «حيافة الخيل» أي نهبها باحضار الحصان، وذهب إلى حمدان بن غبين وحل ضيفاً عليه في بيته يتحين الفرص لينهب الحصان. وكان حمدان حريصاً أشد الحرص على حصانه فيبقيه دائماً «محدد» أي مقيداً بنوع من السلاسل الحديدية، ولا يرمي مفتاحه أبداً من جيبه.

وبعد مضي مدة سنحت الفرصة لنهبه حيث إن حمدان رمى ثوبه الذي به المفتاح، ودخل في أحد غدران الماء ليستحم. فقام الحايف وأخذ مفتاح الحصان وفك حديده واعتلاه. وكان حمدان يشاهد الحايف، ولكنه يعرف أن الحصان لا يُلحق، لذا فقد أدرك أنه لا سبيل لرجوع حصانه إلا بقدرة من الله سبحانه وتعالى.

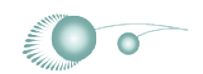
أما الحايف فإنه بعد أن أسرع بالحصان وهو يسابق الريح وقع من على ظهره فكُسرت ساقه، وعاد الحصان إلى حمدان، فركبه وذهب يقص أثره حتى وجد الحايف مكسوراً، فأخذه إلى بيته وبدأ في جبر كسره واعتنى به حتى جبر. ولم يسأله أبداً عن سبب نهبه للحصان، بل حتى إنه لم يعاتبه.

وحين جبرت ساق الحايف وعادت إليه صحته اعتذر من حمدان، وطلب منه السماح له ليعود إلى أهله بعد أن أخبره بكامل قصته، فأعطاه حمدان

الحصان الذي كان يحاول نهبه هدية منه لابن عريعر، فشكره الحايف وأخذ الحصان وتوجه إلى دياره.

وعندما حضر إلى ابن عريعر أبلغه بما جرى عليه من أحداث، وما كان من ابن غبين من مواقف كريمة، فأمره ابن عريعر أن يعيد (شقير) إلى صاحبه، وأرسل معه أحمالاً من الطعام والأمتعة والهدايا.

فذهب الحايف إلى حمدان وسلّمه الحصان مع الهدايا، فقبل الهدايا. أما الحصان فقد رفض إستعادته، وطلب من الرجل أن يرجع به ويسلمه لابن عريعر، ويخبره بأنه سيقتل ذلك الحصان إن أعادوه إليه، وقال له: قل لابن عريعر هو «عطية غبيني» لا ترد.



الشريف/ جبارة وابن عريعر[1]

الشاعر الشريف/ جبارة الصفار أبو حماد - رحمه الله - عاش في بداية القرن الثاني عشر الهجري، وكان مشهوراً بالجود والكرم.

مر به ضيف من أواسط نجد فأكرمه وبالغ في إكرامه، ولما هم بالرواح ملأ حقائبه مما تحت يده من الطعام، وكان هذا الضيف متجهاً إلى الإحساء، وحين قدومه لها صادف مأدبة دعا إليها حاكم الإحساء آنذاك ابن عريعر، فدعي هذا الضيف النجدي إلى تلك المأدبة.

وبعد فراغهم من الطعام قال له أحد الحاضرين: ما تقول في هذه المأدبة، وهذا القصر الجديد الذي أقيمت المأدبة بمناسبة سكناه؟

فقال الضيف: قصر جميل، ومأدبة فاخرة، وأمير كريم، ولكن الشريف جبارة أكرم.

قال: لماذا؟

قال الضيف: إنه يطعم عن قلة، ويملأ الحقائب بجهد المقل، أما ابن عريعر فهو كريم ابن كرام ولكنه ينفق من غمر، ويغترف من بحر.

فسمع ابن عريعر هذا الحوار وتاقت نفسه لرؤية الشريف جبارة لأن الكريم إذا قورن بغيره فأنه يرغب في لقاءه ومعرفته.

وبعد مدة قصيرة خرج الأمير ابن عريعر في جمع من حاشيته للصيد، وعندما اقترب من مكان إقامة الشريف جبارة توجه إليه وأناخ بمن معه أمام قصره، وكانت سنة شهباء، وزمنا مدقعاً، والشريف غائب عن بلدته.

---

(١) من أحاديث السمر ـ عبدالله بن خميس، وكذلك كتاب من آدابنا الشعبية في الجزيرة العربية، جـ ١، منديل بن محمد آل فهيد.

فرأت زوجته هذا الجمع الكبير على نجائب الإبل، وتفرّست من مظهرهم بأنهم أمراء أو وجهاء. فخرجت إليهم، واستقبلتهم، ورحبت بهم، واعتذرت عن غياب زوجها، ثم قدمت لهم القهوة، وبسطت أمامهم سفر الطعام، وقدمت التمر والسمن، وقالت: هذا الفال ويتلوه العقال.

وبما أن ضيافتهم تقتضي ما لا يوجد في بيت زوجها فقد انطلقت إلى بيت أهلها، وأخبرتهم بغياب زوجها ونزول هؤلاء الضيوف ذوي الشأن، وطلبت منهم المساعدة في إكرامهم.

فبادر أهلها إلى استياق ناقة كوماء أمامهم، وإلى تحميل الدواب بالبر والسمن والدقيق ومستلزمات الضيافة، وبعد مضي القليل من الوقت كان أبوها وإخوتها أمام الضيوف، وجعل المكان يضج بالحركة وعبارات الترحيب.

وفي تلك الأثناء قدم الشريف جبارة من سفره فرحب بضيوفه، واستقبلهم بالبشر والترحاب المعهودين عنه، والوجه الضاحك البشوش، والأسارير المنطلقة، والقصص الجميلة، والأحاديث العذبة. كيف لا!؟ وهو شاعر وراوية كما يعرف عنه.

وبعد أن قُدّم الطعام طلب من الضيوف الجلوس عليه، ثم قال لابن عريعر: هذه ضيافة أولادي، أما أنا ففي الغد إن شاء الله.

فعرف الأمير ابن عريعر أن كرم الرجل صحيح ولا مبالغة فيه! فاعتذر منه عن تلبية الدعوة وأخبره بأنهم سيغادرون البلدة حال انتهاء ضيافتهم.

وبعد أن تناول الضيوف الطعام بالغ الشريف لهم في الإكرام حتى رحلوا شاكرين ومكثرين من الثناء والحمد.

وقبل مغادرتهم، وفي غفلة من الشريف جبارة وضع ابن عريعر صرة كبيرة من المال تحت الفراش الذي يجلس عليه وغطّاها. وحين وجدها

الشريف جبارة بعد مسيرهم لحق بهم، وأقسم أن لا يأخذ منها شيئاً لئلا يتحدث الناس أنه اقتضى ثمن ضيافته.

فأخذها ابن عريعر، وحفظ له الجميل.

أما الشريف جبارة فأن أحواله المعيشية قد ساءت كثيرا فقرر مغادرة بلدته لطلب الرزق بعد أن ضاقت عليه السُبل، وأثناء غربته بعث إلى أصهاره قصيدة طويلة اخترنا منها هذه الأبيات التي يقول فيها:

يقول جبارة والركايب زوالف ... يدوّر الأريا أيهن خيار
ألاعي الورقا بالإبعاد بعدما ... غشى جفن عيني بالمنام وذار
كدّر عليّ بتالي الليل والف ... لها ضايع يوم الهجيج حوار
تحن اليهوديات من فقد ليلة ... عزّي لمن فرقاه بيع جمار
هذا وهي عجمى فياويل من له ... أولاد في سن الرضاع صغار
خلّفتهم في حجر بيضاء عفيفة ... كساها من الدل الجميل وقار
هذلية من روس قوم عنابر ... من منسب عالي وطيب جوار
صبور على عوباي ما يندرى بها ... إليا من مرّي فوق كبدي فار
ودي بدار من ورا ديرة العجم ... ودار ورا عين الدقيق بدار
أحب عندي من جلوس بقرية ... إليا احتجت للداني القريب وبار
لعل مال ما يمارى به العدا ... ولا ينفع المضيوم ليته بار

أوصيك خلان الرخى لو تزخرفوا كما شجر ورّق بغير أثمار
يبنون لك بالحكي كم من مدينة بالظاهري والباطني دمار
ترى الفقر لو قالوا لك الناس هيّن يهينك كما هان الهزيل فقار
ولا تنطح القالات إليا صرت معسر ترى الفقر يرث بالعظام فتار
رجل بلا مال له البعد راحه ومال بلا فضل غناته عار
مجالسك لمن ياجد ولا أنت بتاجد يزيدك عند الموجبات حقار
إليا نضت للجودا لكن عضودك عليها من القد الجويد وسار
ما تفتكر بالطير لا صار جايع تباطى سنا نور الصباح وطار
وصلوا على خير البرايا محمد عدد ما سعى ساعي الحجيج وزار

المهادي وجاره السبيعي

الشيخ محمد المهادي شاعر وفارس عاش في القرن الثاني عشر الهجري. وهو من الفضول من بني لام من قبيلة طيء من قحطان الكبرى، وقد نشأ بين قومه ميسور الحال، رفيع الجاه، حل ضيفاً على قبيلة سبيع، وقوبل بالحفاوة والتكريم، وطاب له المقام.

وفي أحد الأيام ذهب إلى المكان الذي تجلب منه القبيلة المياه فرأى فتاة تتحلى بجمال فتان سحرت عقله، وسلبت لبّه، فاحتار في أمره.

وبعد طول تفكير قرر أن يطلب من أحد أفراد قبيلة سبيع مساعدته في هذا الأمر، فبدأ يتوسم الرجال، فرأى في مفرج العماني السبيعي ملامح الرجولة والنخوة والشهامة فأخبره بقصته مع الفتاة التي شغلت تفكيره وأبدى رغبته في الزواج منها، وأنه بحاجة إلى مساعدته لكي يتم هذا الزواج. فوعده مفرج خيراً، وطلب منه أن يدله عليها ليتسنى له معرفتها ويتمكن من مساعدته في طلبها من أهلها.

وعند الصباح رآها المهادي ذاهبة إلى الماء، فأخبر مفرجاً بذلك، وأشار بيده إليها، فما كان من مفرج بعد أن عرفها إلا أن طلب منه مهلة يومين حتى يكلم والدها في الموضوع. وبعد يومين أتى مفرج إلى المهادي ليخبره بالموافقة، وتمت الاستعدادات للزواج.

وفي ليلة الدخلة رأى المهادي تلك الزوجة تبكي بحرقة وألم، فسألها عن سبب بكائها بعد الموافقة في البداية على هذا الزواج، فأخبرته أنها قد

وافقت ووافق والدها أيضاً مجبرين على هذا الأمر نزولاً عند رغبة مفرج، حيث إنها ابنة عم له وكل منهما يحب الآخر. وكانا على وشك الزواج، ولكنه تنازل له عنها وآثره على نفسه لأنه ضيفه، كما أن شهامته تأبى عليه رد من يطلب مساعدته. فكبُر هذا العمل في عيني المهادي كما كبُر الرجل في نظره، وقال للفتاة: إنك من الآن مثل أختي، فلا تخافي ولا تحزني، وسوف ترجعين إلى ابن عمك.

وبعد عدة أيام أراد المهادي الرحيل، فأخبر والد الفتاة بطلاقها، وطلب من مفرج أن يزوره في دياره. كما أكد عليه أن لا يتردد في القدوم إليه إن هو احتاج إلى شيء من لوازم الدنيا ليرد بهذا جزءاً من معروفه، وجميل فعله الذي لن ينساه، ثم رحل المهادي وتزوج مفرج من ابنة عمة وأنجب منها أولاداً.

وبعد سنوات أصاب ديار مفرج وجماعته القحط، وأصبحت قاحلة، واحتاروا إلى أين يذهبون!؟ وحينها تذكر مفرج صاحبه المهادي، فشد الرحال إلى دياره حيث استقبله بكل حفاوة وتكريم، وأمر زوجته أن تخرج من بيتها وتتركه بما فيه لضيوفه.

وفي المساء أخبرت زوجة المهادي زوجة مفرج بأن لها ولداً اعتاد على النوم في فراشها، وأنه قد ذهب صباحاً للصيد، وقد يأتي متأخراً، فإذا أتى فلتخبره بانتقال والدته إلى البيت الآخر. فبقيت زوجة مفرج ساهرة في انتظار عودة هذا الولد ولكن النعاس غلبها فنامت قبل حضوره، فأتى ابن المهادي على عادته ولم يلاحظ أي تغيير في الأمور فدخل في الفراش ونام في طرفه معتقداً أن التي بداخله هي أمه.

أما مفرج فقد كان في ذلك الوقت عند صاحبه المهادي يتسامران حتى وقت متأخر من الليل، فلما انتهى السمر ذهب مفرج إلى أهله، وحين دخل البيت صُدم عندما رأى رجلا نائماً مع زوجته في فراشها فسل سيفه وقتله في الحال.

فاستيقظت زوجته مرعوبة وقالت له: ذبحت ولد جارك. وأخبرته بالقصة وأنها السبب، فلو لم تنم لما حدث هذا الشيء، فندم على ما فعل وحزن كثيراً، ولكنه قد فات الأوان. عندها ذهب إلى جاره المهادي وأخبره بما حدث، فهدّأ المهادي من روعه، وأخبره بأن هذا قضاء وقدر، ثم أخذ ابنه المقتول ووضعه في ملعب بنات الحي.

وفي الصباح جمع قبيلته وأخبرهم بأن ابنه قد قتل في ملعب بنات الحي ولم يُعرف من قتله، وبذلك فإن دمه سيكون مفرقاً على القبيلة كلها، وأن عليهم دفع الدية المسماة «الغشيّا» وهي أن يؤخذ لولي الدم من كل بيت ناقة. فامتثلوا أمره، وجمعوا تلك الدية، والتي بلغ عددها ثمانين ناقة وأعطوها له، فأعطاها بدوره جاره مفرج الذي أتى وليس معه حلال أو مال. واستمرت جيرتهم عدة سنوات تجمعهم المعزة والكرامة والاحترام.

وكان لمفرج ثلاثة أبناء بدأ أصغرهم في مضايقة ابنة المهادي التي كانت على قدر عالٍ من الجمال والأخلاق محاولاً النيل منها، فكانت تردعه وتهدده بإخبار والدتها، وبعد فترة من الزمن أخبرت والدتها بهذا الأمر.

فقالت الأم: اصبري يا ابنتي فإنهم جيران، وابتعدي عنه، وهدديه. فإن لم ينفع ذلك معه فسوف أخبر والدك.

لكن الفتى استمر بهذا السلوك الشائن، فقامت زوجة المهادي بإخباره

حيث طلب من ابنته عدم السير وحدها، والابتعاد عن طريق الفتى قدر المستطاع لعدم رغبته في مضايقة جاره. ومع مرور الوقت زاد الفتى في تحرشه، فخشيت البنت من وصوله إليها، فأخبرت أباها بذلك.

فذهب المهادي في المساء إلى جاره مفرج، وكان من عادتهما في بعض الأحيان اللعب بإحدى الألعاب القديمة التي تسمى «الدامة»، وهي لعبة تتطلب نقل وتحريك أدواتها بين حين وآخر، فبدأ المهادي يلمّح لجاره بالرحيل بصورة لطيفة وغير مباشرة، ففي أثناء لعبهم أخذ يقول عند دوره بالحركة «ارحل يا جار من ديارنا وإلا رحلنا»، ثم كرر تلك العبارة عدة مرات، وبعد أن عاد المهادي إلى بيته بقي مفرج في مكانه متفكراً في أسباب تكرار المهادي لتلك الكلمات على غير عادته! فأيقن أن جاره قد مسّه ضر من جيرته، وأن في الأمر سراً لا يعرفه.

وعند الصباح طلب مفرج من زوجته تجهيز نفسها والاستعداد للرحيل، ثم ذهب إلى جاره المهادي ليستأذن منه، ولكنه تفاجأ بأنه لم يعارض رحيله أبداً حتى إنه لم يسأله عن الأسباب، وإنما أوصاه فقط بالسلام على جماعته.

فرحل مفرج وظل طوال الطريق مشغول البال، دائم التفكر، يستعيد كل الأحداث لعله يجد ما يبرر نفور المهادي منه ورغبته في رحيله عنه. وبعد أن ابتعد عن منازل المهادي أمر زوجته وأولاده بالتوقف في أحد الأودية للراحة، وعندما حل الظلام ونام أفراد عائلته تسلل منهم، وذهب خفية إلى بيت جاره المهادي، وحين اقترب من مجلسه رآه جالساً وحده بجانب النار يحتسي القهوة، فاختبأ قرب البيت لعلمه أن صاحبه سيقول شيئاً بعد رحيله عنه، وبعد مضي بعض الوقت شرع المهادي في قصيدة طويلة اخترنا منها هذه

الأبيات:

يقول المهادي والمهادي محمد ... به عبرة جمل الملا ما درى بها
انا وجعتي من علّة باطنية ... بأقصى الضماير مدري وين بابها
تقد الحشا قد ولا تنثر الدما ... ولا يدري الهلباج عما لجا بها
إن أبديتها بانت لرمّاقة العدا ... وان أخفيتها ضاق الحشا بالتهابها
ثمان سنين وجارنا مجرمٍ بنا ... كما اللي وطا له جمرة مادرى بها
وطاها بعرش الرجل لو هي تمكنت ... من حرّها ما يبرّد الماء التهابها
ترى جارنا الماضي على كل طلبة ... لو كان ما يلقا شهودٍ غدا بها
وياما احتظينا جارنا من كرامة ... في ليلة غدرا ولا أحد درى بها
نرفا خمال الجار لو داس زلّه ... كما ترفا بيض العذارى ثيابها
الاجواد وان قاربتهم ما تملّهم ... والأنذال إن قاربتها عفت ما بها
الاجواد وان قالوا حديث وفوا به ... والأنذال منطوق الحكايا كِذّابها
والاجواد مثل العد من ورده ارتوى ... والأنذال لا تسقي ولا ينسقى بها
الاجواد تجعل نيلها دون عرضها ... والأنذال تجعل نيلها في رقابها
الاجواد مثل الحوطه المستقلة ... حطبها وماها والذرا ينلقى بها
الاجواد صندوقين مسك وعنبر ... إليا فتحت أبوابها جاك ما بها
الاجواد مثل البدر في ليلة الدجا ... والأنذال ظلما تايهٍ من سرى بها
الاجواد مثل الدر من شمّخ الذرا ... والأنذال مثل الشري مرٍ شرابها
الاجواد وان حايلتهم ما تحايلوا ... والأنذال أدنى حيلةٍ ثم جابها

الأنذال وان غسّلوا يديهم تنجست — نجاسة قلوبٍ ما يجوز الدوا بها
يارب لا تجعل بالأجواد نكبة — من حيث لا ضاع الضعيف التجا بها
لعل نفسٍ ما للاجواد عندها — وقار عسى ما تهتني في شبابها
عليك بعين العد لا جيت وارد — وخل الخباري فان ماها هبابها
محا الله عجوزٍ من سبيعٍ لعامر — ما علّمت وغدانها في شبابها
لها ولد ما حاش يوم غنيمة — حذا كلمة عجفا تهزّى وجابها
انا اظن دارٍ شد عنهاً مفرج — حقيقة دار الخنا في خرابها
فتى ما يظم المال الا وداعه — ولو يملك الدنيا جميعٍ صخابها
فتى يذبح الكوم المسمّن وحايل — ولو قيل يكفي زادها ما غدا بها
تمت وصلى الله على خير البرايا محمد — عدد ما لعى القمري بعالي هضابها

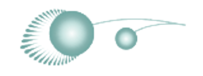
وبعد أن سمع مفرج قصيدة المهادي فهم مجمل الوضع، وعرف أن أحد أولاده قد ارتكب فعلاً غير لائق يمس محارم جاره المهادي.

فعاد إلى أهله وعند الصباح جلس معهم بعض الوقت، ولشدة حرصه على استجلاء حقيقة الأمر اختلى بابنه الأكبر، ثم بدأ الحديث معه عن مغامرات الشباب، وما يفعله بعضهم في سبيل النيل من الفتيات مشيراً في حديثه إلى وجود بنت لدى جارهم المهادي على قدر عال من الجمال، ثم استوضح منه عن مدى محاولته كسب ودها والارتباط بأي علاقة معها، فما كان من الابن إلا أن استنكر على والده هذا الكلام لأنه يتنزه أصلاً عن تلك الأفعال، إضافة إلى أنه يعتبر ابنة الجار بمثابة الأخت.

بعد ذلك اختلى مفرج بابنه الأوسط الذي كان كأخيه نزيه العرض بعيداً عن الخنا، وأما الابن الأصغر فحين اختلى به أبوه وقال له مقولته لأخويه ظن أن والده يقر مثل هذا الأمر فاعترف بفعلته الدنيئة متبجحاً بما ارتكب، ثم أخبر والده بأنه كان على وشك الإيقاع بتلك الفتاة رغماً عنها!.

وبعد أن انتهى الابن الأصغر من قصته قام مفرج مسرعاً وسحب سيفه وقطع رأس ولده وفصله عن جثته التي تركها في مكانها، وعاد لأهله بالرأس، ووضعه داخل كيس من القماش، وأمر أحد أبنائه أن يحمله إلى المهادي، وبعد أن يسلم عليه يرمي الرأس في حضنه ثم يعود دون كلام!

وبالفعل دخل الولد مجلس المهادي، وفعل ما أمره به أبوه، وبعد أن شاهد المهادي الرأس تعجب أيضاً لصنيع مفرج، فهذه هي المرة الثانية التي يغلبه فيها بكرمه المقرون بالوفاء والإيثار. فيقال: إنه قد لحق به، وأقسم عليه أن يعود معه حيث بقيا معاً متجاورين متحابين.



محمد الفهيد(١)

محمد بن فهيد الفهيد من الأساعدة من قبيلة عتيبة هو القائل:

العمر يفنى والتجـايـر شـــتاتي   والمجد يبقى والثنا للأجـــاويد

قام في عام (١٢٠٣هـ - ١٧٨٩م) بحفر العين الشهيرة الواقعة إلى الشرق من مدينة بريدة بالقصيم، ولكون ذلك المكان يقع على مفترق الطرق، فقد أصبح بيته مقصداً ومناخاً للضيوف، فكان يبذل قصارى جهده في إكرامهم ومساعدتهم، فاشتهر بين الناس وذاع صيته.

وفي إحدى السنين نزل عليه الشيخ مهلهل بن منديل الهذال شيخ قبيلة عنزة الذي ظل قاطناً على العين طوال فترة الصيف، فكان بينهما محبة وصداقة، وعندما نزلت الأمطار وتفرقت القبائل لطلب المرعى نزل الشيخ مهلهل في مكان يسمى ملج ونطاع، وكان بجوارهم صاحب مزرعة لا يسمح لأحد بالاقتراب منها؛ حتى إنه كان يطرد العصافير والحمام من مزرعته، حينها تذكر الشيخ مهلهل صديقه محمد بن فهيد، فقال قصيدة يمدح بها خصال صاحبه، وما كان عليه من كرم أخلاق ولين جانب، ويلاحظ شغف الشيخ مهلهل بالكرم والكرام، وكذلك مذمته للبخل في البيت الأخير من القصيدة التي يقول فيها:

ياذا الحمام الي على ملج ونطاع   بالله عليك انحر امام المصلّي
تلقى محمد باسفل السيح زرّاع   قـرم إليا جوه النشاما يهلّي
حيـل تقدم والمعاميل شـراع   وسوالف عن كل هـم تسلّي
لادبـّر الوزنه ولا كال بالصاع   متمعني بـه واحـد ما يخلّي
ومناسف يرمى بها زين الانواع   يلحق بها راع الهزيل المتلّي
الصيت لولا فاعل الجود ما شاع   ولا سـاد في قـوم بخيل مذلّي

---

(١) من آدابنا الشعبية في الجزيرة العربية جـ ١ ـ منديل بن محمد آل فهيد.

وحين وصول القصيدة إلى محمد بن فهيد رد عليه بهذه الأبيات:

ياراكب مـن عندنا فوق مطواع   يشبه لدلو مع شفا البير زلّي
تلقى مهلهل ساكنٍ ملج ونطاع   زبن الحصان الدوبلي كان خلّي
شيخ الشيوخ اللي يفكون الاقطاع   وزبـن الدخيل إليا لفاهم مذلّي
ياستر من حط الخواتم بالاصباع   بالذكر والا شوفهن ماحصل لّي
سلم عليهم عـد ماهب ذعـذاع   وعـداد ماخيّل سحابٍ وهلّي
افرح إليا قيل اقبلوا والسلف زاع   هـذا منـاي وخاطري يسفهلّي
وان كان قيل اقفوا ترى القلب ينلاع   اخوان بـتلا قربهم ما يملّي
الرابح اللي مخلص للولي طاع   اعمل وتلقى مـن دقـاق وجلّي

ومن القصص التي تروى عنه أنه احتاج ذات مرة إلى بعض غريس النخيل فتوجّه مع عدد من أصحابه لإحضار الغريس من بلدة قصيبا، وأثناء رحلتهم نزلوا للراحة وتناول طعام الغداء الذي كان عبارة عن قرص من الخبز مفروك بالسمن، وكان بقربهم فتاة ترعى أغنامها، فقدموا لها قطعة من القرص لكنها رفضته، فتركوه لها على شجرة قريبة وغادروا المكان.

وبعد مدة رجعوا من نفس الطريق فوجدوا قطعة الخبز في مكانها لم تتحرك، فتعجب ابن فهيد من عزة نفس الفتاة وشيمتها مما يدل على أنها من بيت رفيع. فسأل عنها فأخبروه بأن اسمها مطيرة، وهي إحدى بنات ابن سبيلة، وهو من عبدة من قبيلة شمر، فخطبها من أبيها وتزوجها.

وبعد انتقالها إلى منزل زوجها رأت منه كرماً يفوق الوصف، وسرعان ما عرفت نفسيته وطبائعه معرفة تامة، فإذا جاءهم ضيوف أرسلت أحد

العبيد ليعرف كم عددهم، ومن يكونون، ومن زعيمهم!؟ وتضع لهم على قدر مكانتهم دون الحاجة إلى توجيه.

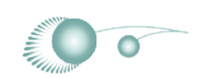
اما زوجها فيكون عشيراً لضيوفه يؤانسهم بالأحاديث الشيقة والأخبار المسلية، ولا يتحرك من مكانه لعلمه أنها ستقوم باللازم دون أي توجيه منه.

وفي أحد الأيام نزل عليه زامل بن سليم من أمراء عنيزة ومعه عدد كثير من الرجال، فاستقبلهم بالبشر والترحاب وجلس معهم، علماً ان الوضع في هذه المرة مختلف تماماً حيث إن العدد كثير، والرجال يتتابعون في الوصول مما يتطلب قيام المُضيّف بالإشراف على إعداد ضيافتهم بنفسه، في حين أن ابن فهيد بقي معهم طيلة الوقت، ولم يتحرك أبداً من مكانه حتى أشعره العبد بأن العشاء جاهز، فمشى مع ضيوفه إلى مكان الطعام الذي تم إعداده بما يتناسب مع مكانة ابن سليم والجموع الكثيرة التي حضرت معه.

وبعد عامين مر ابن سليم ومعه خمسة رجال فقط، ونزل على ابن فهيد فرحب بهم وجلس معهم، ولكن في هذه المرة اختلف الوضع فقد ترك مكانه في المجلس ودخل إلى البيت عدة مرات، فاستغرب ابن سليم كثرة دخوله وخروجه على غير عادته، وتوقع أن أحواله قد ساءت أو أن ضائقة قد حلّت به.

وبعد أن أكرمهم وحان وقت رحيلهم خلا به زامل بن سليم وسأله عن أحواله مبدياً كامل استعداده لمساعدته، فأخبره ابن فهيد بأنه في أحسن الأحوال، ولكن زوجته الأولى التي تحسن التدبير قد توفيت، ثم قال هذه الأبيات:

اطلب عسى الجنة منازل مطيرة ... حيث ان بها طبع على البيض ماصار
ما معجبن زينه ولو هي نظيرة ... قصدي تتومسني اليا جون خطّار
مع زينها الوافي بها زود سيرة ... دبره وعِرف وكل شي بمقدار
لاجو على هجن من أرض الجزيرة ... تعومسوا عنهم ردييـن الأشوار
أن جيت للمطبخ ايلا فيه نيرة ... تلقى الحطب عندها تقل شغل نجار
ماهيب مثل هالدعلة المستديرة ... يجي العتيم وطامي القدر ما فار
يدلاك وين اللي خطاهم قصيرة ... من جيّته ما قط طلعت من الدار
ياعنك مايسمع نباها قصيره ... ولا قط شفت الغيظ منها والاكدار
الا ومع قصرة خطاها ستيرة ... جتنا وراحت ما سمع صوتها الجار



كرم حاتمي

راشد بن علي بن راشد آل علي من المعاضيد من الوهبة من قبيلة بني تميم كان يسكن مع جماعته وإخوانه في منطقة جنوب قطر تسمى الزور، عُرف بالكرم الحاتمي، وكانت له مواقف كثيرة مشهودة في هذا المجال.

في أحد الأيام أُصيب بمرض فذُكر له أن علاج مرضه في بلد مجاور، فعزم على السفر للعلاج، وكان رجلاً معروفاً في بلاده، كما يعتبر أحد كبار جماعته، وله صيت وسمعة طيبة.

وعندما وصل تلك البلاد لم يعرفه أحد، ولم يجد الاستقبال الذي يليق بمكانته، فتضايق كثيراً وتشوق إلى أهله وجماعته، وفي أحد الأيام قال قصيدة منها هذه الأبيات:

يا أبـــوي أنا من ديرة الحد مليّت ديرة سعال وديرة الحضـــــر توبي
ياليت من شـــــدّة ركابه وياليت جدوى سهيل وناحــــرات الجنوبي
وابني مثاليث إلى مــــــن تحلّيت ومشيـداتٍ بين ذيـك الوعـــــوبي
وإليا من تحنحن خاطر الليل فزّيت وذبحت له من كل حـــــايل عجوبي

وبعد أن تم علاجه ومنّ الله عليه بالشفاء من مرضه، عاد إلى بلاده، وتناقل الرواة أبياته، ووصلت إلى مسامع بعض وجهاء البلد الذي تعالج فيه، فاتفق سبعة رجال منهم على السفر إلى ديار راشد بهدف اختباره، ومعرفة مدى صدقه في بيته الأخير الذي يقول فيه:

وإليا من تحنحن خاطر الليل فزّيت وذبحت له من كل حايل عجوبي

وفعلاً ركبوا إحدى السفن وتوجهوا إليه، ونزلوا في ناحية منطقة يقال

لها بـروق، وركبوا بعد ذلك ظهور المطايا واتجهوا إلى الـزور حيث يسكن راشد، وصادف الوقت الذي وصلوا فيه نزول المطر بغزارة، والظلام في الليل دامساً، وكان وصولهم وقت السحر، فكان راشد مستيقظاً وجالساً في صيوان بيته، وعندما رآهم فرح بقدومهم وأسرع ناحيتهم مرحباً بهم، وهش وبش في وجوههم من غير أن يعرفهم، وأدخلهم المجلس، وأخذ يكثر لهم الترحيب، ثم قدّم لهم القهوة، وبعد فصلين من القهوة قدم لهم كرامتهم، وكانت عبارة عن سبع ذبائح سمان لكل واحد منهم ذبيحة.

فتعجب القوم من كرم الرجل الذي فاق توقعاتهم، وعندما دعاهم راشد للأكل من طعامه، قالوا له: لا نأكل من طعامك، ولا نذوق منه شيئاً حتى تلبي طلباتنا، وتقول لنا: تم!. فقال: تم !

قالوا: لنا طلبان، الأول أن لا تلحقنا بقصيدة فنحن قد جئنا إليك بقصد امتحانك.

فقال: حياكم الله تم طلبكم الأول، فما هو طلبكم الثاني؟

قالوا: طلبنا الثاني أن نعرف كيف أمكنك طبخ عشائنا في هذا الليل المطر؟ وكيف أشعلت النار في الخشب المبلول؟

فقال: إن في هذه المنطقة من جماعتي أربعين بيتاً، وقد أخذت من كل بيت عموداً من أعمدتها، فجمعت أربعين خشبة، أوقدت فيها النار وعليها طبخنا عشاءكم أيها الضيوف الكرام! [1].

---

(١) تم نقل القصة (بتصرف يسير) من كتاب/ من أفواه الرواة - علي بن عبدالله الفياض.

خلف بن دعيجا

حين يُذكر الكرماء يتردد اسم الشاعر والفارس الشيخ خلف بن محمد بن دخيل اللّه بن دعيجا (مهودي على رؤوس الفطّر) وهو من فخذ الحلسة من قبيلة الشرارات الذي كان يتحلى بجود فيّاض وكرم نادر.

حدثت له قصة مشهورة من قصص الضيافة وهي انه كان مرتحلاً مع جماعته إلى موقع آخر، وفي طريقهم نزلوا للإستراحة بأرض تسمى بسيطاء وهي أرض جرداء منبسطة تقع إلى الغرب من منطقة الجوف لا حجر فيها ولا شجر إلا بضع شجيرات لا تصلح ان تستخدم في إيقاد النار.

واثناء ذلك نزل ضيفاً عليهم أحد كبار شيوخ قبيلة شمر وهو الشيخ/ فارس الجربا مع جمع كبير من رجاله، فاستقبله خلف بالبشر والترحاب وبدأ اهله في اعداد وليمة تليق بهؤلاء الضيوف مع وجود صعوبة في ذلك لأن الأرض خالية من الحطب، كما انها أرض سهلة لا يوجد فيها احجار كبيرة يمكن استخدامها لنصب القدور.

ومن توفيق اللّه أن تاجراً من أهل القبيسة كان يرافق خلف ومعه أحمال من الأقمشة، فاشترى منه خلف طاقات من القماش الخام وقام بذبح عدد من الإبل، وجعل رؤوسها هوادي أي أثافي للقدور، بعد ذلك عمد إلى أسنمتها ووضعها في القدور وأوقد عليها من يابس العشب وبعض الأعواد الصغيرة حتى ذابت شحومها وأصبحت دهناً، فغمس فيه خام القماش ليكون بمثابة الفتيل وأشعل به النار.. وبذلك تمكنوا من تجهيز طعام الضيافة.

والشاعر عايد بن رغيان الشراري يقول مفتخراً بتلك القصة وبكرم قبيلته:

إن كنت تطعن في كرمنا عساني ... اشرح لك الموضوع في بعض الاوجاب
مار انشد الجربا كبير الأواني ... جد أبو خوذه في عطاياه وهّاب
هوشاف ببسيطاء كبار الصياني ... البل كبار الروس من عوج الارقاب
تسعٍ سداسيات شقحٍ سماني ... وتسعٍ رباعيات وايدامهن راب
لا من حطب في جرهداً سبسباني ... ولا من هوادي مير للقدر مركاب
قدورٍ من المصنع حلقهن ثماني ... من كبرهن ما نزّلن عند رباب
تبرك بهن هنف الخشوم بركاني ... ترفع بكلابٍ وتوضع بكلاب
تركب على روس النياق المقاني ... مثل الهضاب ونارهن سمن وثياب
خامٍ من الطابات دون ذرعاني ... يرمى على وسط اللهب واللهب شاب
النار زادت بالظلام شعلاني ... وخام العقيلي يشتعل دون شباب
فقيرنا لو هو من الفقر واني ... للنار شبّاب وللسمن صبّاب
طبع الكرم يفتق عليه العراني ... للزاد بذّالا وللدر حلاب

مشعان ابن هذّال

الشيخ/ مشعان بن مغيلث بن منديل الهذال هو شيخ شيوخ قبيلة عنزة في زمانه، مات مقتولاً عام (١٢٤٠هـ - ١٨٢٥م) في بلدة الشماسية بمنطقة القصيم، كان ممن يضرب بهم المثل في الشجاعة والفروسية والكرم إضافة إلى إجادة الشعر حيث كانت قصائده تحوي الكثير من الوصايا والحكم.

في أحد الأيام جاء إليه مبعوث من قبل والي مصر عباس باشا يعرض شراء فرس يملكها من فصيلة «كحيلان كروش» لقاء مبلغ مالي كبير، وفي نفس الليلة جاءه رسول حاكم البحرين الشيخ محمد بن إبراهيم آل خليفة يطلب الفرس ذاتها.

فأفادهم الشيخ مشعان بأنه سيخبرهم بقراره في صباح اليوم التالي، ثم استشار بعض من حوله فأشاروا عليه أن يبيع الفرس لوالي مصر مع إهداء حاكم البحرين فرساً أصيلة أخرى من نفس الفصيلة. لكن مشعان لم يعجبه هذا الرأي لأنه بعد التفكير قرر أن يهدي تلك الفرس دون مقابل لابن خليفة لأن صلته به قريبة.

وحين علم الشيخ محمد آل خليفة بما حدث أرسل إلى مشعان يدعوه إلى زيارته في البحرين، وهناك أكرمه غاية الإكرام، وأهدى له عدداً من الخيل وأطايب الإبل.

وعندما غادر الشيخ مشعان البحرين حمَّل معه الحاكم سفينتين مليئتين بالهدايا والمؤن، فقام مشعان بإرسال إحداهما إلى الإحساء هدية

منه للشاعر مهنا بن حسين أبو عنقا الخالدي الذي كانت تربطه به ألفة وصداقة.

ومن القصص التي تروى حول وفاء الشيخ مشعان لصديقه مهنا أبو عنقا أن الأخير حين كبر وضعف بصره ساءت أحواله، فعلم مشعان بذلك. فزاره رفق عدد من جماعته. وحين وصلوا إليه حرص مشعان ان لا يعرفه مهنا في بداية اللقاء فتلثم بدعوى إصابة عينيه بالرمد، وذلك حرصاً منه على عدم إحراجه، خشية من تكلفه في الضيافة رغم سوء حاله.

أما مهنا الذي لم يكن يملك ما يقدمه لضيوفه فقد ذهب بعد الترحيب بهم إلى أحد جيرانه يطلب منه قهوة ومالاً لشراء ذبائح الضيوف ومستلزماتهم، فأعطاه جاره القهوة وطلب منه إمهاله لبعض الوقت ليتدبر أمر إحضار المال، وبعد مغادرة مهنا ذهب هذا الجار الشهم لزوجته وطلب منها أن تذهب إلى جارتها زوجة مهنا لمساعدتها في إعداد طعام الضيوف، وبعد خروجها أخذ مصوغاتها الذهبية فرهنها، ثم أرسل المال إلى مهنا الذي استطاع بهذا المال شراء عدد من الذبائح وتقديم الطعام لضيوفه، وفي الصباح غادر مشعان بعد ان وضع صرة من المال في الصندوق الذي يحفظ فيه مهنا حاجاته، وعندما وجد مهنا المال قام باقتسامه مع جاره الكريم.

وهذه أبيات من قصيدة للشيخ مشعان يحذر فيها من مصاحبة الرجل رديء الأخلاق يقول فيها:

يا بايع جوخٍ على غير أهاليه　　مثل الذي ينزل بقصرٍ خرابه
لو يدهجه وبل الثريا ويسقيه　　ويمطر بياقوتٍ ومسكٍ سحابه
ما ينبت النوّار لو سال واديه　　صبخا وجفجافٍ هيارٍ جنابه
ولد الردي لو طاب لك لا تماشيه　　يومين والثالث يبين الردى به

ويتحدث الشيخ مشعان في قصيدة أخرى عن مذمة الدنيا ويخبر عن لذاتها الحقيقية وهي في نظره امتلاك الخيل والإبل مع بيت كبير بالإضافة إلى القدرة على إكرام الضيوف منها هذه الأبيات:

يقول ابن هذال رسم على رف　　قيلٍ عسير وتو بيته جديدي
يا قلب ياللي بين الاضلاع يهتف　　كما يهف النود خضر الجريدي
وإليا تزفر باحتماله كما دف　　دف تعاطت به سكارى العبيدي
يا الله ياخلاق صف ورا صف　　أحدٍ دريك الروح واحدٍ وليدي
ترحم مشقى ضامه الضيم واشتف　　دنيا تعللني جذا الحبل بيدي
لو ان جمع المال في قوة الكف　　واللّه لأروي حد شطر الهنيدي
أول شفاة القلب جيش يردّف　　ببلاد ابن هذال يوم الوكيدي
وبيت كبير كنه الجبل مزتف　　منارته تجذب عليه البعيدي
نفرح إليا جونا هل الفطر الهف　　إليا نوخوا يومٍ علينا سعيدي

الجود بأكثر من الموجود

الشيخ/ محمد بن رفيع بن خضر الوابصي أحد مشاهير قبيلة بلي الكريمة، كان من المشهود لهم بالكرم رغم قلة ما في يده في بعض الأوقات لصعوبة المعيشة في الأزمنة السابقة.

كان رحمه الله يسكن بوادي النجد والذي يقع شرق قرية بداء بمنطقة تبوك، وفي إحدى الليالي جاءه ضيوف وكعادته استقبلهم بالترحيب والحفاوة، وبعد جلوسهم وتناول القهوة استأذنوه بالانصراف ولكنه أمتنع عن السماح لهم بمواصلة طريقهم دون أن يتناولون طعام العشاء، فاستجابوا له.

وكان حينها لا يملك ولو شاة واحدة من الغنم كما أنه لا يملك حتى قيمتها، وكان له جارة عجوز لديها بعض الأغنام، فقرر ان يذهب اليها لشراء ذبيحة لضيوفه بثمن آجل، وبعد إلحاح منه عليها اشترى منها ذبيحة بثلاثة ريالات، وقدم العشاء لضيوفه وسارت أموره تلك الليلة على خير ما يرام.

وفي صباح اليوم التالي جاءه ضيوف آخرين فرحب بهم ودعاهم لتناول الغداء فاستجابوا له، عندئذ أخذته الحيرة من اين يأتي بغداء ضيوفه، وبعد تردد وحياء رجع لنفس العجوز، فلما شاهدته سألته عن حاجته.

فقال: ذبيحة لضيوفي.

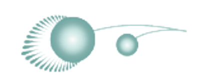
قالت: عندي هذه النعجة كنت انوي بيعها لشراء كسوة لي فخذها.

فأخذها منها ورجع سريعاً إلى أهله وكأنه يملك الدنيا بأسرها فأعطاهم الذبيحة لتجهيز الطعام، وجلس مع ضيوفه طيب النفس هاشاً باشاً يؤانسهم بالأحاديث لحين تجهيز طعام الضيافة.

وفي اليوم التالي نزل الى مدينة الوجه وهي بلدة تقع على ساحل البحر الأحمر بمنطقة تبوك، وكانت ذلوله التي يركبها (شرود) أي صعبة الطبع، وأستمر في سيره حتى وصل إلى وادي يسمى وادي (القبه) فنزل فيه ليستريح قليلاً وترك الذلول مقيدة.

ولما أراد مواصلة سيره شردت عنه ذلوله، فظل يمشي خلفها لعله يمسك بها، واثناء ذلك عثرت الذلول وكادت ان تقع ولكنها حينما همّت بالنهوض نكشت شيئا من الأرض بخفها، فتأمله فإذا هو صرة مربوطة ومدفونة بالأرض وعندما أخرجها تبين له بأنها مليئة بالجنيهات الذهبية.

فحمد الله على هذا الفرج وعدّها فإذا هي تسع وثلاثون جنيهاً، فذهب الى الوجه واشترى احتياجات بيته ولم ينسى المرأة العجوز فقد اشترى لها طعاماً وكسوة كاملة تقديراً منه لمعروفها، ثم رجع الى دياره وتوجه مباشرة الى العجوز فأعطاها المال الذي في ذمته وكذلك الهدية التي احضرها لها.



مكرمة جوفية

في سنة مجدبة مر ركب كثير العدد من قبيلة الظفير على منطقة الجوف، وكان في مقدمتهم شيخهم ابن سويط، فأناخوا ركائبهم ضيوفاً على محمد بن طريف الضويحي، وهو من القرشة من قبيلة بني خالد، فاستقبلهم ببشاشته المعهودة وحيّا بهم ورحب، ثم أورد هجنهم الماء فأسقاها حتى ارتوت.

ولم يكن يملك في ذلك الوقت من الماشية سوى «سانيته» وهي الناقة التي يرفع بها الماء من البئر، فقام بذبحها بجوار البئر وشرع أهل بيته في إعداد طعام الضيافة، أما الضيوف فقد تعجبوا عندما شموا رائحة اللحم المطبوخ لأنهم شاهدوا حال مضيفهم عند نزولهم، فلم يلحظوا وجود أي ماشية في مزرعته أو ما جاورها غير السانية التي أسقت ركائبهم.

فأوعز الشيخ ابن سويط لأحد رجاله بأن يخرج لينظر حال السانية هل هي حية أم أنها هي التي ذُبحت لهم، فعاد وأخبرهم أنه لم يجد سوى جلدها حول البئر، فتشاوروا فيما بينهم على ترك أحد هجنهم له وتنافسوا على ذلك فكل منهم يريد أن يترك ذلوله لهذا الرجل الكريم.

وبعد أن تناولوا الطعام عزموا على الرحيل وودّعوا مضيفهم، عندها قام أحدهم بغفلة من محمد بن طريف فعقل ذلوله، وجاء لرفاقه فركب مع أحدهم رديفاً له، وبعد انصرافهم لاحظ محمد وجود الذلول فأدرك بأنهم تركوها له عوضاً عن سانيته فغضب لهذا التصرف لأنه كريم النفس ولا يرغب بالحصول على مكافأة أو عوض نظير ما يقدمه لضيوفه، فقام بفك

العقال وضرب الذلول وتركها تلحق بالقافلة.

وعندما رأى الشيخ ابن سويط أن الذلول قد لحقت بهم قال لصاحبها: خذها، ولا تنسوا هذا الفعل لمحمد بن طريف. فقال شاعرهم قصيدة في مدح ابن طريف منها قوله:

خمسين مردوفة لفن ديرة الجوف   اهل الكرم والطيب واهل الشجاعة
منهم محمد راعي الضلع معروف   الخالدي مثل العلم بالرفاعة
اللي ذبح سانية غربه وانا اشوف   وعشى ضيوفه في سنين المجاعة

قصة فارس ابن رخيص مع ابن عريعر

فارس بن طلاس ابن رخيص من قبيلة شمّر، كان له صديقين يحرص على التواصل معهما وزيارة كل منهما بين فترة وأخرى.. أحدهما ماجد بن عريعر أمير قبيلة بني خالد وحاكم الإحساء.

اما صديقه الآخر فهو الشيخ دبيس الموح الفايز، وهو من أسرة الفايز زعماء قبيلة بني صخر، وأحد أبرز فرسانهم وهو القائل:

حنا صخور ومنازلنا بالعلا ولا ينزل الطمان كود الطماني

ذات يوم كان ابن رخيص متواجداً عند صديقه الأول ماجد ابن عريعر أثناء نزوله قرب المركوز الواقع جنوب شرق مدينة عرعر، فجاء من يخبر ابن عريعر أن دبيس الفايز متواجداً بمنطقة الحماد في مكان يسمى خبرا عروس شمال الحرّة ومعه عدد قليل من جماعته. فعزم ابن عريعر على مباغتة دبيس ومن معه فأمر رجاله بالاستعداد للغزو وأخذ العدة لذلك.

وعندما علم ابن رخيص بعزم صديقه ابن عريعر على غزو صديقه الآخر دبيس خشي عليه، ورغب في انذاره فأرسل له مع رجل من قبيلة الصلب قصيدة مبهمة يفهمها الفطن، يقول فيها:

ألا ياراكبٍ ملحاً تجفّل تجفل مثل ترويج المهاتي
إن جيت دبيس راعي الجود قل له قل لّه يا زبون الجاذياتي
عن خبرا عروس يشد بكسره ترا ماهي عروس البناتي
قل له أشوف خيلاً تحدّى وأشوف الركاب مشوحاتي

وحين وصلت القصيدة لدبيس الفايز علم انها انذار بوجود خطر فرحل

عن مكانه[1]، فلما جاء ابن عريعر إلى موقعهم لم يجد دبيس وجماعته!!.

فأدرك حينها أنهم قد أنذروا، واستيقن بأن من أنذرهم هو احد رجاله لذلك.. عزم على معرفته لقطع رأسه جزاء خيانته، وقام بوضع جائزة لمن يخبر عنه وهي وزن رأس المقتول ذهباً.

وكان قد وضع تلك الجائزة الكبيرة لشدة حرصه على معرفة من أنذرهم، ولعلمه بأن البدو من عادتهم عدم إفشاء السر أو الوشاية «البلسة»، بل إنهم يعتبرون هذا الفعل معيباً ومخزياً.

فلما يئس ابن عريعر من معرفته تقدم ابن رخيص ودار بينهما حواراً (نورد معناه) حيث إن ابن رخيص قال: أنا أخبرك بمن أنذر دبيس ولكن بعد أن تعاهدني بأنك لن تفعل له شيئاً حتى يأتيك بحجته.

فقال ابن عريعر: لك ذلك.

عندها قال ابن رخيص : أنا الذي أنذرته.

فقال له ابن عريعر: ما هو السبب ؟ وما حجتك ؟

فقال ابن رخيص: إذا كان لك عينان وخيرت بالعمى أو بإحداهن أو بالسلامة ماذا تختار؟

قال ابن عريعر: أختار السلامة.

فقال ابن رخيص: أنت ودبيس مثل عيناي، والصداقة التي تربطني بكما فرضت علي أن أفعل ما فعلت لأنني أجزم بأنكما إذا التقيتما ستحدث مذبحة

---

(١) هناك رواية أخرى تشير إلى عدم رحيل دبيس الفايز حين تم إنذاره، وأنه التقى مع ابن عريعر في مكان يقال له الدبوسة، وحدثت بينهما معركة، وهذه الرواية تحتاج إلى تحقيق، فقد تكون معركة الدبوسة قد وقعت بينهما في وقت آخر، لأن المسافة بين الدبوسة وخبراء عروس التي وردت في قصيدة ابن رخيص تقارب (١٨٠) كم.

عظيمة، لأن الرجل سوف يستميت دون محارمه فخشيت أن أخسر أحدكما.

فقال له ابن عريعر: تقسم أن هذا هو مقصدك ؟

قال : والله ليس لي مقصد سواه.

فسأله ابن عريعر: من أخوالك ؟

فقال فارس ابن رخيص قصيدة يصف فيها أخواله وهم الرمال من قبيلة شمر منها قوله:

خوالي أهل البيت الرفيع بشمّر — على المعـادي قاطعين التنايف

اللي إليا ركبوا على اكوار ضمّر — شرٍ على كسب البكار الرهايف

وبعد ان سمع ابن عريعر كامل القصيدة وكان من أكثر الناس معرفة بأوصاف القبائل قال: أخوالك هم الرمال.

ثم إن ابن عريعر بعد أن عرف مقداو وفاء ابن رخيص وصدقه لم يؤاخذه بما فعل، بل إن هذه الواقعة زادت في محبته له وتقديره إياه؛ لذلك أعطاه رعية معروفة من أطيب إبله تسمى «الجهيمات»، واشترط عليه ألا يغير الوسم الذي عليها فعاهده على ذلك. وقد حرص فارس ابن رخيص ومن بعده جماعته على الوفاء بالعهد، فبقوا محافظين على وسم ابن عريعر وهو «الباكورة» على الخد الأيسر.

معشّي الذيب

الذئب كان قريباً من الناس لذا نجدهم يتناقلون الكثير من القصص حوله، منها قصص عن «خوّة» أي رفقة تمت بين ذئب وآدمي، كما تواترت الروايات عن قيام عدد من الكرام بتقديم عشاء للذئب. ولا عجب في ذلك لأن الرحمة هي إحدى الخصال الطيبة التي يتحلى بها الكريم، وتعتبر من أهم الدوافع التي تحثه على البذل والعطاء، فالكريم لا يمكن أن يبيت وهو يعلم بأن حوله أحد جائع.

ولكن هناك رجلان اشتهرا لدى الناس بلقب مُشرّف وهو «معشي الذيب» وهما:

الشيخ محمد بن سعد بن شعيفان آل جفران من شيوخ فخذ العزة من الصعبة من قبيلة سبيع، والمتوفى قبل منتصف القرن الثالث عشر الهجري.

والشيخ مكازي بن دغيّم بن عبدالله بن سعيّد من شيوخ فخذ الدغيرات من عبدة من قبيلة شمر، عاش في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري.

وسوف تكون الأولوية في سرد قصتيهما مبنية على تاريخ الحدث والزمن الذي وقعت فيه.

فالأول منهما هو الشيخ محمد بن سعد بن شعيفان الذي سكن بلدة الحائر، وذاع صيته بالسخاء والكرم. ومن قصص كرمه أن والدته سمعت ذات ليلة ذئباً «يقنب» أي يعوي، وبما أن صوت الذئب كان مستمراً وضعيفاً فقد استوضحت منه عن السبب، فأخبرها أن شدة الجوع قد تكون سبباً لذلك.

وحيث إن قول والدة هذا الكريم قد اختلج بمشاعره فقد قام في جوف الليل، وأخذ «المنيحة» وهي البقرة التي يشربون لبنها ويستفيدون من سمنها، لأنه لم يجد غيرها من الماشية في تلك الليلة، ثم تنحى بها خفية عن أهله، وتوجه بها إلى الجهة التي صدر منها صوت الذئب، وعند اقترابه منه قام بذبحها له ثم تركه يتخير من أطايب لحمها.

أما أهله فعندما ظهر الصباح لم يجدوا البقرة، وهنا تأكدت أمه التي تعرف مقدار سخائه أنه قد قام بذبحها للذئب لأنه أدرك أن الجوع هو سبب استمراره في العواء، ومكان ذبح البقرة هو شعيب في الحاير القديم يسمى شعيب أم مهنا [١]

ونعود للجواد الآخر وهو الشيخ مكازي بن دغيّم لإيضاح قصته مع الذئب، فيذكر الرواة أنه كان قاطناً على في مكان يسمى الشعبة وهي منطقة معروفة شمال السعودية، وفي إحدى الليالي سمع ذئباً جائعاً يقنب في مكانه، وكانت نبرة صوته تدل على الضعف، وكأنه يطلب الاستنجاد، وذلك لعجزه عن الحصول على فريسة ليأكلها حيث إن الكلاب كانت تصد هجومه المتتالي على قطيع الأغنام، فسأل مكازي خادمه عن سبب بقاء الذئب في مكان واحد لوقت طويل دون العودة للإغارة على الغنم؟

فقال الخادم: إنه كبير بالسن والكلاب تتصدى له.

فقال للخادم: خذ خروفاً، وتعال معي إلى مكانه وخذ معك حبلاً.

ففعل ما أمره به، حيث قام بربط الخروف على مقربة من الذئب، ثم إن مكازي انصرف مع خادمه تاركين الخروف خلفهم ليبقى وليمة لهذا الذئب

---

(١) وردت القصة والأبيات في كتاب: ديوان المختار من شعبي الأشعار - صالح بن عطاالله الخزيم.

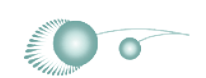
الجائع.

وكان مكازي لا يريد أن يعلم أحد بذلك، إلا أن الخادم أخبر ابنتي مكازي بهذا الأمر عندما سألتاه عن الحبل الذي يربطن فيه الحطب ودلهما على المكان، فذهبتا وشاهدتا بقايا الخروف وآثار هذه الضيافة النادرة. وانتشرت القصة حتى وصلت إلى مسامع الأمير محمد العبدالله الرشيد أمير حائل، وسأل مكازي عنها فأخبره أنها حدثت فعلاً.

فقال ابن رشيد: أنت يا مكازي من أطيب الناس حيث بلغ بك الكرم أن تقدم الخروف ضيافة للذئب.

وتمضي الأيام ويتذكر ابنه شباط بن مكازي هذه الحادثة بعد أن شاهد ذئباً يحاول الإغارة على غنمه فيقول:

ياذيب مانستاهله منك ياذيب	أفعالنا ياذيب نبي الجزا به
أبوي عشا أبوك بالوقت ياذيب	في ليلة غدرا مظل السحابه



حَريب الدول

هذا اللقب للشيخ محمد بن دوخي بن اسمير من شيوخ قبيلة ولد علي من عنزة المتوفى عام (١٢٤٨هـ - ١٨٣٢م)، والقصة التي أدت إلى تسميته بهذا اللقب وقعت أحداثها داخل حدود الأراضي السورية، فقد «دخل عليه» أي استجار به جماعة من أسرة عريقة في مصر حين لحق بهم الضيم من بعض ولاة الأتراك.

وبعد أن علمت الدولة العثمانية بوجود أفراد تلك الأسرة لدى الشيخ ابن اسمير أرسلت إليه مندوباً يطلب منه تسليم هؤلاء الدخلاء عليه، فما كان منه إلا أن أوضح لمندوب الدولة التركية بأنه لن يُسلم المستجير وعلى قيد الحياة رجل واحد من قبيلته.

فأرسلت الدولة حملة عسكرية، ودارت معركة طاحنة أبيدت فيها كتيبة من جيش الترك مقابل مائة وخمسين رجلاً من قبيلة ولد علي وانتهت المعركة بهزيمة الجيش التركي. وأثناء تلك الأحداث تغير والي الدولة التركية على الشام حيث اختار المصالحة والعفو عن دخلاء الشيخ ابن اسمير، وسمّي بعد ذلك الشيخ محمد بن اسمير «حريب الدول» لأنه حارب دولة ولم يُسلّم دخيله. وقد قال الشيخ محمد بن اسمير بهذه المناسبة قصيدة يسندها على شخص يدعى حمود منها هذه الأبيات:

يا حمود ما نعطي دخيل نصانا   لو جمّعوا كل العساكر والاروام

دخيلنا عن نصرته ما انتوانا   نحميه لو يطلب بثارات حكام

نكوي المعادي كية وان كوانا   كي يجي من بسرة القلب قدام

حنا عذاب اللي توطّا رشانا   دام الليالي مقبلات والايام
وحنا نهار الكون نرهب اعدانا   وحنا على من دوّر الظلم ظلام
وحنا إليا سرنا بعيد معدانا   وحنا الذي من نطلبه حق ما نام
نبي الحرايب والحرايب منانا   وش عاد لو جابوا لنا عسكر الشام
أولاد وايل مرهبينٍ اعدانا   نعفي الضعيف وللخصيمين ظلام

ثم بعد هذه القصة حدثت قصة أخرى لأحد فرسان قبيلة العمور ويدعى شلاش العر الذي قام بقتل ضابط من قادة الأتراك بسبب الدفاع عن كرامة امرأة أراد هذا الضابط النيل من شرفها، فصاحت تطلب النجدة فقتله شلاش العر وأصبح مطلوباً للدولة، فما كان منه إلا التوجه إلى الشيخ محمد بن اسمير. وبعد وصوله أبلغ الشيخ بقصته وطلب منه أن يجيره، فأجاره الشيخ محمد وبقي لديهم معززاً مكرماً.

وحين علمت الدولة بأن الشيخ محمد بن اسمير أجار شلاش رغبت في إرسال وفد للتفاوض معه لأنه كان من الشخصيات القوية التي يُحسب لها ألف حساب لسطوته وشجاعته وعلو شأنه. وحين علم الشيخ بأمر الوفد الذي سيُطالب بتسليم شلاش قال هذه القصيدة مخاطباً بها شلاش:

يا شلاش قلبك لايصيبه وشاويش   حنا هل العادات كان ابتلينا
يا شلاش ما نعطيك حمر الطرابيش   لو جمّعوا كل العساكر علينا
وش عذرنا من أم الثنايا المباهيش   غرو يزين مرود الكحل عينا
دونك نسوق المال والخيل والجيش   وأن لزّموا يا شلاش نرهن حدينا
إخوان عذرا ما بنا سيس وكديش   يرجع معيف وخاسرٍ من يبينا

حنا إليا سرنا بعاد المطاريـــش　　　حامين من النقره إلى حد سينـا
مركاضنا يشبع به نافض الريـش　　　نرهب اعدانا كان صوبه مشينـا
وان طار ستر منقّضات العكاريش　　　عـدونـا لـو كـان قـاسـي يلينـا
وحنا عذاب اللي يدور التباليـش　　　يـامـا تـسلطنـا ويـامـا عفينـا

وكان الشيخ قد أعد خطة قبل وصول الوفد حيث أبلغ رجال قبيلته بقرب وصول ضباط من قبل والي الشام للتفاوض حول تسليم المستجير، وأخبرهم بأنه سيعقد معهم جلسة على قمة رابية قريبة، وطلب منهم إحضار أسحلتهم وعزل خيولهم حسب ألوانها بحيث تكون الخيل الدهم والصفر والشقر وغيرها من ألوان الخيل المعروفة كلاً على حدة، ومن ثم ركوب الخيل وتشكيل سرايا من كل لون وتطويق الرابية وهم ملثمون وينشدون أهازيج الحرب ليكون هذا التصرف بمثابة تهديد ورسالة للدولة لكي تفهم أنه من الصعوبة أخذ هذا المستجير عنوة.

وحين وصل وفد الدولة المفاوض إلى بيت الشيخ رحب بهم، وطلب منهم أن تكون الجلسة في قمة الرابية لكي لا يسمع الحديث أحد من رجال القبيلة. وعند بدء المفاوضات على الرابية كان الأتراك يتكلمون بلغة التهديد والوعيد والتحدي من منطق القوة وهم ينوون أخذ شلاش عنوة، ولكنهم فوجئوا بتلك السرايا من الخيل والرجال بكامل أسلحتهم وقد أحاطوا بتلك الرابية، فسألوا الشيخ عن تلك الحشود وأسباب وجودهم!؟

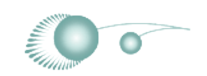
فأخبرهم بأن هؤلاء من رجال قبيلته وهم ينتظرون نتيجة المحادثات، وفي حال موافقته على تسليم المستجير فهم ينوون قتله مع كامل الوفد

ولا حيلة له بهذا الأمـر، إذ إن القبيلة لا تقبل بتسليمه حتى هلاك آخر رجل منهم.

عند ذلك تغيرت لهجة الضباط المفاوضين وقالوا للشيخ: إذاً ما هو الحل؟

فقال: لا يوجد حل لهذه المشكلة إلا قبول الدية.

فقبلوا بدفع الدية التي كانت باهظة في تكاليفها لأن المقتول أحد رموز الدولة. ورغم هذا فقد قبل الشيخ ابن اسمير بهذا الحل ليضمن سلامة من استجار به فطلب من اللجنة المفاوضة إعطاءه مهلة مناسبة ليتمكن من جمع الدية المطلوبة، فوافقوا على طلبه بشرط اصطحابهم لأخيه كرهينة لديهم حتى إحضار الدية، وبعد أن قام الشيخ بجمعها وتسليمها لهم صدر قرار من الدولة بالعفو عن شلاش العر.



مآثر كريمة

كان زيد بن سلامة الخشيم الخالدي يسكن بلدة قفار الواقعة بمنطقة حائل، وقد ذاع صيته وأحبه الناس لجوده وكرمه، ومن المعلوم أن هناك فئة من الناس تناصب أصحاب السمعة الطيبة العداء، فهم لا يفعلون كفعلهم، وإنما يحاولون دائماً الحط من شأنهم حسداً من عند أنفسهم، ولكن يأبى الله إلا أن يعلي شأن الكريم رغم أنوف حاسديه.

وهذه القصة تدور حول ذلك، فقد كان ركب من قبيلة عنزة في طريقهم إلى الرياض للسلام على الإمام فيصل بن تركي، وكانوا نحو ثلاثمائة ذلول بعضها مردوف. وعند مرورهم بعد العصر من أعلى مدينة قفار اعترض طريقهم رجل وقال لهم: تفضلوا بالمبيت عندنا هذه الليلة، وتناولوا العشاء، فهذا بيتي، وأشار إلى قصر زيد الخشيم!

وكان قصده من وراء هذه الدعوة أن يحرج صاحب القصر لأنه يعلم أنه غائب عن قفار بصحبة الأمير عبدالله بن علي الرشيد للسلام على الإمام فيصل بن تركي، ولم يكن في بيته سوى زوجته.

فرأى أمير الركب تلبية دعوة هذا الرجل، وأمرهم بالتوجه إلى القصر. وحين وصلوه أناخوا الإبل عند بابه، ونزل الرجال. فتقدمت زوجة زيد الخشيم ورحبت بالضيوف، ولم تشعرهم بسفر زوجها، وإنما زادت في الترحيب بهم، وأدخلتهم المجلس الذي امتلأ بالرجال إضافة إلى الممرات المؤدية إليه وحتى الساحة الواقعة أمام القصر!.

بعد ذلك استنجدت بعدد من «الصبيان» أي العمال لتجهيز دلال القهوة وتقديم صواني وأطباق التمر. وعمدت إلى الناقة الوسطى من السواني

وأمرت الصبيان بنحرها كما ذبحت عدداً من الأغنام، وشرعت في تجهيز طعام العشاء.

وأثناء ذلك بحث رئيس الركب عن الرجل الذي وجه الدعوة لهم فلم يره. وعندما حان وقت العشاء تقدمت الزوجة إلى الضيوف، ودعتهم إلى تناول الطعام الذي أدهشهم لكثرته وتنوعه. ومما زاد أيضاً في دهشتهم أن المرأة تقدمت عند جلوسهم على الطعام وحيتهم قائلة «سمّوا.. الله يحييكم على حلال اللي إذا غاب وصّى، وإذا حضر تقصّى».

وهي تقصد بذلك زوجها الغائب، أي إنه إذا كان حاضراً فإنه يتقصّى ويتكلف جداً من أجل إكرام الضيف، وعندما يغيب يوصي أهله بإكرام الضيف الذي قد يأتيهم بعد غيابه.

فتناول القوم طعامهم، وعلموا أن ذلك الرجل إنما أراد إحراج صاحب القصر في غيبته، لكن زوجته قد بيّضت وجهه. بعد ذلك رأى أمير الركب أنه لا مجال للمبيت مادام صاحب المنزل غائباً، فاستأذن في الرحيل وغادروا المكان في ليلتهم، وقد أعجبهم فعل تلك المرأة الكريمة.

وعندما وصل الركب إلى الرياض، وجلس أمير القوم في مجلس الإمام فيصل سأله عدداً من الأسئلة، وعن أغرب ما رأى في طريقه!؟ فقص عليه قصة زوجة زيد الخشيم، وأثنى عليها وقال: إنها امرأة «تغشاها البيضاء» ويقصد أنها تستحق أن تُرفع لها راية بيضاء لجميل فعلها، والناس يعتبرون هذه الكلمة غاية في المدح.

فقال الإمام فيصل: هل تعرف زيد الخشيم ؟

قال: لا، أنا أسمع به ولا أعرفه.

فقال الإمام: إنه هذا الجالس بجانبك ليس بينك وبينه سوى رجل واحد.

عند ذلك قام فسلم عليه وهنأه بما قامت به زوجته الكريمة التي خيّبت مساعي ذلك الحاسد، وجاء فعله بخلاف ما أراد حيث إنه زاد في رفعة زيد الخشيم وعلو شأنه.

ولكن الموت لم يمهل تلك الزوجة الوفية فقد توفيت بسبب لدغة ثعبان، فحزن عليها زيد حزناً شديداً، ورثاها بقصيدة طويلة اخترنا منها هذه الأبيات:

قال الذي من ضامره جاب ما راد — كلام احلى من نظيم الجماني
قلته ولاني من ورا القيل وكاد — من شي بقلبي وان هذا به لساني
القيل عندي مثل جمٍ إليا زاد — ما ينتزح لو ساهرته السواني
بالنفس من كثر الهواجيس لهّاد — والعين تذرف بالخفى والبياني
على الذي نهديه بالصدر قعّاد — عن البيض منبوز الردايف سلاني
أبو ثمانٍ كالقحاوي بالابراد — عليه من نور الخزامى احفاني
عندل عنود خشوف ترتع بالافواد — متشطرٍ عن حروة ارض الدماني
خوفه ياطالع طلعة الشمس صياد — عاب لها ملح الشفا بالوزاني
ياقبر ماتنباج عن غض الانهاد — نشوف الذي عن شوف حي سلاني
ياعين لو صحتى ونحتي بالاجهاد — للحشر، ما وضّاح الانياب داني

نزه عن الادناس ماجاه نقّاد يانافل جيله بكل المعاني
لاهي بنجد ولاهي عن اللي عنه غاد ولاهي مع البدوان صافي الثماني
من زها اللفاف لديار الاكراد لديار لباسة جلود الحصاني
للشام لستنبول للهند لهناد ولا هي بدمشق اللى ماه دعجاني
ماقد يخبر زين مزبور الانهاد لا باول الدنيا ولا باخر زماني

ومن الجدير بالذكر أن الجملة التي قالتها زوجة زيد الخشيم حين حيّت بالضيوف، قد ترددت على ألسنة عدد من النساء الكريمات.

فهذه بشرى بنت ناشي العمار من الدحيلان من القني من الغفيلة من سنجارة من قبيلة شمر زوجة مناحي بن حزل بن دهيثم المشهور بالكرم والجود والسخاء، وهو من المختار من الغفيلة، قالت لضيوف زوجها الغائب حين قدّمت لهم ضيافتهم: «تفضلوا على حساب اللي إذا حضر تقصّى، وإذا غاب وصّى».

كما وردت عبارة مشابهة لامرأة كريمة من الجازي، وهم من شيوخ قبيلة الحويطات حين لامها الضيوف بعد أن قدمت لهم طعام الضيافة لأنها لم تشعرهم بغياب زوجها، فقالت لهم وهي تقصد زوجها: «أبو فلان إذا حضر يكفينا، وإن غاب يوصّينا».

وسوف نذكر - بمشيئة الله - تفاصيل قصصهن مع قصص أخرى مشابهة في الأجزاء القادمة من إصدارات هذا الكتاب.

أبا الرمّل

الشيخ سالم بن طواله من شيوخ الأسلم من قبيلة شمر، كان -رحمه الله- من أهل الخير والبر والإحسان، عطوفًا على الأيتام والأرامل والضعفاء، وقد اشتهر بلقب (أبا الرمّل)؛ والرمّل بلهجة البادية يُقصد به النساء الأرامل اللائي فقدن كلَّ من يعولهن، فقد أحاط ببيته عددٌ من بيوت الشَّعَر لأرامل يتولى هو رعايتَهن والإنفاق عليهن.

وكانت زوجته تجهّز كمية كثيرة من الطعام توزّعها يوميًّا بعد غروب الشمس على الأرامل، وكان بعضهنّ يرسلْن إناء الطعام (الماعون) في وقت مبكر إلى بيت سالم؛ لاعتيادهنّ على هذا منذ سنين طويلة.

وذات يوم جاء طالبُ ثأر مع حلول الظلام وكمن خلفَ رواق البيت -وتذكر بعض الروايات- أنه الفارس قهموز بن شرار الثابتي أحدُ كبار آل ثابت من قبيلة شمر، وكان على وشك التقدم باتجاه سالم بغية قتله، ولكنهُ لاحظ عادةَ سالم في الإشراف على توزيع طعام العشاء على من حوله من أهل البيوت، فأعجبه هذا الفعل، وانتظر ليرى ما يحدث؛ لأنه كان يتحلى بأخلاق الفرسان مِن تقديرِ الأفعال الطيبة وإن كانت مِن قِبَل خصومهم.

وبعد أنِ انتهت زوجته من توزيع الطعام قدّمت إليه نصيبَه منه، وقبل أن يأكل رفع يده وسأل زوجته عن إحدى الأرامل لأنه لم يلحظ وجود ماعونها.

فقالت زوجته: صحيح، ما شفت لها شيء.

فكفّ -رحمه الله- يدَه عن طعامه وقال لزوجته: خذيه إليها؛ أخشى أنها مريضة ولم تتناول العشاء.

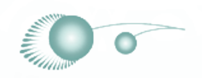
فذهبت زوجته إليها فوجدتها مريضة وقد أنهكها الجوع، فساعدتها على النهوض من الفراش واعتنت بها حتى تناولت طعامها، وبعد أن عادت زوجته أخبرته الخبر، ثم طلبت منه الانتظار حتى تُعِدَّ له عشاء.

فقال لها: لا؛ إن الوقت تأخر، والقهوة تكفيني.

وبعد أن رأى قهموز بعينه شهامةَ سالم ونُبلَه قرّر العفوَ عنه، وانتظر حتى نام سالم، ثم أتى إلى فراشه وركز الخنجر عند رأسه ورجع إلى أهله، فلما استيقظ سالم عرف خنجر قهموز وأيقن أنّه عفا عنه.

وهناك (رواية أخرى) تشير إلى أن قهموز تأثر بشدة من هذا الموقف فلم يتمالك نفسه من البكاء بصوت مرتفع، ففطن له سالم وجاء إليه، فوجده قد ألقى بندقيته وخاطبه قائلًا: يا سالم، لو ذبحتك فمن يشبع الأرامل مِن بعدك؟ ومن يهتمّ بهن؟ وأنا أُشهد اللّه أنني عفوت عنك بسبب هذا العشاء الذي حرمتَ نفسك منه لتطعم به العجوز.

رحم اللّه الشيخ سالم بن طواله وزوجتَه، ورحم الفارس قهموز بن شرار، وأسكنهم فسيح جناته، فقد تركوا للأجيال من بعدهم دروسًا كثيرةً في مكارم الأخلاق.



سوداء الجويعان

تعارف خيار الناس على مكافأة المعروف بمثله أو بما هو أحسن منه، وقد تكون المجازاة بالثناء على صاحب الفعل الجميل في المجالس أو مدحه بقصيدة شعرية وغير ذلك، إضافة إلى قيام بعضهم في الزمن السابق برفع راية بيضاء ليجوب بها ما حوله من البلاد منادياً بأعلى صوته بأن البيضاء تغشى وجه فلان بن فلان لأنه عمل كذا وكذا، ثم يذكر ما قام به صاحب المعروف، وقد يكون هذا في مشعر منى عند أداء الحجيج مناسكهم، كما أن هناك راية أخرى سوداء ترفع لمن يقوم بعمل مشين.

ومن القصائد التي قيلت حول هذا المعنى القصيدة المسماة سوداء الجويعان وسببها أن رجلاً اسمه شلاش من الجعافرة من قبيلة عنزة سافر أيام الاضطراب والفوضى وضاف رجلاً من إحدى القبائل، فتم قتله من قبل مضيفيه غيلة وغدراً.

وكان هذا في عرف القبائل فعلاً معيباً، فأرسل الشاعر عقلا الجويعان العنزي قصيدة بدأها كأغلب الشعراء الذين يستهلّون قصائدهم بوصف النجيبة التي يعتليها الرسول الذي يحمل القصيدة؛ حيث ينعتونها بجميل الصفات كالسرعة والخفّة وحسن المنظر، ثم يشيرون إلى ما تحمله من شوق ومحبة، أو مدح وثناء مع عدم إغفالهم لوصف راكبها.

أما في قصيدة الجويعان فنجده يصف الذلول بأنها «ملحا» أي سوداء اللون، و«جليلة» أي كبيرة الحجم، كما أنها محمّلة بالسواد إضافة إلى سواد لون راكبها، وأما «الشّداد» وهو ما يوضع على ظهر الراحلة للركوب فقد

أضاف إلى لونه الأساسي خط نيلة ليشمله هو الآخر السواد، ولم يكتف بهذا بل وصف حتى العصا التي يحملها الراكب بأنها «محرّقة» أي أن النار قد أصابتها دون الاحتراق الكامل، فبقي عليها أثر هذا التحريق وهو السواد.

كما دعا عليهم بسواد الوجه بصفة دائمة، وأما الراية التي يستحقون أن ترفع لهم نظير فعلهم فهو يرى بأنها راية تشبه ريش الغراب في سوادها. والقصيدة طويلة منها هذه الأبيات:

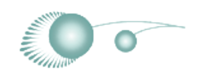
يا راكب من فوق ملحا جليله ... ومحمّله سودٍ خبيثات الألوان
ركابها عبدٍ سريع ذميلـــه ... أسود سواد الليل واسمه دليمان
سوداء وفوق شدادها خط نيله ... وعصا الرسول محرّقينه بنيران
خل الحمايل نزلهم لا تجي له ... ملفاك للي شوفهم مثل لوطان
أخسوا خسيتوا ما كسبتوا نفيله ... إلا بذبح شلاش ضيفٍ وجيعان
من عقب ما لفيت ضيفك بحيله ... حطيت راسه بأيمن البيت نيشان
الله يسود وجيهكم كل ليله ... سوداء تغشاكم كنها ريش غربان

قصيدة حكمة

مقحم بن محمد بن فالح النجدي من الصقور من قبيلة عنزة، والمتوفى عام (١٢٦٠هـ - ١٨٤٤م) تعتبر قصيدته من القصائد النادرة لما اشتملت عليه من وصايا وحكم؛ لذلك سُميت الشيخة، ونظرا لطولها فقد اخترنا منها هذه الأبيات:

ياالله يامطلوب يا وال الأقدار	أنت الذي مدّات جودك لطيفه
البارحة بالقلب هجسٍ وتعبار	هجسٍ وهاجوسٍ تعاقب نكيفه
الصبر مفتاح الفرج هو والافكار	ومن لا صبر تصبح حواله كسيفه
أطلبك يامعبود عاون هل الكار	وتحل شطاتٍ عليهم كليفه
ألّلي مجالسهم بها بن وبهار	ونجرٍ يصوّت للمسيّر رجيفه
يامزنةٍ غرّا من الوسم مبدار	اللي جذبنا من بعيدٍ رفيفه
هلّت من القبله هماليل الأمطار	من سيلها الوادي غدا له وحيفه
وتضفي على كل المفالي والأقطار	وتصبح بها خدان ربعي مريفه
عقب الحيا فاحت بها ريح الازهار	وتعاقب النوار مثل القطيفه
ترعى بها وضحى من الذود معطار	غبوقة الخطّار عجلٍ عطيفه
خطو الولد مثل البليهي إليا ثار	زودٍ على حمله نقل حمل أليفه
يشدا هديب الشام شيّال الاقطار	واليا كبر حمله تزاود زفيفه
وخطو الولد مثل النداوي إليا طار	صيده من الجزلات ماهي ضعيفه
ترجي العشا من مخلبه وقع وطيار	حسّه على صيد الخلا له وحيفه
وخطو الولد ياما ل قصاف الاعمار	لانافعٍ نفسه ولا منه خيفه
وإليا بخصته ماسوى ربع دينار	مع العرب يشبه خطاة الهديفه

وحنا لك الله من بعيدين الاخبار | والنفس ما نلحقِ هواها حسيفه
حلوين للصاحب وللخصم قهّار | وعدونا لو هو بعيد نخيفه
الا ومع ذلك لك الله لنا كار | عن جارنا ماقط نخفي الطريفه
نرفا خمال الجار لو هو بنا بار | ونضحكِ حجاجه بالعلوم اللطيفه
ولا نبدي الخافي لو صار ما صار | وندمح خمال الجار لو بان حيفه
نرفا خمــاله رفية العش بالغار | ونودع له النفس القويه ضعيفه
والجار له قيمة وحشمة ومقدار | وكل بجيرانه يعد الوصيفه
أحدٍ على جاره بختري ونوّار | وأحدٍ على جاره صفاةٍ محيفه
ولا بدها تبقى تواريخ واذكار | وتبقى لدسمين الشوارب وظيفه
وصلاة ربي عد ما اخضر أشجار | على الرسول اللي علومه شريفه



صقّار الفضلي وحقوق الضيف

هذه القصة جرت أحداثها في بادية العراق قبل أكثر من (١٧٠) عاماً، ومضمونها أن غزاة أغاروا على قبيلة الدليم، فبلغ خبرهم الشيخ سليمان بن بكر شيخ الدليم، فبعث ابنه علياً مع عدد كبير من الفرسان لمواجهتهم، فما كان من الغزاة إلا أن التجؤوا إلى بلدة القبيسة التي يشتهر أهلها بالمروءة والكرم.

فلما علم الشيخ علي السليمان بذلك حاصر البلدة، وأرسل إلى أهلها يطلب منهم تسليم الغزاة، وإلا فإنه سيحاربهم، ولكن تصميم أهالي القبيسة كان قوياً على حماية من استجاروا بهم، فوقفوا دونهم واستماتوا في الدفاع عنهم.

فلما رأى شيخ الدليم قوة بأسهم وشجاعتهم تراجع عن مهاجمتهم.

وكان الشاعر صقار بن مهنا الدريعي الفضلي قد أرسل أثناء الحصار قصيدة إلى الشيخ علي يعتب بها عليه، وقد اشتهرت القصيدة لدى الناس ومنها قوله:

يا راكب حمرا من الهجن معطار ... ما قرّبت عند العقيلي تثنا
تشدي مطافيق القطا حين ما طار ... فوقه غلام يوصل الهرج عنّا
تلفى الحريب اللي على الكود صبار ... الشيخ علي هو زبون المجنّا
أمر سديته يا علي ما بعد صار ... تبي تجر ضيوفنا غصب عنا
رجّالنا يفرح إليا شاف خطّار ... يقحص لهم عجل من غير منّا

أول قـراهم مـن حليّات الأثمـار   غـرايس طلعة سهيل أثمرنا
وثاني قـراهم دلة نصفها ابهار   ونجـر نـلاعـب بـه عـلى كـل فنا
وثالث قـراهم حايـل دوم تندار   ومناسف لضيوفنا ينهضنا
وش عذرنا من لابس الخصر وسوار   اللي يرشّـن الـذوايب بحنّا
إليا عطينـا ضيفنـا مـا لنا كـار   نصير عن زيـن المضايف بعنّا
ترى الخوي والضيف والثالث الجار   مثل الصلاة ما بين فرضٍ وسنّا
اللـي زبنـا زابنٍ ضلـع سنجـار   والحرب نرسي له إليا ثار حنا
تسعين ليله وأشهب الملح به ثـار   وقـت المنـام يطيّـر النـوم عنا
محمد بناها وأودع السور منـدار   وهلهل على درب السلامة وغنّا

جابر العيش

هذا اللقب يطلق على الشيخ جابر بن عبد الله الصباح حاكم الكويت الثالث المتوفى عام (١٢٧٦هـ - ١٨٦٠م) والذي حكم ما يقارب الأربعين عاما.

كان كريماً يضرب بكرمه المثل، حتى إن الكويتيين أطلقوا عليه اسم جابر العيش. والعيش باللهجة الكويتية يعني الرز، وذلك لأنه كان يقوم بعمل الموائد للفقراء بجانب قصره، كما قام - رحمه الله - بإنشاء مكان خاص لإيواء وإطعام الفقراء.

ومن الشهادات لجابر العيش بالكرم مقولة الشيخ بندر بن محمد السعدون شيخ قبيلة المنتفق، وكان موصوفاً بالكرم هو الآخر، فقد سأل جلساءه آنذاك عمن يستحق وصف الكريم في جزيرة العرب؟

فقال الحاضرون جميعاً: أنت!.

فقال الشيخ بندر: ما الكريم في الحقيقة إلا جابر الصباح أخو مريم الذي يبسط الحصر في الأسواق ويملؤها من «التمّن» للمحتاجين، وليس له واردات تغنيه، أما أنا فلا فخر لي وكثير من أملاك البصرة بيدي.

وأما محمد بن مسلم وهو أحد مشاهير شعراء الإحساء فقد قال كذلك قصيدة طويلة في مدح جابر العيش قبل أن يلتقي به، منها هذه الأبيات:

الا يا بو حسين ان رمت نيّه وزمّت بك عن الدار المطيّه
وجيت الدار في حال السلامة أمانتك الثناء لي والتحيّه

على كل الجميع وخصّ جابر خليفة من غدا تحت المقابر
ومن علمه علا كل المنابر بمعروفه وبرّه في الرعيّه

فتى ما شاخ مثله في البرايا بسكّان المدن وأهل القرايا
عسى وان حامت طيور المنايا تحطّ الغير عن عمره فديّه

إليامن جاء العصر نادوا عبيده هلّم الى العشا ياللي تريده
تزيد مروّته الله يزيده وفضل الله جزلٍ بالعطيّه

ينادي العيش يا جوعان عبده ولا شيٍّ سوى ربّه يعبده
وربّ العرش إليامن حبّ عبده دفق في الملا محبّته الشهيّه

ألا يا بو حسين قل له تراني أحبّه بالذكر لو ما رآني
وما في القلب يظهره اللساني إليا حلّ الذكر في مطرويّه

عليّه نذر إن شفته بعيني لأقبّل هامته والراحتيني
فإلى حال القدر بينه وبيني عليه تحيّتي بكرة وعشيّه

وإلى جانب كرم جابر العيش فقد كان لا ينكر ما يقدمه أبناء شعبه من أعمال خيّرة، بل يثمن لهم مواقفهم، ويقدرها أشد التقدير بتصرفاته وفعاله وليس قولاً بلسانه فقط، وله في الرجال نظرة ثاقبة لا تخيب.

فيُذكر أنه كان يعفي أموال وبضائع التاجر علي بن إبراهيم من كافة الرسوم، مما أغاظ تاجراً آخر أبدى اعتراضه، وعاتب الشيخ جابراً في ذلك، ولكن الحاكم الرزين لم يزد على القول: سأنظر في الأمر.

وبعد عشرة أيام بعث الشيخ جابر خادمه إلى ذلك التاجر ينبئه بحاجته إلي قهوة لمجلسه، فملأ التاجر وعاءً صغيراً من البن وأعطاه للخادم، ثم أرسل الشيخ جابر خادمه إلى علي بن إبراهيم بنفس الطلب، فما كان من الأخير إلا أن أمر بإحضار عدة دواب حمّلها بنحو ثمانية أكياس كبيرة مملوءة بالبن، وأرسلها إلى الشيخ جابر.

وعند وصولها وضع الشيخ جابر الوعاء الأول فوق الأكياس الثمانية، واستدعى التاجر المعترض فأراه الفارق بين ما قدّمه هو وما قدّمه ابن إبراهيم ليعرف سبب إعفاء الأخير من الضرائب، وليثبت له ولغيره بأن من يتحلى بصفة الكرم فإنما يستحق بفعاله التكريم والإعانة.

والجدير بالذكر أن المجاعة التي سميت (سنة الهيلك) حدثت في عهد حفيده الشيخ عبدالله بن صباح بن جابرالصباح، وهي مجاعة عظيمة حدثت في بلاد فارس والجزيرة العربية في ثلاث سنوات عجاف ابتداء من العام (١٢٨٥هـ - ١٨٦٨م) حيث قام أهل الكويت حينها بأعمال جليلة لإنقاذ الناس، وبادر المحسنون إلى بسط الطعام في الأسواق والطرقات للمحتاجين، وقد اشتهر من أولئك المحسنين يوسف البدر ويوسف الصبيح وعبد اللطيف العتيقي وسالم بن سلطان، وبيت معرفي، وبيت ابن إبراهيم وغيرهم، حيث استمروا في إطعام الطعام حتى انفرجت تلك الكربة[١].

ولعلنا إن شاء الله سنتطرق إلى قصص عن بعض هؤلاء الأخيار في الأجزاء القادمة من هذا الكتاب.

---

(١) تم النقل بتصرف يسير من كتاب تاريخ الكويت ـ الشيخ عبدالعزيز الرشيد.

ابن سندا المرّي[1]

محمد بن سندا آل عذبة، من قبيلة المرة، اشتهر بين الناس بالعديد من خصال الخير منها كرمه الذي كان مضرباً للمثل

في منطقة الإحساء حدثت معركة بين الأتراك والمواطنين هلك فيها كثير من الناس، كما تشرد آخرون في الصحراء.

وكان هناك امرأتان قد هربتا ضمن من هرب، فسارتا على غير هدى حتى تاهتا في الصحراء الشاسعة، فواصلن سير الليل بالنهار يأملن أن يعثرن على حي من أحياء العرب، وقد بلغ منهما الجوع مبلغاً كاد أن يودي بحياتهما حتى قامت كلٌّ منهما بربط حجر على بطنها، وفي وقت متأخر من الليل سمعتا نباح كلب فاتجهتا نحوه، فإذا بهما تفدان على بيت ابن سندا.

وكانت تلك الليلة من ليالي الشتاء، شديدة البرودة، وابن سندا نائم مع زوجته. فعمدت المرأتان إلى موضع إشعال النار؛ حيث قامت إحداهما بجمع الجمر ورمت عليه بعض الحطب. فاستيقظ ابن سندا على ضوء النار، وعلم أن الوافد بهذا الوقت المتأخر لابد أن يكون محتاجاً للطعام. فسأل زوجته عما لديها فأعلمته بأن البيت خال فلا طعام لديهم منذ أيام في ذلك المكان إلا ما يصطاده من حيوانات برية وطيور.

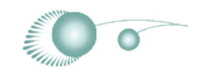
وحين جلس يتفكر في أمره سمع حواراً يدور بين المرأتين إحداهما تريد فك الحزام الذي ربطته على بطنها، والأخرى تقول لصاحبتها بأنها غير قادرة على ذلك لفراغ بطنها وشدة جوعها.

---

(١) من آدابنا الشعبية في الجزيرة العربية جـ ٥ ـ منديل بن محمد آل فهيد.

فقام - رحمه الله - وعمد إلى ذلوله وهي وسيلته الوحيدة في التنقل والقنص فنحرها، واستخرج من أطايب لحمها، فجهزته زوجته على عجل، وأطعمت المرأتين بعد أن أشرفتا على الهلاك.

وبقيتا مكرّمتين لدى ابن سندا الذي أصبح لهما بمثابة المحرم حتى عادتا إلى أهلهما بعد انتهاء أحداث تلك السنة المسماة «سنة الصيحة».



اخلاق الفرسان[1]

مرت منطقة الجوف بسنين عجاف عانى فيها الأهالي من الفقر والحاجة، كما هو شأن كافة بقاع جزيرة العرب؛ حيث عاش الناس عيشة ضنك، وتجرعوا ألم الجوع ومرارة العوز والفاقة. وكانت عملية المقايضة هي إحدى وسائل حصول الناس على المعيشة، وذلك من خلال استبدال تمورهم ببعض البضائع القادمة من العراق أو الشام أو من البادية.

وذات يوم عُرضت معروضات كثيرة منها حبوب وسمن وجميد من قبل بعض أهل البادية يطلبون مقايضتها بالتمر أو بيعها بـ «المجيدي» وهو عملة عثمانية متداولة قديماً، فتجمع حول العرض عدد من أهل الحاضرة الذين تدفعهم الحاجة للحصول عليه، ويمنعهم عن الشراء قلة ما في أيديهم من المال، وعدم وجود تمر لديهم ليقايضوا به، فبقوا في مكانهم حائرين.

وبينما هم كذلك مر بهم فارس على حصانه اسمه مفضي العطية وهو من القرشة من قبيلة بني خالد، فاستغرب وقوفهم فقط دون قيام أحد منهم بأخذ شيء من تلك المعروضات رغم علمه بحاجتهم لها.

فاستوضح منهم عن ذلك، فأخبروه عما بهم واصفين له أحوالهم، فأثر ذلك في نفسه، ولم يهن عليه رجوع هؤلاء الرجال إلى أهاليهم دون فائدة. فأقبل على البدوي صاحب البضاعة وقال له: بكم تشتري هذا الحصان؟

فقال البدوي: ليس لي به نظر.

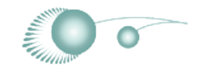
وهنا تذكر مفضي شخصاً سبق أن عرض عليه شراء الحصان بمبلغ

---

(١) أوراق جوفية ـ لواء متقاعد معاشي بن ذوقان العطية، وكذلك منتدى قبيلة بني خالد الرسمي.

قدره أربعمائة مجيدي، فذهب إليه وسلّمه الحصان وعاد بثمنه واشترى المعروضات، ثم قام هذا الفارس الكريم بتوزيعها على جميع المحتاجين الموجودين حول المكان.

وبعد ذلك مضى - رحمه الله - في طريقه راجلاً بعد أن فقد أعز ما يملكه وهو حصانه الأصيل. ولكنه شعر في الوقت نفسه أنه خفف من وطأة الجوع الأليم الذي تعيشه تلك الأسر، وأنه أدى خدمة إنسانية ترتاح لها نفسه ويطمئن إليها ضميره.



وفاء وتضحية

في عام (١٢٠٨هـ - ١٧٩٤م) خرجت قافلة تجارية من منطقة القصيم إلى المدينة المنورة يرأسهم صالح بن رخيّص، وبعد انتهاء اعمالهم انطلقوا عائدين إلى ديارهم،

وأثناء الطريق أصيب رجل اسمه جارد بن ذياب بمرض أقعده عن متابعة السير، وحين اشتد عليه المرض تشاور القوم في أمره، فاقترح ابن رخيّص أن يحملوه على نعش ويسيروا به لأنهم في «ضِلعان» أي جبال عالية موحشة وصحاري قليلة الماء وليس لديه من المؤونة ما يكفي القافلة لمدة طويلة، ثم توالت الاقتراحات حول طريقة حمله لتأييد الأغلبية لرأي رئيس القافلة، وتأهبوا لحمله ليتسنى لهم مواصلة السير إلى ديارهم.

وكان في القافلة رجل من بلدة الرس وهو من الوهبة من بني تميم اسمه محمد بن منصور بن ريّس تدخّل ومنعهم من حمل المريض لأن مرضه بلغ حداً جعل من الخطر عليه أن ينقل بأي طريقة، كما أن جسده أصبح لا يتحمل أدنى حركة، وتطوّع بالبقاء معه حتى يحكم اللّه له بموت أو شفاء.

وفعلاً لم يجد القوم بداً من الرضوخ لرأيه مقدرين له رجولته ومروءته، وأخذوا في التهيؤ لمغادرة المكان، أما هو فقد بقي في مكانه جوار صاحبه المريض ينظر إلى رفاق رحلته وقد اعتلوا رواحلهم، وشرعوا في المسير، فبدأ بنظم قصيدة على مسمع من ابن رخيّص وبعض من معه يصف فيها تحرك

القافلة وما يتوقعه من حال والدته التي ستخرج مع الناس لاستقبال الحجيج يقول فيها:

قل هيه ياهل شايبات المحاقيب   أقفنّ من عندي جداد الاثاري
أقفنّ من عندي كما يهرف الذيب   ليا طالعَ الشّاوي بليلٍ غداري
إلِيا كنّ نسف اذيالهن بالعراقيب   رقّاصةٍ تبي بزينه تماري
يابن رخيّص كبّ عنك الزواريب   عمارنا يابن رخيّص عواري
خويّنا مانصلبه بالمصاليب   ولا يشتكي منّا دروب العزاري
لازم تجيك أمّي بكبده لواهيب   تبكي ومن كثر البكا ما تداري
تنشدك باللي يعلم السرّ والغيب   وين ابني اللي لك خويٍّ مباري
قل لَه قعد في عاليات المراقيب   في قِنّةٍ ما حوله الا الحباري
يتنى خويّه لين يبدي به الطيب   والا يجيه من المقادير جاري
وان كان ماقمنا بحقّ المواجيب   تحرم علينا لابسات الخزاري

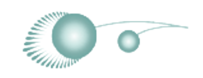
وسارت القافلة في طريقها إلى الرس تاركة خلفها جارد المريض ورفيقه الوفي الشجاع في مكان يقال له: بلغة، وأقام الاثنان هناك ثلاثة أشهر، كان ابن ريس خلالها يسهر على راحة رفيقه ويطعمه مما يصيد حتى شفاه اللّه.

وحين أصبح قادراً على ركوب الذلول اتجها إلى الرس، وقبل دخول بلدتهما رآهما رجل ففرح بسلامتهما بعد أن استيقن كغيره من الناس هلاكهما فانطلق راكضاً رافعاً صوته بالبشارة بقدومهما، فخرج من في البلد لاستقبالهما.

أما والدته فقد خرجت مع الناس ومن شدة الفرح شقت صفوف المستقبلين يقودها الشوق واللهفة واحتضنت ابنها الشهم وأخذت تعاتبه

وتقول له: وين أنت يا أبا الضلعان؟ جالس بالضلعان. وأنا قلبي يتقطع عليك.

وبعد هذه الواقعة أطلق عليه الناس لقب أبا الضلعان. ولا زالت الذرية الطيبة لهذا الرجل تعرف باسم الضلعان، رحمه الله رحمة واسعة، فقد ضرب أروع مثال في التضحية والوفاء.



أبو خوذه والحايف

الشيخ عبدالكريم بن صفوق بن فارس الجربا يعتبر من كبار شيوخ قبيلة شمر، وقد اشتهر بالكرم والجود حتى أطلق عليه الناس لقب «أبو خوذه» لأنه كلما طلب منه أحد شيئاً قال له «خوذه» أي خُذْه.

وقصص هذا الشهم الكريم كثيرة، وفي ذلك عبرة، لأن العمر ينقضي، والمال يفنى، وصاحب الصيت الحسن يبقى حياً بين الناس يتردد أسمه دوماً في محافلهم على مر الأجيال.

ومن قصص كرمه أن «حايف» وهو الشخص الذي يسرق الإبل أو الخيل ليلاً جاء في إحدى ليالي الشتاء إلى بيت الشيخ عبدالكريم الجربا، وقد كان الجو بارداً لدرجة أن الإبل كانت باركة أمام البيت متراصّة وملتصقة ببعضها، فحاول إثارة إحداها لكي يتمكن من فك رباطها ليهرب بها إلا أنها ولشدة البرد لم تقم، فأخذ يتجول بينها كلما دك واحدة رفضت النهوض حتى أدركه الهلاك هو نفسه، فتجمدت يداه، وأعياه البرد الشديد. ففكر ولم يجد أمامه سوى بيت الشيخ عبدالكريم فدخل وهم نائمون، وجلس بجوار مكان النار حتى يجد الدفء.

وكان الشيخ عبدالكريم نائماً بالجزء الثاني من البيت، فسمع حركته فنهض من فراشه ولبس «الفروة» وهي رداء طويل يبطن غالباً بفرو الغنم، وذهب إليه، ولما نظر إلى حالته أخذ فروته من على ظهره ورماها على الحايف دون أن يكلمه وعاد إلى فراشه، ولما شعر الحايف بالدفء نام في مكانه لشدة تعبه وإعيائه.

وفي الصباح وبعد أن اجتمع الناس في مجلس الشيخ كان الحايف جالساً بينهم وعلى ظهره فروة الشيخ، وبعد أن شرب القهوة وتناول الإفطار سأله الشيخ عن سبب مجيئه، فسرد له حكايته كاملة وأردف بهذه الأبيات:

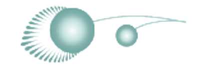
البارحة ما هي من البارحاتي — من واهجٍ ينفح على البيت ويزير
لولا أبو خوذه كان هذا مماتي — في سِهْلَةٍ ما ينلقى به حوافير
عطيّته ما هي من البيناتي — فروة، وكنّه عازلٍ لي مغاتير

ويلاحظ أن البيت الأخير تضمن الإشارة إلى عطية الشيخ وهي الفروة، مبيناً بأنها ليست من العطايا الواضحة للناس، ولكنه لشدة حاجته لها حينما كاد أن يهلك من شدة البرد شعر كأن الشيخ «عزل له» أي أعطاه «مغاتير» وهي القطيع من الإبل ذات اللون الأبيض.

وما إن أتم حديثه وقصيدته حتى قال له الشيخ عبدالكريم: «شفت ذود المغاتير اللي حفته البارحة».

فقال: نعم.

قال: «خوذه» تراه هدية لك[1].



---

(١) تنويه: تم نقل هذه القصة بتصرف يسير من كتاب/ من روائع القصص والقصائد الشعبية - مرزوق بن محمد حسين الوهبي، كما وردت القصة في صحيفة اليوم عدد (١١٩٧٧) وهناك روايات أخرى تشير إلى ان القصة وقعت للشاعر ردهان بن عنقا الجسّار القنياوي الذي نام في مضيف الشيخ عبدالكريم في ليلة شديدة البرودة، وكان من عادة الشيخ تفقد ضيوفه بعد نومهم، فوجد ردهان مستيقظ ويرتجف من شدة البرد فنزع فروته وغطاه بها، وعند الصباح قال ردهان الأبيات المشار إليها.. والله اعلم.

وفاء الإبل

هقيعي الشليمي من السعيد من قبيلة الظفير، كان يقتني سلالة طيبة من الإبل، وكانت الغزوات متبادلة بين القبائل، وشاء الله أن ينتصر غزو من قبيلة شمر التابعين للشيخ عبدالكريم الجربا ويستاقوا قطعاناً من الإبل، ومن ضمنها إبل هقيعي الشليمي الذي أفاق على هول الكارثة التي حلت به، وقد احتار في أمره وكيف يفعل لاسترداد إبله النادرة!.

وأخيراً قرر أن يطلب من ابن عمه محمد بن دهمان المساعدة لأنه شاعر معروف بقوة القصيد وغزارة المعاني، فحاول ابن دهمان أن يعتذر لأسباب منها بعد المسافة بين منازل قبيلتي شمر والظفير، ووعورة الطريق المحفوف بالمخاطر، إلا أن جميع الأعذار لم تنفع لشدة إلحاح الشليمي.

وفي صباح اليوم التالي توجها إلى ديار الشيخ عبدالكريم الجربا وجدّا بالسير حتى لاحت لهما منازل شمر، فاستوضح الشليمي من صاحبه عن الشعر الذي سيقوله في مدح الشيخ، فأخبره بأنه لم يجهز أي قصيدة لأن الشعر عنده يأتي فجأة، وشبهه بدبك حوافر الخيل على روض من الأرض ممطور لتوّه، كناية عن ارتجاله للقصيدة.

ولما وصلا إلى بيت الشيخ عبدالكريم وجداه بيتاً مهيباً، ومن حوله وداخله الكثير من الرجال أقارباً وضيوفاً وأهل حاجة وغيرهم، فقد كان مجلساً عامراً قد يدخل الداخل ويخرج منه فلا ينتبه له أحد.

فتبادلا النظرات يبحثان عن رأي فكان رأي محمد بن دهمان أن يعقلا ركابهما بعيداً ويأتيا أمام المجلس، ثم يفتعلا مشاجرة! والقصد من ذلك أن يلفتا الانتباه لوجودهما.

وبالفعل فقد أثارا انتباه الشيخ عبدالكريم واستغرابه لأنهما رجلين غريبين ويتشاجران أمام مجلسه. فأمر بإحضارهما، وحين سألهما عن أمرهما ارتجل ابن دهمان قصيدة طويلة أصغى إليها من في المجلس، وأثناء ذلك كان سيف الشيخ عبدالكريم في يده، ولأنه انسجم مع القصيدة فإنه لم يفطن لسيفه حين ارتخت عنه قبضة يده فسقط طرفه في موقد النار التي أمامه، فلاحظ ابن دهمان هذا الأمر فأشار إليه في «البيت الثالث عشر» من قصيدته التي يقول فيها:

ياراكب من فوق قصرات الاوبار	فج النحور اليا انتوى كل ناوي
عيرات منقيات بالدو هدار	حمرٍ سمرهن من قعود اللحاوي
طفقات من مس المناجيب عبار	ياكن ينهش من قفاهن اضراوي
يا ماحلا بظهورهن مس الأكوار	وعليهن اللي يبعدون الهقاوي
في دربهم متعرضين للاخطار	ناصين دار محرقين القهاوي
مدّن من الداير مع فج الأنوار	والعصر بالخابور عشر النضاوي
ارقب رقيبتهن على رأس سنجار	تطلّع الجربان بهاك الحراوي
أهل بيوت كنها زمّة الطار	كبار الصحون مزبنين الجلاوي
بيوت المحمد مدهل الضيف والجار	وملجا لمن كثرت عليه الشكاوي
لازم يجي بالبيت هاتش وخطار	وخلايقٍ ما ينعرف له لغاوي
من ضف شيخ للمناعير جرار	اللي طريحه ما لجرحه امداوي
وادني بالادنى كان للربع تختار	عبدالكريم إليا بلتك البلاوي

شوّاي صنع الهند في مجحم النار	من الزوم كنّه من شفا البير داوي
مثوار شقحا بأول الذود معطار	تركض إليا سمعت تداويه المداوي
ما طاع بالقالات عمسين الاشوار	رد السلف على الجهامة خلاوي
يجيبه اللي للطوابير كسار	كان الشليمي للبويضا رجاوي
والله يبيض وجهكم عقب ما صار	ابيض من القطن العفر عند رواي

فلما انتهى من قصيدته طلب منه الشيخ الجلوس بجواره ثم استفسر منه عن اسمه وحاجته!؟ وحين عرفه رحب به ورغب في الإسراع بقضاء حاجته لذلك التفت إلى رجال قبيلته قائلاً: «وش تقولون يا شمر»؟

وكان أبو خوذه قادراً على اتخاذ القرار دون الرجوع إلى أفراد قبيلته لكنها حكمة هذا الرجل الكريم. فقد أراد أن يشعرهم بأهمية رأيهم ومشاركتهم له فيما يقرره، فأشار أحدهم إلى صعوبة جمع الإبل وإعادتها بعد أن تم توزيعها.

هنا تحدث الشليمي وبيّن لهم بأن هذه المسألة سهلة للغاية، حيث طلب أن يقف على مكان مرتفع و«يدوّه» أي ينادي على إبله بصوته الذي اعتادت سماعه منه، فما جاءته منها فهي له، فوافقوا على ذلك.

وعندما بدأ يدوّه حدث الموقف الذي يقال: إنه أبكى الكثير من الرجال! فقد أبكاهم وفاء الحيوان في صورة نادرة قلما تحدث، فعندما سمعته إبله وهو يدوّه كانت تخرج من بين قطعان الإبل التي كانت قريبة من مورد الماء وهي تتجه إليه، فمن هنا ناقة، ومن هناك اثنتان، وهكذا اتجهت إليه من كافة الاتجاهات حتى اجتمعت عنده، عدا ناقة واحدة كانت تمشي قليلاً ثم تقف وهكذا حتى جاءته في النهاية، فأقسم أنها له وقد ولدتها إحدى نياقه ولكن من فحل آخر ليس من إبله!

مفاخر كثيرة في حياة قصيرة

الكريم قد يعطي جميع ما يملك برضا نفس منه، ولكنه يمتنع عن العطاء حتى وإن كان قليلاً إذا حاول أحد أخذ شيء منه بالقوة أو الحيلة.

فهذا أبو خوذه الشيخ عبدالكريم الجربا كانت له فرس أصيلة تسمى الكحيلة طلبها منه مدحت باشا مفوض الدولة العثمانية الذي كان والياً على بغداد لمدة اربع سنوات اعتباراً من العام ١٨٦٨م فرفض أبو خوذه طلبه الذي لا يخلو من الصلف والتعالي. وأصر مفوض الدولة على أخذ الكحيلة من الشيخ عبدالكريم، فأرسل له رسولاً يتهدده ويتوعده ويشعره بإصرار الوالي على طلبه. فجدد الشيخ رفضه وأرسل إلى الوالي هذه القصيدة:

أرسلت لي يا بيه خطٍ يروعي ... تطلب عذاب ملاويات الفروعي
أبـي اليا من حضّبن الجموعي ... أثني عليها مع جموع الطنايا

يا بيه ماهي قيمرٍ بالصحوني ... هذي الكحيلة مثل عنز البدوني
أبــي اليا جو لابتي ينتخوني ... في ساعةٍ حامت طيور المنايا

البيع والله ما أبيع الكحيله ... إلا، ولا أصخي بها ربع ليله
أبـي إلى ما سنّدوا مع طويله ... أثني عليها عن توالي الرذايا

ما همني البيه هو والشريفي ... حنّا منزّحت العدا والحفيفي
بالغصب مانعطي عدال الرغيفي ... وعند الرضا نعطي كبار العطايا

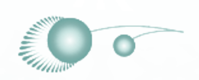
وهذه القصيدة تعكس عزة نفس الشيخ عبدالكريم، وكذلك اعتزازه بفرسه الكحيلة التي كما قال عنها في قصيدته: إنه يستعين بها وقت الشدة للذود عن قبيلته وجماعته.

وحين وصلت القصيدة إلى والي بغداد غضب غضباً شديداً، وحقد على الشيخ والفارس عبدالكريم الجربا الذي بدأ آنذاك باشعال ثورة ضد الدولة العثمانية في عام ١٨٦٩ م.

وكان من نتائج ثورة الشيخ ابو خوذه الذي لقبوه كذلك بـ (نطاح طابور العسكر) انه تم حرق كثير من مراكز ومخافر الترك، مما سبب لهم خسائر كبيره في قواتهم، لذلك اطلق الاتراك على تلك الثورة أسم (خراب عبدالكريم) واستمرت حملته عليهم لمدة سنتين في مواقع كثيرة بين الموصل وبغداد واماكن أخرى حتى خشي الاتراك ان يستولي الشيخ عبدالكريم على بغداد فصدرت توجيهات مشددة بالقبض عليه، وبالفعل تمكنوا من ذلك.

والجدير بالذكر ان القبض على هذا البطل لم يكن بساحات المعارك وميادين الشرف، وانما جرى هذا بعد ان دبروا له مكيدة وقبضوا عليه بمسار غدر وخديعة. ثم حكموا عليه بالإعدام بعد محاكمة صورية عاجلة، وأعدموه شنقاً عام (١٢٨٨هـ - ١٨٧١م) بمدينة الموصل شمال العراق.

وهنا معلومة قد لا يعرفها البعض.. وهي أن الشيخ عبدالكريم الجربا الذي ترك مآثر ومفاخر تناقلتها الأجيال من بعده لم يعمّر طويلاً، وإنما تم اعدامه - رحمه الله - في سن مبكرة قبل ان يتجاوز السادسة والثلاثين من العمر.



يضحي بماله دون كرامة رفاقه

عايد التميمي - رحمه الله - كان من الشخصيات الفذة التي جمعت الكثير من خصال الخير، ومن نوادر القصص التي تروى عنه أنه في عام (١٢٨٨هـ - ١٨٧١م) تقريباً توجه إلى شمال الجزيرة العربية ليشتري إبلاً من البادية ويتاجر بها في البلاد الأخرى، فقصد قبيلة السبعة من عنزة، حيث حل ضيفاً على رجل من كبارهم يدعى حمد بن شتيوي، واشترى ما شاء اللّه له أن يشتريه من إبل، ثم رحل بعد مدة قاصداً مصر.

وبعد ابتعاده عن مضارب القبيلة تفاجأ بخيل ظهرت من ورائه يعتليها مضيفوه وقد ساروا خلفه يقتفون أثره، فأدهشه سرعة لحاقهم به! وحين أقبلوا عليه أمر رجاله بالنزول ورحب بهم، فجلسوا معه وبعد أن تناولوا القهوة أخبروه بأنهم فقدوا صرة من المال بداخلها خمسمائة قطعة، وأنهم لا يشكون أبدا في أمانته إلا أن قافلته يوجد بها عشرات الرجال من الرعاة والمستخدمين، لذلك فقد طلبوا منه أن يسمح لهم بتفتيشهم.

فقال لهم عايد: أبشّركم بأن هذا المبلغ محفوظ عندي بكامله، حيث إن أحد الرعاة ناولني إياه وهو يزعم أنه وجده بين أمتعتي، فأخذته واحتفظت به وقلت في نفسي: أمران لا ثالث لهما، إما أن يكون هذا المبلغ قد ضاع من أحد رجال قبيلتكم، أو أنه أمانة وضعها أحد معي ونسيت أن أسجل اسمه عليها. وقلت: إن كان الأمر الأول فلا بد من أن يأتي صاحب المال ويسأل عنه، ولكن مضت مدة طويلة ولم يأت من قبلكم أحد، عند ذلك صح عندي الأمر الآخر فنفضت الصرة وأحصيت ما فيها من الدراهم ثم أضفتها إلى ما عندي من الأمانات، أما الآن وقد بان لي خطأ رأيي فتفضلوا باستلامها.

بعد ذلك قام هذا الشهم وأحضر المبلغ كاملاً وسلمه لهم، عندئذ ودّعوه ثم انصرفوا إلى أهلهم، أما هو فقد واصل سيره قاصداً مصر ليبيع بضاعته فيها.

وأما جماعة ابن شتيوي فقد اتضح لهم خطأ رأيهم بعد مدة قليلة من الزمن، وذلك أنهم وجدوا دراهمهم بصرتها داخل أحد الأمتعة، وعندما وجدوها علموا بأنهم دون قصد منهم قد ظلموا ضيوفهم، وشعروا بالخجل الشديد من عايد التميمي، كما أدركوا بأن هذا الرجل الكريم قد ضحى بهذا المبلغ من ماله الخاص ستراً لعرض حاشيته وحفظاً لكرامتهم.

وبعد التشاور فيما بينهم اتفقوا على أن يشتروا بهذا المبلغ إبلاً توسم بوسم التميمي، ويتولون رعايتها والعناية بها كما لو كانت لهم.

وبعد مضي ثلاث سنوات قدم إليهم عايد التميمي ليشتري منهم إبلاً، وبعد قيامهم له بواجبات الضيافة قام مضيّفه حمد بن شتيوي وجلس بين يديه وشرح له الأمر بكامله، واعتذر عما بدر منهم، ثم أكد له أن المال الذي أخذه منه قد اشترى به إبلاً طرح الله بها البركة حتى ربت وزادت، وطلب منه أن يستلمها.

فقال عايد: أنا لا أستلم الحلال كله، بل لي رأس مالي فقط.

فرد عليه ابن شتيوي: إنها ليست ملكنا، وإنما هي لك، وقد بارك الله بها بسبب نيتك الطيبة.

وبعد أخذ ورد بين هذين الكريمين - رحمهما الله - تم الاتفاق على أن يُثمّن الحلال فيطرح منه رأس مال عايد التميمي، وما تبقى يقسم بالتساوي فيما بينهم.

حجرف الذويبي

الشيخ حجرف بن عياد بن عبدالله الذويبي، هو أحد شيوخ بني عمرو من قبيلة حرب والمتوفى حوالي عام (١٢٩٠هـ - ١٨٧٣م)، اشتهر - رحمه الله - بالكرم المفرط، فقد كان ينفق كل ما يملك إكراماً لضيفه أو لشخص يطلب منه العون، وإذا لم يجد شيئاً ذبح شاة أولاده التي يشربون حليبها أو إحدى مطاياه التي يرتحل عليها، وفي كل مرة كان جماعته يجمعون له بعض الماشية ويعطونه إياها عوضاً لما أتلفه نتيجة لكرمه، وكلما جمعوا له شيئاً أتلفه إما ذبحاً للضيوف أو عطايا لطالبي المعروف، ولا يزال هذا فعله حتى يخرج من جميع ماله وهكذا.

وفي أحد الأيام لم يبق لدى حجرف ما يملكه، فقد أتلف كعادته حلاله كله، وكان هو وقبيلته نازلين بالقرب من أحد موارد الماء كعادة البدو في فصل الصيف، وحين أراد أفراد القبيلة أن يجمعوا له كعادتهم اقترح أحدهم أن يعطوه درساً في كيفية الإبقاء على ماله قبل أن يعطوه الإبل لعله أن يمسك على الأقل مطاياه التي يتنقل عليها.

واتفق جماعته على أن يتركوه إذا رحلوا حتى يعرف مدى حاجته إلى الرواحل التي تحمله، فإذا مرت مدة كافية لأخذ العبرة أرسلوا إليه ما جمعوه له من الإبل ليتمكن من الرحيل بأهله.

وبالفعل رحلوا وتركوه وهو ينظر إليهم دون أن يلتفت إليه أحد منهم. وفي المساء أخذت زوجته تكثر عليه الكلام واللوم وتحاول أن تنصحه لأنه لو أبقى

على مطاياه لعانق قبيلته، وتمكن من الرحيل معهم.

وفي الصباح خرج حجرف من بيته يملأ قلبه الضيق والهم، وقصد مكاناً مرتفعاً كعادة أبناء البادية يبحثون عند ضيقهم عن المكان العالي، فيجلسون فيه ليبثوا فيه أحزانهم. وبعد أن وقف في مكان مرتفع تلفّت حوله فلاحظ وجود حيّة عمياء تقف أمام جحرها فاتحة فمها دون أن تتحرك، وبعد مضي بعض الوقت إذ بعصفور يقع على فم تلك الحية ظناً منه أنها غصن شجرة فالتهمته ثم دخلت جحرها.

وجلس حجرف في مكانه حتى جاء وقت العصر، فإذا بتلك الحية تخرج ثانية وتفتح فمها كالمرة السابقة ويأتي طير آخر ويقع فوق فمها فتلتهمه وتعود لجحرها.

وهنا زاد يقين حجرف بأن الذي يرزق هذه الحية العمياء لن يتركه أبداً، واعتبر بهذا المشهد المؤثر فقال قصيدة منها هذه الأبيات:

يقول ابن عياد وان بات ليله	مانيب مسكينٍ همومه تشايله
حلّيت في داري خلاوي لحالي	وترى الفرج مضمون والرب قايله
انا إليا ضاقت علي تفرّجت	يرزقني اللي ما تعدد فضايله
يرزقني رزاق الحيايا بجحرها	لا خايلت برق ولا هيب حايله
ترى رزق غيري ياملا ماينولني	ورزقي يجي لو كل حي يحايله
جميع ما حشنا ندور به الثنا	وما راح منا عاضنا الله بدايله

وبعد أن فرغ حجرف من قصيدته عاد لبيته وكان المساء قد حل فنام. وعند منتصف الليل سمع حنين إبل على مورد الماء، فظن أنهم ضيوف واحتار من أين يأتي لهم بالعشاء وهو لا يجد شيئاً، وبما أنه لا يستطيع بعد سماع الصوت أن يبقى داخل بيته فقد اتجه إلى المورد ليستطلع الأمر فوجده محاطاً برعية كاملة من الإبل ضلت طريقها وليس معها أحد. فتأمل وسمها فإذا هو لا يعرفه ولا يخص قبيلته، فعقلها وفي الصباح رحل عليها وتبع جماعته.

ولحجرف - رحمه الله - قصيدة نصح وإرشاد، مليئة بالحكمة والتوجيه منها هذه الأبيات:

لا تورّي العدوان بالحال ردّه	يمسون في عليا وزود سرور
وأضحك لهم بالسن والسّد مقفل	واحفظ لسانك لا تصير هذور
كم واحدٍ يضحك ويبدي لك الرضا	وهو يحفر لك بالطريق قبور
لا تأخذ إلاّ بنت ليثٍ مجرّب	صبورٍ على مر الزمان شكور
ولا قيل ذا سبعٍ وهو فرخ ثعلب	ولا طار من عش الغراب صقور
ترى الحرار اللي ترجّا نفعها	تهوم للعليا وهن طيور

ليالي ثويني

الشيخ ثويني بن عبدالعزيز القشعم المتوفى رحمه الله عام (١٢٩٠هـ - ١٨٧٣م) هو شيخ القشعم من الجعفر من عبده من قبيلة شمر، كان يتمتع إلى جانب زعامته وشجاعته وقوة نفوذه بكرم نادر حتى ضرب به المثل، ومن الأمثلة التي قيلت حول كرمه قولهم: «شلتا ومن ليالي ثويني»، والشلتا تعني الليلة شديدة البرودة لأنه كان يقوم بشكل دائم وخصوصاً في ليالي الشتاء الباردة بإشعال النار وذبح ناقة أو عدد من الغنم فيجد الناس لديه الطعام والدفء.

في أحد الأيام حضر إليه شاعر اسمه عسجد ومدحه بقصيدة، فأمر له بناقة يأخذها عند الصباح، وبعد مضي بعض الوقت همس أحدهم في أذن الشيخ مشككاً في الشاعر ونباهته، وأنه لا يستحق مثل هذه العطية الكبيرة لأن القصيدة ليست من نظمه، وبالتالي فإن نعجة واحدة تكفي.

وفي الصباح بعد أن اجتمع الناس في مجلس الشيخ استأذنه الشاعر بالانصراف وقال: «يا شيخ العطية لو تأمر».

فأراد الشيخ أن يمتحن نباهته فقال: «أريد اسألك قبل تروح، وش هي أول لو، وثاني لو، وثالث لو» !؟

فسكت الشاعر لبعض الوقت ولكنه فطن إلى أن «بعض» المحيطين بالشيوخ والوجهاء لا يساعدون أبداً على الخير، بل إن بعضهم قد يكون في حضوره إضرار بالآخرين، وهم يفعلون ذلك ويحسبون أنهم يحسنون صُنعا.

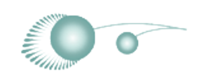
وبعد تفكير قال: «أول لو» ما عمر شجرة لحقت الجو، «وثاني لو» الله

يلعن كل محضر سو، «وثالث لو» عطاء ابن قشعم ما به لو.

فما كان من الشيخ ابن قشعم إلا أن زاده ناقة أخرى وتركه يمضي في حال سبيله.

«ومن حكايات كرمه أنه أمر خادمه ذات يوم بتجهيز ذبيحة لدرويش فقير نزل عليه، فاستنكر الخادم ذلك قائلاً: إن الضيف مجرد درويش والسمن والتمر واللبن يكفيه، فأجابه الشيخ ثويني بقوله: اذبح له يا وليدي لعله شيخ الدراويش.

ومن حكاياته أيضاً أنه أمر بذبح خروف لكلب غريب عن الحي رآه على باب مضيفه وقال للخادم أيضاً: اذبح له لعله كلب أجواد»[1].



(١) حديث الصحراء ـ ناصر السبيعي وإبراهيم الخالدي.

خلف بن ناحل

الشيخ خلف بن راشد بن سالم بن ناحل المتوفى عام (١٣٠٥هـ - ١٨٨٨م) هو أحد شيوخ الأحامدة من بني سالم من قبيلة حرب، جمع بين المشيخة والتجارة والثراء، فكان شيخا حكيماً في تصرفاته، موفقاً في تجارته، كريماً بما آتاه اللّه من فضله.

ومما يروى عن كرمه - رحمه اللّه - أنه كان إذا عاد من سفر ومعه مكسب أعطى من حوله أعطيات جزيلة. وذات مرة عاد من أحد الأسفار التي لم يكن قد كسب فيها شيئاً فوجد في بيته أناساً ينتظرونه يريدون نيل الأعطيات التي اعتادوا أخذها منه.

وحيث إن اللّه قد جبله على الكرم فإن نفسه السخية قد أبت أن يعودوا إلى أهلهم بلا شيء، فقام بإعطائهم عدداً من الإبل التي كانت موجودة أصلاً عند أهله.

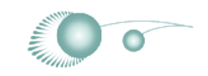
وعندما تناقل الناس أخبار تلك العطايا اعتبر أحد الأجواد وهو الأمير حمود العبيد الرشيد أن مثل هذا العطاء يعتبر من نادر الكرم. وكان هو الآخر قد عوّد الناس أن يأخذوا منه ما يسمى بـ «الحذيّة» وهو الشيء الذي يمنح بعد الكسب.

وحين حضر إليه بعض من اعتاد الأخذ من أعطياته ولم يكن لديه حينها ما يمكن أن يمنحه له، ارتجل قصيدة يشير في بعض أبياتها إلى تلك الواقعة

بقوله:

يامن خبر يحذي وهو ما كسب شين	يا كود ابن ناحل بماضي الزماني
خلف عطا من غالى المال يا حسين	علّه يخلّد في نعيم الجناني
ترد الهجافا يم بيته تقل عين	يلقون زادٍ زاهبٍ بالصياني
فعله ذكر باول زمانه وهلحين	نور يشعشع بالخفا والبياني
صمايلٍ ماهي سوالف دواوين	وجهه يباشر بالعطا كل عاني

كما أن المؤرخ محمد بن عبدالله بن بليهد الذي حوت كتبه الكثير من المآثر يقول: «لو لم يكن في حرب إلا خلف بن ناحل لكفاهم بكرمه».



خوّة الشلقان

في عام (١٣١١هـ - ١٨٩٤م) حدثت معركة بين عدد كبير من رجال إحدى القبائل وتسعة رجال من الشلقان من قبيلة شمر، وقد اضطر الشلقان في نهاية الأمر إلى القبول بما يسمى «المنع»، وهو أخذ ما معهم من سلاح وركائب مع الإبقاء على حياتهم. وبعد انصراف خصومهم من أرض المعركة بقوا في مكانهم حائرين في أمرهم، ومما زاد حيرتهم أن أحد رفاقهم أصيب إصابة بالغة تعيقه عن المشي.

وبعد مضي بعض الوقت طلب المصاب من رفاقه أن يذهبوا إلى أهلهم ويتركوه في مكانه حتى لا يعيقهم؛ لأن إصابته شديدة ولا يطمع في النجاة بسبب بُعد ديارهم. فرفضوا الاستجابة له، إلا أنه عاد وطلب منهم سرعة مغادرة المكان وتركه لمصيره المحتوم موضحاً لهم بأنه يشعر بأن منيته قد دنت، وأن كل إنسان يموت بالأرض المكتوبة له.

وحين لاحظ رفاقه شدة إصراره على البقاء تغامزوا فيما بينهم، وأظهروا له الموافقة على طلبه فودعوه وانصرفوا، ثم بدؤوا في التشاور في أمره لأنه يرفض أي محاولة لحمله، وشيمتهم لا تسمح لهم بتركه، وهم يعرفون حق المعرفة بأن مصيره الموت إن تركوه وحيداً في هذه الصحراء المقفرة.

فاقترح أحدهم أن يتوجهوا إلى أقرب جبل، وإذا غابوا عن ناظريه يرجعون على أعقابهم ويراقبونه من حيث لا يشعر بهم، فإن بقي في مكانه علموا بأن لا همة له ولا رغبة في الحياة. أما إذا بدأ في الزحف متتبعاً لآثارهم فإن هذا يكفي لأن يكون حجة عليه تمكنهم من العودة إليه وإرغامه على المسير معهم.

وحدث ما توقعوه؛ فقد بدأ بعد أن غابوا عنه في اقتفاء آثارهم زحفاً على بطنه لعدم استطاعته المشي، فعادوا سراعاً إليه ولشدة حرصهم على راحته عملوا له من الأشجار ما يشبه النعش ليكون حمله بطريقة لا تؤثر على إصابته، وتعاقبوا على حمله متجهين صوب ديارهم في مسيرة استمرت تسعة عشر يوماً.

وهنا بدأت الأسطورة التي جعلت هؤلاء الرجال مضرب المثل في المروءة والإيثار، وقبل استكمال سرد قصتهم فإن الأمر يتطلب إيضاح أسمائهم، فالمصاب هو مجيدع بن حسن الربوض من فخذ السلمان من عشيرة الزميل من سنجارة من قبيلة شمر، أما رفاقه الثمانية فهم من أخواله ومن نفس عشيرته ولكنهم من فخذ الشلقان وهم:

١) عبكلي بن رميح بن حمود بن فالح الشلاقي «عقيد الغزو».

٢) غريّب بن ضيف الله بن معيقل الشلاقي.

٣) شحاذ بن مطلق بن مخيمر الشلاقي.

٤) حسن بن مظيهير بن معيقل الشلاقي.

٥) جفران بن غانم بن مخيمر الشلاقي.

٦) مشوط بن عجان بن مخيمر الشلاقي.

٧) ثنيان بن ثويني بن معيقل الشلاقي.

٨) مشاري بن متعب بن عبدالله بن معيقل الشلاقي.

ونعود إلى بقية القصة وما جرى فيها من غرائب الأحداث، فحينما حملوه كان أحدهم وهو شحاذ بن مطلق بن مخيمر لم يبلغ الرابع عشر من عمره، وحين قيامه بحمل المصاب مع رفاقه كان النعش يميل للزاوية التي تليه بسبب

قصر قامته، فقرر ثنيان بن ثويني لحرصه على راحة المصاب أن يقوم بـ «عقبته» أي دوره في حمل النعش بالإضافة إلى دور رفيقه شحاذ الذي اكتفوا بتكليفه بحمل الزناد وقربة الماء، ولم يسمح ثنيان لأحد أن يأخذ مكانه حتى صار به جرح في كتفه صار علامة به حتى انتقل إلى جوار ربه فسمي «أبو عقبتين» وذلك لرجولته وعزيمته وتضحيته في ذلك الموقف الصعب الرهيب.

كما حدث موقف آخر أثناء سيرهم فقد وجدوا «زربول» وهو حذاء من الجلد، فطلبوا من أحد رفاقهم وهو مشاري بن متعب أن يلبسه لأن رجله قد حفيت، فلبسه واستلم دوره بنقل مجيدع، وكان هناك مسمار داخل الحذاء تسبب في جرح رجل مشاري الذي احتمل الألم واستمر في السير دون إشعار رفاقه، وحين تمكن المسمار من ملامسة الحفاة تحرك مشاري لشعوره بألم شديد فطلب منه رفاقه التمهل في حركته لئلا يؤذي المُصاب.

ثم نظر أحدهم وإذا بالدم والزبد يخرج من أعلى الحذاء، فأوقفوه مستغربين منه تحمّل كل هذا الألم؟ فأخبرهم بأنه لم يرغب في إشعارهم بهذا الأمر حرصاً منه على راحة المصاب.

وهناك موقف ثالث حدث بعد أيام من سيرهم وذلك حين نفد ماؤهم واشتد عليهم العطش حتى أقعدهم عن المشي، فطلب منهم رفيقهم غريّب البقاء في مكانهم حتى يبحث لهم عن الماء، فبقوا في مكانهم وتركوا له القيام بتلك المهمة لأنه ممن اشتهروا بمعرفة مجاهل الصحراء، فذهب غريّب واستمر في البحث حتى وجد «خبراء» وهي من الأماكن التي يصمد بها الماء في موقع يسمّى الخفيّة، فاقترب منها ورمى بها حجراً ليتأكد من أن ما يشاهده أمامه هو ماء وليس سراباً، وعندما تأكد من وجود الماء عاد إلى أصحابه دون أن يشرب، وحين أقبل عليهم عرفوا من علامات وجههِ أنه

لم يشرب، فأيسوا من حياتهم ولكن العكس كان صحيحاً فقد بشرهم بالماء وذهب بهم إليه، وبعد أن شربوا وعادت إليهم قواهم عرفوا من خلال آثار قدميه بأنه لم يشرب لأن أثره قد توقف قبل الوصول إلى الماء.

فقال له عقيدهم: لماذا لم تشرب من الماء؟

فأجابه هذا الشهم - رحمه اللّه - بقوله: منعني أمران: الأول خفت أن أشرب وحين أعود أجد أحدكم ميتاً، والثاني حتى لا يقول الناس المتفرغون: هرب غريّب وحين وجد الماء رجع.

ثم واصل هؤلاء الرجال سيرهم، وكانوا يأكلون بعض أوراق الشجر، أو ما يجدونه في طريقهم من الصيد رغم قلته فحصل لهم موقف لا يقل في غرابته عن المواقف السابقة حيث إنهم في أحد الأيام لم يجدوا ما يأكلونه أو يصيدونه سوى جربوع واحد، فأعطوه للمصاب فأبى أن يأكله، ثم أعطوه لأصغرهم سناً وهو شحاذ وأجبروه على أخذه فأخذه منهم.

وأكملوا سيرهم حتى وصلوا إلى مكانٍ يسمى غطي، فاستضافهم رجل اسمه وارد الجباب الرمالي، وأثناء حديثهم عن الجوع والعطش أخبروا مُضيفهم عن قلة الصيد، وأنهم لم يجدوا منذ يومين شيئاً سوى ذلك الجربوع الذي أكله رفيقهم شحاذ، وفي تلك اللحظة التي تتجلى فيها مروءة الرجال أخرج شحاذ الجربوع على هيئته، وقال لهم: هذا جربوعكم على حاله لم آكله!.

وبعد وصولهم سالمين إلى أهلهم قال مجيدع الربوض قصيدة طويلة يفصل فيها ما حدث لهم، ويثني بها على رفاقه منها هذه الأبيات:

يالله ياجايب هماليل الأمطار ... ياموع الديار المحيله مخاضير

ياجابر للعظم من غير جبار ... تجبر كسير ساق رجله شعاثير

وقعت ماقعٍ من وقع فيه ماثار ... كسري حدا الساقين غادي شنانير

قلت ارشدوا حقي من الآخره صار ... روحوا لاهلكم ياحماة المظاهير

قالوا علومك عندنا مالها كار ... هي نيّتك وإلا تقوله مصاخير

اركب على المتنين عدك على حصار ... اركب علينا كفيت شر العواثير

ركبت فوق اثنين واثنين حضار ... وغدوا الي اجواز تقل حطحطة ضير

وإليا اوجسوا اني من الشيل جضار ... بهون يهدّون الخطا لي بتقصير

حفّاي بالقيض جهّيل وصغار ... وشلون لو عقّيلهم لي حواضير

فكّرت بدم وجيههم كيف ما غار ... ياتقل بدات للمصنّع مسايير

عفيه خوالي مابهم طق شبشار ... زمل التخوت مسهلات الحوادير

معهم هديب الشام نقال الاقطار ... زود على حمله يشيل القناطير

تسعة عشر ليله على كور عبار ... متمركي من فوق روس المناعير

وطيور شلوى معجبة كل صقار ... ارداهم اللي نثّر الريش تنثير

واعرف إليا جاد اول العش مابار ... لازم من التالي يجي له نوادير

لا بد ماتبقى مع الناس تذكار ... والفعل فعل الله حسين التدابير

وصلاة ربي عد الاشجار وحجار ... على النبي واعداد مارفرف الطير

معشّي الشجر

يطلق هذا اللقب على محمد بن حسين الشريف، المتوفى عام (١٣١٧هـ - ١٨٩٩م)، وهو من أهالي بلدة المفيجر التي تبعد عن حوطة بني تميم بمسافة مقدارها (٣٥) كلم تقريباً، وقصة تسميته بمعشي الشجر انه كان من عادته أن يقف كل يوم بعد صلاة العصر على مكان مرتفع يسمى الزبرة ويراقب طريق القوافل التي تمر بالوادي، حيث إن المكان حلقة وصل بين محافظة الحريق وحوطة بني تميم، وتمر به قوافل عديدة، فيقوم بإعداد واجب الضيافة لكل العابرين، وكان طوال حياته على هذه الحال حتى بعد أن كبر سنه وضعف بصره.

وذات يوم اعتلى المكان المسمى الزبرة وكانت الرياح شديدة والغبار يملأ الأفق، فرأى أشجاراً تهزها الريح فظن أنها قافلة تسير، فأسرع وقام بذبح خروفين، وطلب من أهله إعداد العشاء للضيوف المقبلين، وقام بجلب حزمتين من «القت» وهو البرسيم ليطعم إبلهم.

وبعد أن فرغ من إعداد مأدبتهم، استبطأ حضورهم فأرسل من يستطلع له الأمر بسؤال أهل المزارع عنهم فأكدوا له عدم مرور أي قوافل في ذلك اليوم، فجمع هذا الجواد جيرانه وأطعمهم العشاء. وحين أظهروا استغرابهم لعدم وجود ضيوف بينهم سألوه عن سبب هذه المائدة فقص عليهم القصة، فصدّقوه لمعرفتهم التامة بكرمه وصدقه، ولُقّب بعدها بمعشي الشجر، وكان بين الحاضرين شاعر اسمه محمد بن حوشان فتأثر بما جرى فقال هذه الأبيات:

الا يا محمد بن حسين عشيت الشجر والجار

تحسب إن الشجر ضيفان يا اللي تكرم العاني

يا حيثك دايماً منصا وهاذي عادة الأخيار

ذبحت من الغنم ثنتين جل كفول وسماني

وأمرت اللي حصد شربين قت يارفيع الكار

تبيها للركايب إليا لفت برجال ضيفاني

إليا جاء الضيف لابن حسين يلقى مكرم الخطار

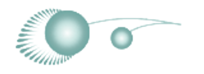
أقول اللي سمعت وشفت مالي مقصد ثاني

على الزبرة يشرّف كل يوم يحتري زوّار

ولو أن السنين شداد قصده فعل الإحساني

كما إن الضيف ضيف الله وله عند العرب مقدار

كريم النفس للضيفان والعاني وجيراني



كريم آخر يعشي الشجر

دخيل الله بن سعد بن منغص الوزري السبيعي، اشتهر - رحمه الله - بالكرم، وكان يسكن بلدة الروضة قرب رنية، ومن القصص المشهورة عنه أنه بعدما كبر أصبح قليل ما في اليد، رقيق الحال وقد كف بصره.

وفي ليلة من ليالي الشتاء الباردة سمع في منتصف الليل جلبة وصوتاً فظنه ضيوفاً قدموا إليه، وكانت ابنته قد غطت في نوم عميق فدعاها وهو لا يشك إلا أنهم ضيوف، فقامت من النوم ولا يزال في عينيها، وخرجت لترى الضيوف فلم تجد أحداً سوى أن الريح كانت شديدة، وتلك الأصوات ما هي إلا خشخشة ورق شجرة العشر، وهو شجر له أوراق طويلة فعادت إليه وهي تقول: يا والدي! عشرة !.

ثم عادت البنت إلى فراشها لتنام، فقال هو: «رزقنا ورزقهم على الله» حيث ظنهم عَشَرَةَ ضيوف.

وذهب يتلمس طريقه ومعه سكين حتى أمسك بناقته الوحيدة «السانية» التي تجلب له الماء من البئر فنحرها، فلما سمعت البنت رغاء السانية عرفت أن والدها لم يفهم منها معنى كلامها، فجاءت مسرعة وهي تصيح: أنا أقول عشرة يعني شجرة العشر.

لكن كلماتها لم تجد نفعاً حيث إن السانية كانت قد قضت نحبها على يد هذا الكفيف الكريم[1].



(١) تم النقل بتصرف يسير من كتاب محافظة رنية للمؤرخ فهيد بن عبدالله بن تركي الفراعنة السبيعي.

الظلماوي

الظلماوي هو قائل البيت الشهير:

ياكليب شب النار ياكليب شبّه   عليك شبّه والحطب لك يجابي

واسمه دغيّم بن عيد بن بشير الشلاقي الشمري توفي عام (١٣٢٤هـ - ١٩٠٦م)، كان من الأجواد الذين ذاع صيتهم بالكرم، إضافة إلى شدة اهتمامه وعنايته بالقهوة التي تعتبر رمز الضيافة عند العرب.

حدثت له قصة طريفة مع الأمير محمد العبدالله الرشيد المتوفى عام (١٣١٥هـ - ١٨٩٧م) وذلك أن الظلماوي قام بنظم قصيدة طويلة رائعة المعاني والألفاظ منها هذه الأبيات:

ياكليب شب النار ياكليب شبّه   عليك شبّه والحطب لك يجابي
وعلي أنا ياكليب هيله وحبّه   وعليك تقليط الدلال العذابي
وادغث لها ياكليب من سَمر جبّه   وشبه إليا منه غفى كل هابي
باغي إليا شبيتها ثم قبّه   تجلب لنا ربعٍ سراة غيابي
بنسريّةٍ ياكليب صلفٍ مهبّه   لاهب نسناسه تقل سم دابي
سراة بليل وناطحين مهبّه   متكنفين وشوقهم بالعذابي
الوالمة ياكليب عجل بصبّه   والرزق عند اللي ينشي السحابي
صبه لقرماً صرفته ما حسبّه   يوم البخيل مكنهب الوجه هابي
لا باطن الهلباج خطو الجلبّه   يا حلو خبط عصيّهم بالركابي
أطمر لهم وأبدي سلام المحبّه   إليا جو على هجناً يديهم خرابي
سلام أحلى من شخاليل جبّه   وأحلى من السمن الجديد العرابي

مع كبشٍ مصلاح راسه نجبّه إليا أدبر الهيّن متين العلابي
أنا لقيت الصبر يازين غبّه يرقيك روس مشمرخات الهضابي
من لاصبر ياكليب في حكم ربّه هذاك يوم البعث ماله ثوابي
يقولها اللي ما حسب المسبّه ولا عرقل الأجواد ببعض الهلابي
هذا هوى بالي وهذا مطبّه من قبل مايسفح علينا الترابي

وقد انتشرت تلك القصيدة بين الناس حتى سمع بها الأمير محمد الرشيد، فيقال: إنه أراد أن يعرف مدى صدق الظلماوي بقوله:

الوالمة يا كليب عجل بصبّه والرزق عند اللي ينشي السحابي

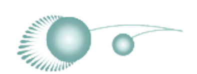
وهناك قول آخر يشير إلى أن أحد المحيطين بالأمير قد أوغر صدره ضد الظلماوي حين جاء ذكر القصيدة في مجلسه فلمز الظلماوي بقوله: «قصيدته كنها ثوب مفصّل عليه»، ويقصد بذلك أنه لم يمدح الأمير.

وفي إحدى الليالي اصطحب الأمير بعض خاصته وتوجّه إلى بيت دغيّم الظلماوي الذي لم يشعر بقدومهم حتى أناخوا ركائبهم أمام بيته، فرحب بهم وحين دخولهم تفقد الأمير بنظراته موقد النار «الوجار» فإذا النار فيه موقدة منذ وقت ليس بالقصير لكثرة الرماد والجمر حولها، كما أن دلة القهوة «والمة» أي جاهزة بجانب الوجار، فصب لهم الظلماوي من الدلة الوالمة ثم شرع بحمس القهوة لإعداد الدلة الثانية.

وأثناء حديثهم كانت طريقة الأمير في كلامه توحي بعدم رضاه، وقد عرف الظلماوي من ذلك أن الامير زعلان، فقام إليه وقبّله بين عينيه، ثم مد يده للأمير وقال له:

مدّه رهن لولاك ماقلت ياكليب ولا قلت شب النار وصر موقداً له
في ليلة تجدع سواة المشاهيب نســرية تلصق خليلٍ لخلّه
نطعن بعزك ياحصان الاطاليب عسى اللي جمع حزمتك ما يفله
يالجوهر الناريز يالمسك يالطيب يا عنبرٍ من جرّبه مايمله
تكفي محاليب وتملى مجاليب وكبدٍ تيبّسها وكبدٍ تبله
ياطير شلوى ما لقي بك عذاريب لو تستحي ما تجمع الطيب كله
يا ابو اليتامى والأرامل ومن عِيب وابوٍ لمن صار العصى ثالثٍ له
وابو المحرول والعمى والمحاديب ومن ضامته بقعاء تصير ولدا له
أن كان هرجي به عليكم عذاريب سامح عسى اللي عقبك بألف حله

وبعد أن فرغ الظلماوي من قصيدته طلب منه الأمير أن لا يعود لشراء القهوة ولوازمها طيلة حياته، فكلما احتاج إلى شيء فما عليه سوى الحضور إلى قصره وأخذ جميع ما يلزمه.



السويط والوفاء للجار

الشيخ عبدالله بن هتيمي بن منديل من شيوخ قبيلة بني خالد نزل على شيخ قبيلة الظفير صنيتان بن سويط جاراً له، فأكرمه إكراما يليق بمكانته. وفي أحد الأيام عزم ابن منديل على غزو إحدى القبائل المجاورة فصحبه عدد من فرسان قبيلة الظفير، ثم انضم إليهم أحد أبناء الشيخ صنيتان وهو شاب في مقتبل العمر اسمه ضاري والذي كان يرى أنه أحق برئاسة الغزو في حين أن ابن منديل كان يرى أنه هو الأحق برئاسة الغزو لكونه أكبر سناً من ضاري وأشد فروسية منه!.

فكثر الخلاف بينهما ثم رضي ضاري أن يغزو دون أن تكون له القيادة، فساروا بقيادة ابن منديل حيث كان النصر حليفاً لهم وغنموا غنائم كثيرة، ومن المتعارف عليه عند العرب أن «العقيد» أي رئيس الغزو هو من يقوم بتقسيم الغنيمة كما أن له الحق في اختيار الأطيب منها، فلما اقتربوا من منازل قبيلة الظفير شرع ابن منديل في إجراء القسمة، وعامل ضاري كرئيس فأعطاه نصيباً وافراً من أطيب الإبل، إلا أن ضاري لم يرض بذلك مع أن الحصة التي أعطيت له هي مما يُعطى عادة لكبار الشيوخ والفرسان، فنشب بينهما خلاف ونزاع (نتجاوز تفاصيله) أدى في النهاية إلى قيام ضاري بعد عودتهم بقتل ابن منديل.

وحين علم الشيخ صنيتان والد القاتل بتلك الفاجعة رأى أن قتل جاره وضيفه عاراً لا يمكن الصفح عنه، ولن يمحوه سوى قتل الجاني. فطلب منه أحد الجالسين التريث لعل وعسى أن يتنازل أولياء الدم، ولكنه رفض هذا

الرأي لأن من العيب أن يطلب منهم التنازل، كما أنه يرى بأن هناك حقوقاً واعتبارات أخرى في هذه القضية، لذلك أمر أخاه حمود بالبحث عن ابنه ضاري وقتله على الفور ودون تردد!

فبحث عنه حمود حتى وجده فقتله وحمل جثته إلى بيت الشيخ صنيتان الذي رفع صوته مخاطباً نساء بيته المتواجدات خلف «القاطع» وهو الساتر الذي يفصل بين مكان الرجال والنساء في بيوت الشعر فقال لهن: «صيّحن يالسويطيات مثل ما صيّحن الخالديات».

وأثناء ذلك كان أهل القتيل قد بدؤوا في الاستعداد لدفنه، وقد أمروا خدمهم بطيٍّ بيوتهم استعداداً للرحيل، ولكنهم سمعوا ضجة نساء السويط وارتفاع أصواتهن بالبكاء، ولم يمض وقت قليل حتى جاءهم من يخبرهم برغبة الشيخ صنيتان في بقائهم لديه معززين مكرمين لأنهم سيشاركونهم في دفن القتيلين. وبالفعل فقد بقوا مجاورين لهذا الشيخ الكريم.

وقد أصبحت هذه القصة مثلاً رائعاً في الوفاء للجار، ولأهمية هذه الحادثة فقد أوردها بعض المؤرخين وحددوا العام الذي وقعت فيه وهو العام (١٣١٨هـ - ١٩٠٠م)، كما ذكرها عدد من شعراء الجزيرة العربية في قصائدهم ممجدين ومقدرين للشيخ صنيتان بن سويط هذا الفعل، ومنهم الشاعر إبراهيم بن جعيثن الذي قال:

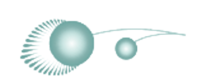
الطايلة خذاها السويطي صنيتان	من دون جاره صار للشر ماحي
يوم انتهى فرخ من الوكر سكران	صاده حمود و برقعه واستراحي
وانشد من المشهد اليا قصر برزان	وماحدرت نبعه وقصر بن ضاحي

كما أشار شاعر آخر إلى أن هذا الفعل لو لم يكن مُثبتاً ومؤكداً لقيل لمن يرويه بأن كلامه فيه «تهاويل» أي مبالغة فيقول:

ابن سويط عرب الأجداد والساس   قشع ذرا رأسه عن القال والقيل
وخذوا معطرة النمش كل نوماس   ولـولاه تخبر قيل هــاذي تهاويل

أما الشاعر شباط بن عبدالرحمن الظفيري فقد ذكر هذه القصة في ديوانه «الذكريات الخالدة» وأشار إليها في العديد من القصائد منها قوله:

ذبحة ولدهم بالتواريخ ترسم   اللي عرف تاريخهم ما نساها
ذبحوه عند الجـار قبل يتفلهم   وجلوا عن الكبد العذية صداها
ومـر بذبحه والــده ما تهضّم   صويطات ساقت جارها من ضناها



عجران بن شرفي

الشيخ/ عجران بن ضيدان بن دغيّم بن شريفي، المتوفى عام (١٣١٨هـ - ١٩٠٠م) هو من شيوخ آل علي من قبيلة سبيع، وهو من الكرام الموصوفين، ومن عاداته أن لا يذبح لضيفه الماعز، ولا يقدم القهوة إلا مصنوعة في ساعتها، كان شاعراً وكفيف البصر، إلا أنه يفعل ما يفعله المبصرون، بل ربما تفوق عليهم في بعض الجوانب.

في أحد الأيام حل الشيخ عجران ضيفاً على الشاعر والفارس فجحان ابن مران الفراوي، وهو من فخذ المريخات من قبيلة مطير في منطقة الصمّان البعيدة عن الأسواق والقرى، ومن المعروف بأن من يسكن المراتع البعيدة قد ينفد لديه شيء من الطعام أو القهوة أو الهيل فيبقى مدة من الزمن بدونه، وهذا ما حصل لفجحان حيث إنه قام بذبح خروف وأمر أهله بطبخه، ثم قام بتجهيز القهوة ولكنه لم يجد هيلاً فوضع فيها شيئاً من القرنفل «العويدي»، وكان الفراوي لا يعرف بأن ضيفه هذا هو الشيخ عجران بن شريفي علماً بأنه يسمع عنه لأن شهرته ذائعة لشجاعته وكرمه. كما أن عجران لا يعرف بأن مضيّفه هو فجحان الفراوي لأنه هو الآخر شاعر وكريم ومن وجهاء قبيلة مطير، وعندما تم تجهيز القهوة قدّم الفراوي الفنجال لضيفه الذي تبين له حين ذاقها بانها دون هيل فـ (تمثل) بهذا البيت قائلاً:

الدلّة اللي ماتبـهّـر من الـهـيل　　　مثل العجوز اللي خبيثٍ نسمها

لكن الرجل الذي أمامه شاعر مثله فقال:

نوبٍ نحط الهيل ومفطح الحـــيل　　　ومرٍ نخلي الموجبه من عدمهـا

عندها عرف عجران بأن مضيّفه شاعر وكريم فقال: «أسد يا أسد» ويعني بذلك أن الذي أمامه أسد مثله فيجب الاعتراف له بالفضل، وكذلك عذره لأن ظروف الناس لا تساعدهم في بعض الأوقات(١).

وللعلم فإن الكثير من الناس (يتمثلون) بأبيات من الشعر من قصائد ليست من نظمهم في مواقف تشبه تلك التي قيلت فيها القصيدة الأساسية، وقد جرت الأعراف على صحة ذلك، وفي هذه القصة يلاحظ أن الشيخ عجران تمثل ببيت من قصيدة قالها أسيود بن رماح الشلوي للشيخ مقبول ابن هريس «أخو حمده» شيخ قبيلة الشلاوي من بني الحارث، والمتوفى عام (١٢٦٥هـ - ١٨٤٩م) والتي يقول في بعض أبياتها:

الدلة اللي مـا تبهّـر مـن الـهيل　　　مثل العجوز اللي خبيث نسمها

من لا يكيل الكيف من بندره كيل　　　والنار تشعـم معتبينٍ حزمها

اللي الى جاء الوقت يصبر على الميل　　　هذي طبوع اللي عـــزاز شيمها

فرد عليه الشيخ مقبول بن هريس الشـــلوي بقصيدة منها قوله:

متى طلعتو يا طـــوال العناجيل　　　مثل السليمي رميها عند فمها

مـرٍ نبهـرها بجـــوز من الهيل　　　ومرٍ نخلّي طبخها من عدمها

ومن القصص الطريفة التي تروى عن عجران أنه ذهب ذات مرة إلى حائل ليأخذ «شرهته» أي مخصصه السنوي من الأمير محمد العبدالله الرشيد، وكانت ذلولاً مجهزة بكامل متطلباتها مع صرة من المال. وحين وصل حائل وجد الأمير محمد غائباً، وكان عمه الفارس والشاعر الأمير

---

(١) وردت القصة بعنوان (أسد يا أسد) في كتاب قصة مثل - ناصر بن عبدالله المسيميري.

عبيد بن علي الرشيد في مكانه، فقال الأمير عبيد لعجران يمازحه:

إن كنت تبغى قصيد فحنا قصاصيد   وان كنت تبغى مال ما من عطية

فرد عليه عجران بهذا البيت:

إليا صرت أنا قصّاد وعبيد قصّـــاد   ما للعمى عند المفتح عطـــــية

فضحك الأمير عبيد وأمر له بعطيته.

كما أن هناك قصة أخرى تدل على فطنته وفراسته رغم أنه لا يبصر، وذلك أن قومه كانوا يستدلّون به إذا أضاعوا الطريق، فكان في تلك الحال يطلب منهم إعطاءه حفنة من تربة الأرض ليقوم بفركها وشمها وبعد ذلك يتمكن من معرفة المكان. وفي أحد الأيام رغب أحدهم في اختباره لمعرفة مدى صدقه في دلالة الأرض، فأخذ يتربص به حين ارتحلوا من مكان يسمى «عروى» فقام حينها بأخذ حفنة من تربة عروى وربطها في طرف كمّه وأشهد بعض من حوله على هذا الأمر.

فساروا في طريقهم حتى وصلوا إلى مكان اسمه «مروى» عندها سأله الرجل عن اسم المكان الذي هم فيه، فطلب منه عجران حفنة من تربة الأرض فأخذ الرجل التراب المربوط في كمّه وأعطاه إياه، فقام على الفور بفركه بيديه ثم قربه من أنفه وشمّه، وبعد ذلك سكت لحظات، ثم فكر قليلاً وقال مقولته المشهورة: «التراب تراب عروى، والحراوي حراوي مروى!».

هذّال بن فهيد

يقول الشاعر بديوي الوقداني في الحث على التحلي بصفة الكرم:

إن ملكت المال لا تغدي شحوح   اطعم الجيعان وأكسي كل روح

الذهب والمال لا بدّه يـ روح   والثناء والصيت جيلٍ بعد جيل

ومن مشاهير الكرام الذين تناقل الناس مآثرهم الفارس الشيخ/ هذال بن ضمن بن مبارك بن فهيد أمير الشيابين من قبيلة عتيبة المتوفى عام (١٣٢١هـ - ١٩٠٣م) الذي يعتبر أحد النوادر في الشجاعة، وكذلك الكرم الحاتمي الذي يفوق الوصف، فقد كان يعطي المال والخيل والإبل، ومن فرط كرمه يقال: إنه لم يذبح لضيفه الماعز أو أقل من اثنتين أما الإبل فكان ينحرها بشكل اعتيادي، وكان عطوفاً شديد الرحمة بالفقراء، فيروى عنه أنه سمع في إحدى الليالي صوت طفل يبكي، فنادى ابنه وقال له: تحرَّ الخبر؛ هل الطفل من جوع وإلا من مرض!؟ فأتاه وأخبره أن الطفل جائع، فأمر في الحال بذبح خروف وطبخه، وبالفعل فقد قاموا بذبحه في الحال وتجهيزه ثم أدخلوه على والدة الطفل قبل الفجر.

وذات مرة كان يمشي وحوله قطعان كثيرة منها قطيع من الغنم، فجاءت إليه امرأة (تستحذيه) أي تطلب منه العطاء فقال لها: لك ما أمسكت يداك، فاخذت تجمع رؤوس الغنم بيديها فإذا رأتها قليلة تركتها لتضمن أكثر منها، فتكرر منها هذا الأمر مرات عديدة وهو واقف ينظر إليها ويضحك، والغنم محجوزة لها عن المشي.

فلما تعبت قال لها: سوقي هذه الرعية كلها لك.

كريم يذبح ذلول ضيفه

ترافق الشيخ عجران بن شريف مع الشيخ هذال بن فهيد لجلب حوائجهم من الإحساء. وفي طريق عودتهم مروا بديار قبيلة السهول فسألوا عمن يسكنها، فقيل لهم بأنهم الظهران وأميرهم هو الشيخ مناحي بن برجس بن معدل، وسألهم عجران عن مواشيهم فأخبروه بأنها في مرعى بعيد .

ففرح عجران بذلك لكونه كان يتمنى أن يأتي إلى مناحي في وقت عسر بسبب مغالطة سابقة فيما بينهما بحضور الشيخ هذال حول أيهم أكرم من صاحبيه!؟

فطلب من الشيخ هذال أن يتوجهوا إليه فقصدوا مكانه ونزلوا ضيوفاً عليه، فاستقبلهم بالبشر والترحيب علماً أنه في ضيق من أمره لأنهم أتوا إليه وحلاله من الإبل والغنم يرعى في مكان على مسافة بعيدة من بيوتهم.

ولكن الله قد هداه لفكرة لا مفر من تطبيقها ليتمكن من القيام بواجب الضيافة لهذين الضيفين الكريمين، فعمد إلى ذلول ضيفه عجران بن شريف، وقام بنحرها كرامة لهم، وقد قرر في نفسه أن يعوضه بخير منها عند عودة إبله من المرعى.

وكان الضيوف يظنون أن العشاء يسير لعلمهم بأن الماشية بعيدة عنهم، وبعد تجهيز العشاء قدمه لهم الشيخ مناحي في صينيته المشهورة «مرزوقة» التي أهداها إليه ابن صباح حاكم الكويت تقديراً منه لكرمه.

وكان الشيخ عجران كفيف البصر، وقد مر معنا قصص حول شدة

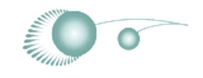
فطنته ونباهته، فلما جلس ليأكل مد يده ليبحث عن الشحم واللحم فلم يجد، فقال الشيخ مناحي: فوق!

فرفع يده فلم يطل شيئاً وكرر له الشيخ مناحي قوله: فوق فوق يا عجران!

وعندما أمسك مقدمة السنام عرف بأنها ذلوله، ولكن تصرف الشيخ مناحي أعجبه كثيراً لأن الضيف الآخر وهو الشيخ هذال ينتمي لقبيلة أخرى، وله قدر ومكانة بين الناس.

فلما انتهوا من العشاء قال عجران: أنا أشهد يا مناحي: إنك من أكرم العرب!.

فباتوا عنده تلك الليلة، وحين أصبحوا وإذا بإبل الشيخ مناحي حولهم، فبادر بإعطاء عجران ذلولاً من أطيب إبله، وذلك عوضاً عن ذلوله التي قدمها ضيافة لهم.



وكريم آخر يذبح ذلوله لإنقاذ رفيقه

رجل اسمه سعد المعيبيل من المصارير من قبيلة الدواسر، سافرعلى ذلوله متوجهاً إلى جماعته جنوب قرية الفاو، وأثناء سيره وجد رجلاً من قبيلة قحطان يمشي على قدميه، فطلب منه القحطاني أن «يخاويه» أي يكون رفيق دربه، فوافق المعيبيل على طلبه وأردفه خلفه على ذلوله، وأحياناً ينزل المعيبيل من الذلول ويترك رفيقه راكباً والعكس.

وبما أن مسيرهم كان في فصل الصيف فقد أتعبهم السفر، ثم أن ماءهم نفد، كما أن ذلولهم أصابها الوهن بسبب العطش. وعندما اقتربوا من إحدى الآبار انقطعت الذلول تماماً عن المشي فبركت، ولم تستطع لشدة عطشها القيام من محلها.

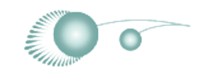
فقام المعيبيل بإنزال حمولتها من على ظهرها حتى يخفف عنها، أما رفيقه القحطاني فقد سبقه إلى البئر، وحين وصل حافته نظر إلى داخله فوجده عميقاً مطوياً بالحجارة والماء يبدو ظاهراً في أسفله، فاستدار حوله فزلّت قدمه وسقط حتى استقر فوق حجر في أحد جوانب البئر فتمسك به، ولم يستطع الحركة لأن ساقه قد كُسرت.

فاستغاث برفيق دربه الذي جاوبه سريعاً من أعلى البئر وطمأنه بأنه سيعمل على إخراجه، ولكن كيف سيتمكن من ذلك وليس معه «رشا» وهوحبل طويل قوي يُستخدم في إخراج المياه من الآبار.

وحيث إن الوقت كان في غاية الأهمية فإن المعيبيل لم يطل به التفكير، وإنما قصد ذلوله الغالية عليه فذبحها بسرعة، وقام بعمل شرائح متينة من

جلدها وصلها ببعضها حتى أصبحت كالحبل الطويل!.

بعد ذلك قام بربط طرف هذا الحبل بحجر كبير ونزل إلى رفيقه القحطاني وأحكم رباطه، ثم تسلق للأعلى وقام بسحب رفيقه حتى أخرجه من أعماق البئر. وعمل له جبارة ثم قام بتقطيع لحم راحلته وتجفيفه ليتغذى منه مع رفيقه المكسور حيث أقاما حول البئر حتى شفي صاحبه تماماً، واستطاع السير ليواصل رحلته مع رفيق سفره حتى وصوله معززاً مكرماً إلى أهله.



---

(١) من روائع القصص والقصائد الشعبية ـ مرزوق بن محمد حسين الوهبي.

الجود بالنفس

دخيل بن عبدالله البلالي، من الوسدة من بني سالم من قبيلة حرب، كان له جارة من قبيلة مطير توفي زوجها وترك لها ابناً صغيراً.

وفي أحد الأيام أراد البلالي أن يسافر لطلب الرزق، فأراد الصبي أن يرافقه، وحاول البلالي أن يعتذر له عن ذلك لصغر سنه، ولكن الصبي أصر على طلبه، كما أن والدة الصبي أبدت رغبتها أيضاً في ذهاب ابنها معه، ولم يجد البلالي مفراً سوى الموافقة تقديراً لجيرانه.

أما أم الصبي فمن شدة حرصها على ابنها فقد جاءت عند موعد السفر إلى البلالي لتوصيه وتؤكد عليه أن ابنها الوحيد أمانة معه. وبعد سفرهم مر البلالي وصاحبه بمكان قرب معسكر أحد حكام المناطق الشمالية، وذلك أثناء موقعة الشنانة التي وقعت عام (١٣٢٢هـ - ١٩٠٤م) فرصد تحركاتهما رجاله فطاردوهما.

ويقال: إن دخيل كان على جانب كبير من النشاط والسرعة مما يمكنه من الهرب، لكنه آثر مسايرة الصبي اليتيم لأنه أمانة معه، ونتيجة لذلك فقد تم الإمساك بهما حيث أخذا أسيرين وتم تقديمهما إلى الأمير بتهمة محاولة النهب.

وحيث إن دخيل يعلم بأن جزاء مثل تلك التهمة قد يصل إلى القتل فقد بادر بالكلام حين تم عرضهما على الأمير، فأخبره بأن الغلام هو ابنه، وأنه وحيد أمه التي ستموت إن جاءها خبر مقتله، وأبدى استعداده لتحمل كامل العقوبة.

فلم يلتفت الأمير لكلامه وإنما أمر بقتلهما في الحال! ورغم ذلك استمر

دخيل في توسلاته وأخبر الأمير بأن تلك التوسلات ليست خوفاً أو جزعاً من الموت، بل هي بسبب وجود والديه الطاعنين في السن مما يعني أن قتله مع ابنه سيكون قتلاً لأربعة أنفس، وطلب من الأمير الإبقاء على أحدهما. فاستجاب الأمير لتوسلاته وخيّره بين قتله أو قتل صاحبه فقال دخيل للأمير: أنا أخذت من العمر ما يكفي وهذا شاب صغير فاقتلني واترك الولد!.

فوافق الأمير، وأمر بقتله وإخلاء سبيل صاحبه، فتم قتله أمام الغلام؛ فلاحظ الأمير أثناء قتل البلالي أن الغلام قد بدا عليه الحزن والتأثر ولكن بدرجة لا تتناسب مع فجيعة الابن بأبيه، فسأله عن حقيقة الوضع فأخبرهم الغلام المطيري حين هدأ روعه بالحقيقة المذهلة.

ويقال: إن الأمير ندم كثيراً على قتل البلالي لوفائه العجيب وشجاعته النادرة.. أما والدة الصبي فإنها تأثرت كثيراً حين علمت بالخبر، وأُعجبت بفعل هذا الرجل الشهم، لكنها لم تجد ما تكافئ به صنيعه إلا الشعر، فقالت من قصيدة طويلة:

البارحة عيني حريب لها النوم	تسوقها لوعات غبر الليالي
لكن في عيني حزازات وهزوم	انحب ولا ني في نحيبي لحالي
صار القضا واللي جرى شي مقسوم	الله يبيحك يادخيل البلالي
مرحوم ياغيث المساكين مرحوم	اللي فدا بروحه شريدة عيالي
الأجنبي في قصرته دوم محشوم	أبدى عليه من الرفيق الموالي

ورغم مرور السنين وتعاقب الأجيال بقيت تلك الحادثة رمزاً من رموز التضحية والوفاء لدى عامة الناس وخصوصاً قبيلة مطير الكريمة التي لم تنسى هذا المعروف لدخيل البلالي رحمه الله، فقد قال أحد كبار شعرائها

وهو الشاعر مطلق بن حنيتم المطيري قصيدة طويلة يمدح بها قبيلة حرب، وأشار الى تلك المكرمة النادرة بقوله:

والثانية منهن عليها براهين ... سبق بها الفارس دخيل البلالي
من دون جاره ساق روحه على البين ... قلّط رقبته للخطر ما يبالي
يوم أن جود الناس مال وبعارين ... هـذا بنفسه جاد ياهمّلالي
أنا اشهد انه يستحق النياشين ... ترفع له البيضا على كل عالي



يجيران قاتل ابنهما

عمران العدواني من البجايدة من قبيلة عنزة كان من الرجال المعروفين بالكرم والشجاعة، وكان له ولد اسمهساير يخرج في أغلب الأوقات مع الماشية ليحميها من شر الغزو الذي كان سائداً عند البدو. وفي أحد الأيام رأى سارقاً يريد أن يسرق من الحلال فحاول أن يتصدى له، فأراد السارق أن يخيفه لكي يستطيع الهرب فأطلق رصاصة من بندقيته أصابت سايراً في مقتل فمات في حينه.

وشعر هذا السارق بورطته لأنه كان بديار البجايدة، وعندما ضاقت عليه الأرض بما رحبت وبدأ الرجال بالتكاثر عليه هرب إلى البيوت لعله يجد من يلجأ إليه ليكون «بوجهه» أي يجيره من خصومه، فرأى بيتاً كبيراً يدل على أن صاحبه من كبار القوم فدخل به، وقال لصاحب البيت: أنا دخيلك وبوجهك يارجل!.

فقال: دخلت. وكان صاحب البيت هو عمران والد المقتول.

وعندما جاء الرجال الذين يطاردون القاتل تصدى لهم عمران وطلب منهم الرجوع لأنه قد أجار من دخل بيته، فأخبروه بأن الرجل الذي لجأ إلى بيته قد قتل ابنه سايراً، فما كان منه إلا أن صمت متجرعاً مرارة أحزانه، فرغم هول الصدمة وقوتها أمسك بنفسه وبثباته محاولاً الصمود أمام هذه الفاجعة.

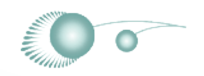
وساد الصمت المكان، وكان الرجال الموجودون ينتظرون ما يقرره والد القتيل، وفي هذا الوقت العصيب والحدث الجلل أقبلت نويّر زوجة عمران فكان البعض يتوقع أن تقوم تلك المرأة بمحاولة منع زوجها من إجارة قاتل ابنها لما يعلمونه من ضعف بعض النساء، وحين اقتربت نهرها عمران

وأمرها بالابتعاد خشية أن تكون قد خبأت خنجراً لتنال به من القاتل الذي كان يختبئ وراءه.

ولكنه تفاجأ كما تفاجأ من حوله بقولها: ياعمران ولدك خلاص راح لكن لايروح وجهك بين الرجال! والولد يعّوض والسمعة ما تعوّض. ثم قالت:

الحمد للباري صدوق المخايل — اللي بلاني بالليالي بلا أيوب
ما يستوي لك يا رفيع الحمايل — ذبحة دخيل البيت عيب وعذروب
أدخل دخيل البيت لو كان عايل — عفو عن المحروج حق وماجوب
تكسب بها ناموس بين القبايل — وما راح يخلف والذي صار مكتوب
والطيب حبله بين الأجواد طايل — ولايستوي طيب من الصبر مسلوب
خله دخيلٍ ياذعار السلايل — لو كان لابني مهجة القلب مطلوب

وبعد انتهاء قصيدة تلك الأم التي كانت تعرف لدى قومها بلقب «الآدمية» لرجاحة عقلها وكرم أخلاقها التفت عمران لمن حوله من الرجال، وأوضح لهم أنه سيجير من استجار به حتى لو كان هذا المستجير هو من قتل ابنه سايراً. فقال لهم: «ساير مثل ساير الناس».



فرس أصيل من بيت كرم

حين توفي حاكم أبوظبي الشيخ زايد بن خليفة بن شخبوط آل نهيان طيب الله ثراه عام (١٣٢٧هـ - ١٩٠٩م)، أرسل الشيخ بطي بن سهيل آل مكتوم حاكم دبي وفداً يضم بعض أبناء عمومته وأعيان دبي لتعزية آل نهيان، وبعد عودة الوفد سألهم الشيخ بطي عن فرس الشيخ زايد بن خليفة المسمى «ربدان» وهو من سلالة خيول عربية أصيلة يمتلكها آل نهيان.

فأجابوه بقولهم: إن الشيخ راشد بن أحمد بن عبدالله المعلا حاكم إمارة أم القيوين أثناء انصرافه من العزاء مر بقرب الفرس الذي كان مربوطاً أمام الحصن فأبدى إعجابه به، وكان الشيخ سلطان بن زايد بن خليفة - رحمه الله - وهو والد المغفور له بإذن الله الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان واقفاً إلى جانبه، فلاحظ إعجابه بالفرس فأهداها إليه. فأخذها الشيخ راشد المعلا وعاد بها إلى أم القيوين.

وحين سمع الشيخ بطي بن سهيل آل مكتوم ذلك أرسل قصيدة إلى الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان يعتب بها عليه ويشيد بالفرس «ربدان» لأنه من الخيول النادرة.

أما عتبه فلم يكن بسبب إهداء الفرس لأن المُهدي كريم والمُهدى إليه يستحق، ولكن هذا العتب جاء على خروج الفرس من أبو ظبي لأنها من ذكرى والدهم، فقال في قصيدته:

بركب على لّيّ قذّالها ما لان ... ولا تعثور في النكد
أخطيت ياللي معطي لحصان ... وتريد من غيره سند
مركوب شيخ مطوع السحلان ... شيخ يهابه كل حد
ليت المنايا ما عدت ربدان ... ما دام زايد في اللحد

ولما وصلت القصيدة إلى الشيخ سلطان بن زايد أرسل رده إلى الشيخ بطي بن سهيل بقصيدة قال فيها:

يا شيخ تكفى الهم والأحزان ... ما مات من خلّف ولد
ياما عطينا غاليات أثمان ... عيلات في ردّ السند
لي قينهن يرقع على الصمّان ... يبطي عجاجه ما ركد
خيلٍ مغذيات وسط عُمان ... مطلاقهن شروى الرّعد
عادات أهلنا من زمان ... يْكرّمون اللّي شهد
كلّه لعينا لابس البسهان ... بو مضحكٍ كنّه برد

وقد تطرّق الشيخ سلطان بن زايد في قصيدته إلى كرم آبائه وأجداده حين أشار إلى أن العطاء هو عادة لأهله منذ القدم وهو قوله: «عادات أهلنا من زمان» وقوله: «ياما عطينا غاليات أثمان» أي كم أعطينا الغالي والنفيس مما نملكه للناس، ومن ذلك الخيول الأصيلة التي تقل وتتناقص دوماً في مرابط الخيل بسبب كثرة العطاء، ولكنه يصفها بأنها «عيلات في رد السند» أي عجلات برد النسل حيث إن خيولهم ما تلبث أن تتكاثر ببركة الله على الكرماء من خلقه.

ابن شريدة والبيع الرابح

عبدالرحمن بن يحيى الشريدة رحمه الله، كان أحد كبار تجار مدينة بريدة وممن لهم باع طويل في أعمال الخير والبر وبناء المساجد، رزقه الله بأربعة عشر ولداً منهم محمد ومنصور اللذان خلّد الناس ذكرهما نظير ما قاما به من بذل للخير في زمن الجوع والحاجة.

فمن أجمل ما يروى عنهما قصة الصفقة التجارية الشهيرة التي وفقهما الله لها وذلك سنة (١٣٢٧هـ - ١٩٠٩م)، عندما حدثت في عامة بلدان نجد مجاعة عظيمة لقلة الأمطار، وهلاك الكثير من المزروعات والمواشي، مما أدى إلى ارتفاع أسعار ما هو متوافر من الأطعمة. وحين رأى هذان الخيّران رحمهما الله ما حل بالناس من حاجة وفاقة قاما بتوزيع ما في مخازنهما من تمور على فقراء مدينة بريدة خفية في ظلام الليل.

وفي الصباح حضرت جموع من المحتاجين لأخذ نصيبهم من التمر، وحين لاحظ والدهما حركة الناس حولهما سأل ابنه محمداً: على من بعتم التمر؟

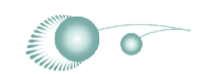
فأجابه بكلمات عفوية لم ولن ينساها الناس فقال: «بعناه على الله».

ففرح الأب وتهللت أسارير وجهه وقال: نعم البيع.. نعم البيع! ربحت البيعة إن شاء الله.

وقد قال الشاعر ناصر بن علوان قصيدة طويلة توضح تفاصيل تلك

القصة منها قوله:

وقت جرى جوع به السعر محصور ... بان القصا من قل ما ياجدوني
فازوا به اللي قدموا كل ميسور ... مثل الشريدة شي تشوفه عيوني
أنا قصير محمد هو ومنصور ... دفع البلا باموالهم يبذلوني
من طلعة النجمة لما قدّة النور ... وصحونهم بايمانهم ينقلوني
لا قيل خفوا جاء مع السوق طابور ... عجز وشيبان سواة الشنوني
باعوا على الله ما خذوا علم أو شور ... لعلهم في بيعهم يربحوني



الشيخ فهم الغامدي وخصمه البقمي

الشيخ فهم بن جبار الغامدي قتل عن طريق الخطأ رجلا من قبيلة البقوم، وكان للقتيل ابن عم اسمه عوضه حاول عدة مرات أخذ الثأر بقتل الغامدي لكنه لم يتمكن من ذلك.

وفي أحد الأيام حدثت مشاجرة بين عوضة هذا وأحد أبناء قبيلته انتهت بمقتل خصمه، فهرب عوضة واستمر في هروبه حتى دخل حدود قبيلة غامد ليلاً، وعند وصوله لأقرب بيت نادى بصوت مرتفع وقال: يا صاحب البيت أنا دخيلك وفي وجهك بالحق.

فقال صاحب البيت الغامدي: نعم أنت في وجهي.

قال ذلك دون أن يعرف أحدهما الآخر، وبعد أن أوقد الغامدي النار، وقام بواجبات الضيافة اتضح لعوضة أن صاحب الدار هو الشيخ فهم بن جبار الذي كان يبحث عنه ليقتله.

عندئذ قال عوضة: يا شيخ فهم! أنا كنت أبحث عنك لأقتلك واليوم بعد أن دخلت بيتك، وأكلت من زادك، وجعلتني في وجهك وأنت لا تعرفني فإنني متنازل عنك ومسامحك.

ففرح الشيخ فهم بذلك، وحمد الله على هذا الفرج، وطلب من عوضة أن يبقى في وجهه وجواره حتى لا يصيبه سوء من خصومه. فبقي عوضة البقمي مع الشيخ فهم وقبيلة آل مسّلم من غامد مدة طويلة. وقد رُزق الشيخ فهم بمولود فسماه عوضة على اسم جاره ودخيله البقمي، والذي أطلق عليه الناس آنذاك اسم عوضه الجلاوي. ومازالت عائلته معروفة بهذا الاسم، كما أن الصلة لا تزال وثيقة بين أحفاد هذين الرجلين - رحمهما الله.

درب الجود

الشيخ عبدالله بن هذال القريفه من البدنا من قبيلة مطير، توفي رحمه الله قبل أكثر من مائة عام، وكان ممن عُرفوا بالكرم وطيب الأخلاق وهو القائل:

النفس ما يلحق أبن آدم هـواها	كـل يموت وخاطره يطلب الزود
من لا يهين النفس ما أدرك مناها	ومن لا صبر بالكود ما يدرك الجود
ومن لا غطس بالجم ما خض ماها	عز الله أنه عن هوى النفس مردود
المرجلة لو كل غمر بغاها	ما تلحقه يا مسندي كود بالكود

في إحدى السنوات نزل مع جماعته على آبار تسمى قصيرة المجاذب تقع غرب صحراء الدهناء، فحلّ ضيفاً عليهم الشيخ/ بدر بن محمد الدويش على رأس مجموعة غازية وبعد استكمال واجبات الضيافة غادروا لوجهتهم، ولكنهم لم يوفقوا في تلك الغزوة، وفي طريق عودتهم مروا بالبدنا للمرة الثانية بغياب مواشيهم، ويقول العرف القبلي ان الخاسر من المغزى لا تقدم له الولائم، وعندما اقبل الركب على البيوت، قال زعيم البدنا طامي بن شباب القريفه: العرف معنا، وحلالنا في قلب الصحراء، فسمنها يكفي عن سمينها.

وكان من عادة الناس إذا كانوا في ركب كثير العدد ان يتوزعوا على البيوت، فنزل على بيت عبدالله بن هذال القريفه ضيوف منهم عقيد المجموعة بدر الدويش، فلم يرضى عبدالله لنفسه الالتزام بالقرار الذي يرى فيه تقييد له في اكرام ضيوفه، وكان عند بيته ناقتين يتم علاجهما، وإحدى الناقتين

تتبعها ابنتها فذبحها لضيوفه، وعندما رأى جماعته فعله ركبوا الخيل بحثاً عن أي أغنام فوجدوا رجل يجاورهم يرعى أغنامه بالصحراء، فأخذوا منه حاجتهم من الغنم، وبعد اكرام الضيوف ومغادرتهم، جاء جماعة عبدالله إليه يلومونه على احراجهم، فقال هذه القصيدة:

يا جماعه كيف ما فيكم حميّا ... كيف صيّاح الضحى ما تسمعونه

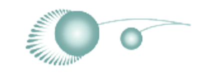
من يعاونّي على ربعٍ هنيّا ... من بغى درب المراجل يمنعونه

من لحومي الدانيه شفت الجفيّا ... من قصد درب الشكاله يذهتونه

المراجل ما تهيّا بالسويّا ... كود من عض النواجذ في سنونه

إن بغيت الشح درب الجود عيّا ... حالفٍ ما ارضي لنفسي بالمهونه

ما علينا من مسرّدة القفيّا ... كان باب الرزق منهم يقطعونه[1]



---

(١) تم النقل (بتصرف يسير) من كتاب القوافي الصعبة - للراوي والشاعر شاهر الاصقه البديني المطيري.

الشيخ جاسم آل ثاني

الشيخ جاسم بن محمد آل ثاني مؤسس دولة قطر ينتمي لأسرة اشتهرت بسمعتها الطيبة وثروتها وتجارتها الرابحة، ترجع تلك الأسرة في أصلها إلى المعاضيد من الوهبة من قبيلة بني تميم. كان الشيخ جاسم - رحمه الله - متحلياً بكافة صفات الرجولة ومكارم الأخلاق التي كان من أبرزها الجود والكرم، فقد كان كريماً محباً للخير، معروفاً بالسخاء.

وقد جلب إليه جوده وحسن أخلاقه محبة الناس، وكانت له ثلاثون سفينة تعمل في الغوص، بالإضافة إلى أنه أحد المولين لمثل تلك السفن، وكان يشتري اللؤلؤ من الغواصين بثمنه الحقيقي، ويصدره إلى بومباي بالهند، وقد كون من تلك التجارة ثروة كبيرة ينفق معظمها على الشؤون الدينية والمرافق العامة لدولته، بالإضافة إلى مد يد العون للناس وإقالة عثار الكرام والمكلومين. أما أوقافه فقد انتشرت في أماكن كثيرة داخل بلاده وخارجها.

قال عنه عثمان القاضي: كان رجلاً من فحول الرجال علماً وحلماً ورأياً ثاقباً وكرماً حاتمياً.

وقال عنه أمين الريحاني: كان الشيخ جاسم ولوعاً في جمع العبيد وعتقهم، عاش جيلاً ويزيد في قطر، فكان أميرها وخطيبها وقاضيها ومفتيها والمحسن الأكبر فيها.

أما ابنه الشيخ علي بن جاسم الملقب بـ (جوعان) فقد قال في بيان بعض صفاته:

أبوي الذي له منتهى الجود والكرم ... وللمال بذال وللحمد كاسب
حر تسامى في المعالي مطالبه ... قليل الرضا فيها كثير الطلايب
رقي ذروة العليا من المجد واشتهر ... وله في المعال كل يوم مطالب

كما أن الشيخ جاسم كان شغوفاً في فكاك الأسرى، فقد سعى في فكاك الشيخ محمد بن خليفة آل خليفة عندما تم أسره ونفيه من قبل الإنجليز إلى عدن. وحين لم يقبل سعيه قرن شفاعته بألف من كرائم الإبل، وتسعين من عتاق الخيل، وكان ذلك بعد رؤيا رآها في المنام، وقد ذكر هذه الحادثة في إحدى قصائده بقوله:

أرى البارحة من بعد هجعت الملا ... وغفى الجفن مني بالمنام وزال
إذاني مع بيت المكارم محمد ... حريب الردى يشكي علي الحال
شكا لي وشكوانا إلى الله راجعة ... يفك من عوق النجيب أغلال
فدع ذا ويا غادي على اكوار ضمّر ... كما وصف ربدٍ ذارهن اجفال
فأن تبغون المال فالمال عندنا ... جمعناه حق المكرمات أزمال
فعندي لكم من الخيل تسعين سابق ... وألف من الهجن النجاب أجلال
وعلى أمان الله إني أسوقها ... لعل عثرات الكريم تقال

كما تميّز الشيخ جاسم - رحمه الله - بتواضعه وحرصه على خدمة كرام أضيافه بنفسه عملا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم (إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه).

ومن ذلك أن بعض الأعيان من أسرة البسام من عنيزة وفدوا إليه، فاستقبلهم الشيخ جاسم، وأكرمهم غاية الإكرام، وأقام وليمة كبيرة

بمناسبة قدومهم، فلما فرغوا من تناول العشاء تولى الشيخ جاسم صب الماء على يدي كبير تلك الأسرة وهو عبد الله العبد الرحمن البسام الذي كان بصره قد ضعف. وحين أخبره مرافقه بأن الذي يصب عليه هو الشيخ جاسم كف يديه، عندها أخبره الشيخ جاسم بأن في قصره ستين عبداً لكنه يرغب في خدمة ضيفه الكريم بنفسه.

ويضاف إلى ما ذكرناه من بعض صفاته وجود جانب مهم في حياته، وهو حبه للشعر، وشغفه في مجالسة الشعراء ومحاورتهم. وتمتاز قصائده بغزارة المعاني والحكمة، ومن أشهر شعره قوله:

ياويل قاضي الأرض من قاضي السما

لا صار ميزانه عن العدل مايل

ويقول أيضاً في بيان قوة عزمه، وحمايته لكل من التجأ إليه:

صبرنا لها ما زعزع الدهر عزمنا ... ونلنا بها العليا على كل طايل

فياما حمينا كل من هو لجا بنا ... إذا صكته جيلانها والجدايل

وياما عطينا المال في ساعة الرخا ... اصغر عطايانا السبايا الأصايل

توفي - رحمه الله - عام (١٣٣١هـ - ١٩١٣م) وقد تضمنت وصيته منح الكثير من العطايا لأهل بلده من ماله الخاص [١].



(١) تم النقل باختصار من كتاب الأعلام لخيرالدين الزركلي وصحيفة العرب العدد (٧٤٩٤) وتاريخ ٢٠/ ١٢/ ١٤٢٩

أمانة ومروءة

في عام ١٣٣٧هـ باع رجلٌ من أهل البادية أغنامًا له في الرياض بمبلغ ٣٠٠ ريال فرانسي، ثم أودعها أمانةً لدى التاجر إبراهيم البصري.

وبعد مدة عاد إلى السوق ودخل إلى دكان عبد الله بن عبد الرحمن آل الشيخ؛ لقربه من دكان البصري؛ إذ يفصلهما خمسة دكاكين فقط، وكانا يتشابهان في الشكل، فسلّم عليه ظانًّا أنه صاحبه الذي أعطاه الأمانة، ثم طلبها منه.

وبما أن عبد الله آل الشيخ لا يعرفه ولم يأخذ منه أي شيء حاول أن يوضح له خطأه، ولكن الرجل كان مصرًّا على دعوى تسلُّمِه المال، وأنه إن لم يُعِدْه فان هذا يعني انه قد جحد تلك الأمانة.

وهنا رأى عبد الله آل الشيخ أن الجدال سيطول وسينتهي الأمر إلى المثول أمام القضاء، وهذا أمر لا يليق بوضعه الاجتماعي ومكانتِه، لذا قرر حفظًا لكرامته وصيانةً لسمعته أن يعطي الرجل المبلغ المطلوب الذي يُعَدُّ كبيرًا جدًّا في ذاك الزمن.

فأخذ الرجل المال وذهب إلى دياره، وبعد مدة من الزمن عاد إلى الرياض، ولَمّا حضر إلى السوق ناداه صاحبه الأول البصري طالبًا منه أخذ وديعته!

أُصيب الرجل بالدهشة، وعَلِم عِلمَ اليقين أنهُ ظلم عبد الله آل الشيخ، فخرج ليتحقق من خطئِه وتوجه إلى ابن الشيخ فوجده جالسًا في دكانه،

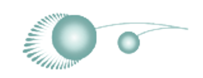
فرجع إلى البصري وقال:

أرجوك أن تُسلِّم هذا المبلغَ جارَك؛ لأنني اقترضت منه ما يقابله.

ذهب إبراهيم البصري إلى جاره عبد الله آل الشيخ وقال له: هذا مبلغٌ اقترضه منك رجل من البادية وأمرني أن أُعيده إليك.

رفض عبد الله آل الشيخ تسلُّمَه لأنه لا يتذكر أبدًا أنه أقرضَ أحدًا مبلغًا بهذا القَدر، وبينما هما يتحاوران إذ دخل الرجل وانحنى إلى رأس عبد الله آل الشيخ معتذرًا عن خطئه غير المقصود، فقَبِل اعتذارَه ودعا له بخير.

رحمهم الله جميعًا وعفا عنهم.



شالح بن هدلان

الشيخ شالح بن حطّاب بن هدلان فارس وشاعر من الخنافر من قبيلة قحطان، عاش حتى عام (١٣٤٠هـ - ١٩٢٢م) تقريباً، كان معروفاً بشجاعته وحسن أخلاقه ووفائه وكرمه. أما شعره فكان يتميز بالحكمة والبلاغة وسهولة الحفظ مثل قصيدته التي يقول في بعض أبياتها:

يا قاطع الحسنى ترى العلم شاره   لابـد دورات الليـالي يـدورن
من حل دار النـاس حلّوا ديـاره   لابـد مـا تسكـن ديـاره ويغبـن
ومن شق ستر الناس شقّوا ستاره   ومن ضحك بالثرمان يضحك بلا سن

كما أن هناك أبياتاً من قصائده يتمثل بها الناس مثل قوله:

أنـا خويّـك في الليـالي المعاسير   وإلا الـرخـا كـلٍ يسـد بمكـاني

كان له أخ أصغر سناً منه، مثالياً في شجاعته وأخلاقه يسمّى الفديع، وكان وفياً معه ويرى أن التفاني في خدمة الأخ الأكبر فضيلة من الفضائل لا يعادلها شيء، وبعد أن كملت رجولته تحمل عن أخيه شالح كل مشاق الحياة.

أما شالح فكان يرى بأن الفديع هو كل شيء بالنسبة له، وكان يفضله على نفسه، لكن المنية لم تمهل الفديع هذا الأخ المُحب البار بأخيه حيث قتل في إحدى المعارك التي كانت سائدة بين الناس في الزمن الماضي.

لذلك فقد رثاه شالح بقطرات من دم قلبه في قصائد كثيرة منها أبيات يعدد فيها فضائل أخيه يقول فيها:

أمس الضحى عديت روس الطويلات وهيضت في راس الحجا ماطرا لي
وتسابقن دموع عيني غزيرات وصفقت بالكف اليمين الشمالي
وجرّيت من خافي المعاليق ونّات والقلب من بين الصناديق جالي
واخوي ياللي يم قارة خفا فات من عاد من عقبه بيستر خمالي
ليته كفاني سو بقعا ولا مات وأنا كفيته سو قبرٍ هيالي
وليته مع الحيين راعي الجمالات وانا فدا له من غبون الليالي
واخوي ياللي يوم الاخوان فلات من خلقته ما قال ذا لك وذا لي
تبكيه هجن تالي الليل عجلات ترقب وعدها يوم غاب الهلالي
وتبكي على شوفه بنيّ عفيفات من عقب فقده حرّمن الدلالي
عوق العديم إن جا نهار المثارات والخيل من حسّه يجيهن جفالي

وبعد أن كبر أبناؤه توسم فيهم الخير، وقرّت عيناه بهم لما يتحلون به من شهامة وشجاعة، ولكنه كان يرى في أوسطهم ذيب الذي كان له من اسمه نصيب تقارباً كبيراً في صفات وأخلاق عمه الفديع، والتي منها محبته للمغامرة بنفسه والمخاطرة في القتال. فكان يحبه محبة عظيمة، ومن شدة تلك المحبة كان يقبّله دوماً وكأنه طفل صغير، ثم ينفجر باكياً، وقد كان ذلك يجري أحياناً على مرأى من جماعته الذين لاموه مراراً على هذا التصرف، فكان يجيبهم بأنه يرغب كل يوم في تقبيل ذيب ليودّعه لأنه يتخيل أنه سيحرم منه في وقت مبكر، ثم قال قصيدة مشهورة منها قوله:

ما ذكر به حي بكى حي يا ذيب واليوم انا بابكيك لو كنت حيّا
وياذيب يبكونك هل الفطر الشيب إن لايعتهم مثل خيل المحيّا

ويبكيك من صكت عليه المغاليب إن صاح بأعلى الصوت ياهل الحميّا

أنا اشهد إنك بيننا منقع الطيب والطيب عسر مطلبه ما تهيّا

وكان بر ذيب بوالده قد بلغ حداً لم يسبقه إليه أحد، فكان لا ينام أبداً وأبوه لم ينم، وكان يجلب لأبيه حليب الإبل، وعندما يأتي به إليه أحيانا ويجده نائماً يبقى واقفاً واضعاً الإناء على يده، وربما حام حول أبيه، وذكر الله بصوت منخفض إلى أن يستيقظ، ثم يقبّل جبينه ويناوله الحليب. وكان من عادته حين رحيلهم أن يسبق الظعينة، ويوقد النار، ويقوم بتحضير القهوة لوالده، ثم يشرع في تجهيز الطعام مما اصطاده في طريقه.

وذات يوم أقبل شالح يتقدم الظعينة، ولكن ذيب كان حائرا متحسرا بماذا يقابل أباه لأنه لم يحصل في ذلك اليوم على شيء من الصيد، وأخيراً استقر رأيه على أن ينحر ذلوله الأصيلة التي يساوي ثمنها الكثير من الإبل. وبالفعل فقد أخفاها بين الشجر لئلا يراها والده، ونحرها وأخذ من أطايب لحمها وطبخه بالإناء الذي اعتاد أن يقدم به لحم الصيد لوالده.

وعندما وصل شالح استقبله ابنه كعادته، فأجلسه على فراش قرب النار، وصب له القهوة وجلس يؤانسه بالحديث. ولكن عندما تصاعدت رائحة اللحم عرف شالح أنه ليس بلحم صيد، فسأل ذيباً عنه، فأجابه بقوله: «هذا شبب» أي صيد. فكرر أبوه السؤال، وكرر الابن تلك الإجابة، فعرف الوالد النتيجة وقال لابنه: ذبحتها يا ذيب؟

فقال ذيب: هي تفديك يا أعز والد.

وقد برز نجم ذيب وذاعت شهرته بسبب فروسيته وشجاعته النادرة، وتناقل الناس الكثير من القصص حول المعارك التي خاضها.

وذات ليلة كان ذيب ساهراً مع والده الذي كان يداعبه، ويلقي عليه بعض الأشعار، والتي كان آخرها قصيدة منها هذه الأبيات:

يا ذيب أنا يا بوك حالي تردّا   وأنا عليك من المواجيب ياذيب
تكسب لي اللي لاقح عقب عدّا   طويلة النسنوس حرشا عراقيب
أنا أشهد أنك باللوازم تِسدّا   لو حال من دونه عيالٍ معاطيب
ليثٍ على درب المراجل مقدّا   ما فيك يا ذيب السبايا عذاريب

وبعد أن قال والده هذه الأبيات بطريقة المزاح أسرّها ذيب في نفسه، وعندما نام والده ذهب خفية لبعض أصحابه من الشبان وطلب منهم أن يرافقوه، فشدوا مطاياهم وركبوا معه، وبعد ثلاثة أيام قصدوا بئراً معروفة ليتزودوا منها بالماء، وعندما اقتربوا منها رأوا أناسا قد سبقوهم إليها فآثروا الانتظار بعيداً حتى لا يروهم، وكان أحد القوم الذين سبقوهم صياداً فأخذ بندقيته وتوجه إلى الوادي الذي انحدر منه ذيب ورفاقه باحثاً عن الصيد، وعندما رأى ذيباً وجماعته اختفى تحت شجرة، ثم أطلق عليهم عياراً نارياً أصاب ذيباً في مقتل، فسقط على الأرض فتسابق إليه رفاقه وضموه إلى صدورهم فوجدوه جسداً بلا روح وقد فارق الحياة، فانهالوا عليه بالقبل وودعوه بدموعهم الساخنة ثم وضعوه في كهف بجانب الوادي وقفلوا راجعين إلى أهلهم، وحين وصولهم توجهوا إلى شالح وأخبروه بما حدث، فكان هذا الخبر فاجعة كبرى عليه ومصيبة من أعظم المصائب، وقد رثى ابنه بقصائد كثيرة كان أولها قصيدته الشهيرة التي منها قوله:

ياذيب أنا بوصيك لا تأكل الذيب كم ليلة عشـاك عقـب المجاعه
كم ليلة عشّاك حرش العراقيب وكـم شيخ قـوم كزّتـه لـك ذراعـه
كفّه بعدوانه شنيع المضاريب ويسقي عـدوّه بالوغى سمّ ساعه
بيته لجيرانه يشيد على الطيب وللضيـف يبنـي في طويل الرفاعه
كنـي بعد فقده بحامي اللواهيب وكنـي غـريب الـدار مـالي جماعه

وبقي شالح وقتا طويلاً يتجرّع أحزانه، وذات ليلة سمع شخصاً اسمه الهويدي يبحث عن صقره الذي ضاع منه أثناء صيد الحباري، ويرفع صوته بقوله: «يا من عيّن الطير»، فناداه شالح فأسرع الهويدي إليه مستبشراً لظنه أن لديه علماً عن طيره، ولكنه تفاجأ بأن من دعاه هو شالح الذي كان لا يزال غارقاً في أحزانه، لذلك بادر بتقبيل جبينه والاعتذار منه، فطلب منه شالح الجلوس، ثم قال له قصيدة منها هذه الأبيات:

إن كان تنشد يالهويدي عن الطير الطـير والله يالهـويدي غـدا لـي
طيري عذاب معسكرات المسامير إن حـل عند قطيّهـن الجفـالي
إن جا نهـار فيـه شر بلا خير وغدا لهن عند الطريح اجتوالي
إن ادبرن خيل وخيـل مناحير وغـدن مثل مخـزمات الجمـالي
يضحك إليا صكّت عليه الطوابير طير السعد قلبه من الخوف خالي
غيث لنا وان جت ليالي المعاسير وبالشـح ريف للضعوف الهزالي
يسقي ثراه من الروايح مزابير تمطر على قبر سكن فيه غالي[1]

(١) تم النقل (بتصرف يسير) من كتاب أبطال من الصحراء ـ الأمير محمد بن أحمد السديري.

البكاء على الجيران

رجل اسمه حصبان المطوطح العنزي أصيبت إبله بمرض الجرب، وهذا المرض خطير قد تنتقل عدواه إلى الإبل الأخرى بمجرد الاقتراب منها، أو من مورد الماء الذي تشرب منه، أو الارض التى ترعى فيها.

وبعد مضي وقت سمع من أحد رعاة جماعته كلاماً مؤثراً، فرحل من أرضه واستمر في سيره حتى نزل على الكتمة من بني علي من قبيلة حرب، فأقام في مكان بعيد عن الناس خشية من نقل العدوى إلى إبل المحيطين به، وعند ورود الماء كان يحبس إبله بعيداً في الخلاء، ويجلب لها الماء على ظهور خمسة من الجمال.

واستمر على هذا الحال حتى انكشف أمره لمن حوله، فأدركوا سر انعزاله، وقدّروا له حرصه على عدم نقل العدوى إلى إبلهم رغم المشقة التي يعانيها في جلب الماء. فذهب جماعة منهم إليه وطلبوا منه النزول إلى جوارهم، وأشعروه بأنهم راضون بما كتب اللّٰه عليهم من خير أو شر، وبعد إلحاحهم عليه تمكنوا من إقناعه بنقل بيته إلى جوار بيوتهم قرب الماء، فأقام بينهم معززاً مكرماً.

أما إبله فقد كانوا يقدمونها حين ترد لشرب الماء على إبلهم التي كانوا يمنعونها أصلاً من ورود البئر حتى صدور إبل جارهم، ولم يكتفوا بذلك وإنما خصصوا مكاناً آخر بقرب بيوتهم لمعالجتها بعلاج الجرب المعروف في ذلك الزمن وهو نتف أوبارها، ثم دلك مكانه بالدهن والقطران واستمروا في علاجها حتى شفاها اللّٰه.

وحيث إن اللّٰه كريم يحب الكرماء من خلقه، ولحسن نياتهم، وصدق

توكلهم على الله فإن عدوى الجرب لم تنتقل إلى إبلهم التي كانت ترد على البئر نفسه وهي أكثر من سبعة قطعان.

وبعد مدة اشتاق العنزي إلى أقاربه ودياره فاستأذن جيرانه بالرحيل، وعاد إلى حيث مضارب قبيلته. وأثناء جلوسه ذات يوم مع جماعته أخذ يقص عليهم قصته مع جيرانه الحروب وما كان يفعله بنفسه في البداية حين يحبس إبله في الخلاء ويجلب لها الماء من مسافات بعيدة، وأوضح لهم المواقف المشرّفة لجيرانه والتي تركت في نفسه أثراً لن ينساه، وكان يحبس عبراته في جوفه أثناء سرد قصته وقد اغرورقت عيناه بالدموع، وما أن انتهت القصة حتى انهمر باكياً على ذكراهم الطيبة.

فقال له أحد الجالسين: ليه تبكي ؟

فسكت بعض الوقت، ثم رد عليه بقصيدة منها قوله:

قالوا علامك يوم تبكي على حرب ... تبكي عليهم قوم ما ينبكوني
قلت البكاء ماهو على البعد والقرب ... أبكي عليهم عقب ماقصّروني
عن أذوادهم ذودي يقدم على الشرب ... يشرب على كيفه وهم يقهروني
اربع سنين وكل مرحول لنا جرب ... ما أوموا عليها بالعصا يطردوني
يا عنك ماهم من هل الهزب والزرب ... ولا هم لغرة جارهم ينظروني
ربعن على الشطّات والهون والكرب ... بسموتهم وفعولهم يمدحوني
تنشر لهم البيضاء من الشرق للغرب ... ولاني بلاحق فضل من قدّروني

ستر المعازيب

الشيخ صيَّاح المرتعد كان مع عدد من جماعته من ولد سليمان من قبيلة عنزة في سفر، وفي طريقهم مروا بمضارب للسويد من قبيلة شمر، وكان من عادات أهل البادية إذا كانوا كثيري العدد أن يتفرقوا على البيوت كمجموعات قليلة، وذلك بقصد التخفيف على «المعزّب» وهو المُضيّف حتى يستطيع القيام بواجبات الضيافة، فتفرقوا على البيوت.

وحلّ صيَّاح المرتعد وبعض مرافقيه ضيوفاً على بيت رجل يقال له: مطير الحمزي السويدي الشمري، وصادف أن مطيراً لم يكن موجوداً في بيته، ولكن استقبلتهم زوجته ورحبت بهم. وقد لاحظ صياح أن المرأة تخرج من بيتها ثم تعود وهي في حالة شديدة من الارتباك والحيرة، كما لاحظ الدموع قد ملأت عينيها والتي تنبئ عن قلة حيلتها وشدة حرجها، فاقترب منها واستوضح منها الأمر فأخبرته بأن بيتها لا يوجد فيه ما تقدمه لهم، فهدّأ من روعها وطلب منها أن توقد النار ليتصاعد الدخان، وأن تضع القدر عليها ففعلت ما أمرها به، ثم طلب منها أن تحضر شيئا من السمن فقالت: لا يوجد إلا القليل من الدهن القديم فقال: أحضريه، فأحضرته.

فدهن يديه ووجهه وطلب من جماعته أن يفعلوا مثل فعله بعد أن أخبرهم بحال المرأة ففعلوا ما أمرهم به ثم غادروا البيت .

وقد كان يقصد من إيقاد النار إخبار الجميع أن أهل هذا البيت قاموا بواجب الضيافة على أكمل وجه. وأما مسح الوجه واليدين بالدهن فكان القصد منه أن تفوح منهم رائحة الدسم، ويصدق الآخرون تناولهم لوجبة

دسمة، كل ذلك ليستر على هذا البيت وأهله لكرم أخلاقه وشهامته.

وحين عاد صاحب البيت أخبرته زوجته بأمر الضيوف واسم كبيرهم. فقام إلى أحد شياهه ووضع عليها «وسماً» وهو علامة توضع على الماشية، وأشهد من حوله بأن تلك الشاة هي ذبيحة لضيفه صياح المرتعد.

ومرت السنوات وأنجبت تلك الشاة وطرح الله في نتاجها البركة فتكاثرت حتى وصلها عددها ثلاثين رأساً، وبعد مدة من الزمن أرسل مطير إلى صياح المرتعد يدعوه لزيارته، وحين حضر وقام بواجبات ضيافته أخذ بيده إلى المكان الذي عزل فيه قطيع الغنم.

وقال له: إن لك حقاً صائباً، وإن هذه الغنم كلها من نصيبك، فهي نتاج الشاة التي وهبتها لك بدلاً من ذبيحتك، ثم أردف الحمزي قائلا:

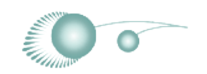
يالمرتعد واجبك حق وصايب ... عند الرجال اللي عليهم مواجيب
وسمتها بحضور كل القرايب ... ذبيحتك يا منقع الجود والطيب
لو ما بغينا ما علينا غصايب ... لاشك ضيف البيت له حق ومصيب
جمّلتنا عن عايزات المعايب ... يالمرتعد عادتك ستر المعازيب
عسى فداك اللي يدور السبايب ... لا قام علّق بالمعزّب كلاليب
جربت شينات السنين النوايب ... والجود من الماجود مابه تكاذيب
ترفع لك البيضاء بروس الجذايب ... عادتك يا صياح نطح المصاعيب

فقال الشيخ صياح: إن الذبيحة ليست لي وحدي فأول من يجلس على الطعام هم الضيوف، ثم صاحب البيت وجيرانه، ثم صاحبة البيت.

وأصر على أن حقه من تلك الغنم هو الثلث، أما الثلثان الآخران فهما من

نصيب صاحب البيت وجيرانه، ثم قال أبياتاً من الشعر يرد بها على مطير الحمزي يقول فيها:

الطيب بحجاج المشبب وهايب ... والحر حر ويجذبنه مجاذيب
ثلث لنا وثلث لبيتك حلايب ... والثلث للجيران هم والأصاحيب
وأم العيال اللي تنوف الحبايب ... لوغبت عنها ما دخل فكرك الريب
نشمية ما خلّفوها الزلايب ... نعم بها تسوى كثير الرعابيب
لو غبت تستر غيبتك وأنت غايب ... أحرص عليها يا حصان المطاليب
ومن جرّب الدنيا وشاف العقايب ... تراه ما يشنا ولا يذكر العيب
واللي يسب لشبعة البطن خايب ... أصل القرى زين النبا والتراحيب[1]



(١) المجموعة الكاملة لكتاب قطوف الأزهار ـ عبدالله بن دهيمش بن عبار العنزي.

معشّي القطارين

هذا اللقب للشيخ منشد بن مناحي آل حبيّب رحمه الله شيخ عموم عشائر آل غزي الفضول من قبيلة طيّئ، المتوفى عام ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م، كان له مضيف قرب محطة القطار في مدينة الناصرية جنوب العراق يقدم فيه العشاء للركاب يوميًّا أيامَ الجوع والحاجة، وفي أحد الأيام تعطل القطار المغادر ثم وصل القطار القادم فاجتمع في مضيفه ركاب القطارين.

عرفه الناس بكرمه المنقطع النظير الذي يأتي امتدادًا لكرم أسلافه، فكانت له سفرة طويلة لتقديم الطعام، إضافة إلى صحن كبير اسمه (إسبيشن)[(١)] يحمله أربعة عشر رجلًا.

كما اشتهر بشجاعته وذكائه وقدرته على حل المشاكل الكبيرة والمستعصية، فقد حدثت ثورة في محافظة ذي قار عامَ ١٩٣٥م اثناء حكم الملك غازي، وسيطر الثوّار على بعض المناطق، فطلبتِ الحكومة دعمَ القوات البريطانية لقمع الثورة، ولمّا بَلَغَ الشيخَ منشد آل حبيب خبرُ استعداد القوات البريطانية للتحرك رغب في تأخيرهم وعرقلة تحركهم؛ لكسب الوقت والتمكن من التهيؤ وإجراء المفاوضات اللازمة لحقن الدماء، ولذا أمر أحد أبطال قبيلته؛ وهو باجي بن حيال الغزي أن يأخذ سلاحه ويسرع في إضرام النار في الجسر الخشبي الوحيد الذي ستعبر عليه القوات، وحرق باجي الجسرَ فعلًا، وحدثَ خلال ذلك تبادلُ إطلاق النار مع تلك القوة، واستطاع باجي قبل انسحابه قتلَ ضابط بريطاني.

---

(١) تم التواصل مع الشيخ الفاضل/ سامر آل حبيّب (حفيد الشيخ منشد) للاستفسار عن أصل تسمية الصحن (إسبيشن)، فأفاد أن الناس في منطقتهم كانوا يسمّون عربة نقل الحجر والحصى المتصلة بالقطار (إسبيشن)؛ وهي عربة طويلة وعميقة ومكشوفة من الأعلى، وكان صحن الشيخ منشد طويلًا وعميقًا، فشبّهوه بعربة الإسبيشن، وبعد أن تداول الناس ذلك التشبيه أخذ الصحن هذا الاسم.

وقد نجح الشيخ منشد مع شيوخ آخرين في السيطرة على الأوضاع التي انتهت بعقد اتفاق بين الثوار والحكومة، وبعد بضعة أيام قُبض على باجي وحكم عليه بالإعدام، ووافقَ صدورُ الحكم وفاةَ الابن الأكبر للشيخ منشد، وجاء وفد حكومي يحمل برقية تعزية من الملك غازي.

فقال لهم منشد: هل تعزونني بابني الميت أو الذي سيموت؟

فتعجبوا من كلامه وقالوا: لم نفهم!

فقال: إن باجي بن حيال بمنزلة ولدي، فقولوا للملك إن تعزيتي هي العفو عنه.

فأصدر الملك غازي أمرًا بالعفو عن باجي إكرامًا وتقديرًا للشيخ منشد آل حبيب.

وجديرٌ بالذكر أن الأجيال المتعاقبة لتلك الأسرة من الأبناء والأحفاد ساروا على خُطى الآباء والأجداد في بذل المعروف وإغاثة الملهوف في مواقف مشهورة؛ منها موقف حصل للشاعر شنار بن مديبغ مع الشيخ محمد بن منشد آل حبيّب حين أجدبت ديار هذا الشاعر، وارتحل بإبله متوجهًا نحو العراق، وفي مسيره بعث بقصيدة إلى الشيخ محمد؛ يقول فيها:

يا شيخ انا مشيت ممشى يشيّب   داري بعيدة والدهر حدّنى حد
امشي وانشّد عن محل الحبيّب   أهل الصخا والجود جدٍ ورا جد
حمولةٍ من كل خير قريّب   اهل الثناء والمدح من عصر منشد

فأمر الشيخ محمد آل حبيّب باستقباله ثم اكرمه غاية الإكرام، كما قام بمنحه إحدى مزارعه الكبيرة.

مصوّت بالعشاء

أول من صوّت بالعشاء في سنين القحط والجدب هو الشيخ تركي بن مقحم بن مهيد شيخ الفدعان من قبيلة عنزة الملقب بـ «المحيي»، والذي عاش في القرن الثاني عشر من الهجرة، وكان ذلك التصويت في منطقة نجد.

فقد اجتمع الناس حولهم في إحدى سني المجاعات، فكان يأمر بتجهيز الطعام، ثم يأمر أحد عبيده بأن ينادي بأعلى صوته « العشاء يا جيعان»، ثم تلاه في التصويت ابنه جغثم، وعندما توالت سنوات القحط على منطقة نجد ورحلت منها قبائل عنزة خرجت قبيلة الفدعان من نجد باتجاه البادية السورية وذلك عام (١٢٣٢هـ - ١٨١٧م) تقريباً.

أما التصويت فقد استمر مرتبطاً بأسرة المهيد لأن الأبناء والأحفاد ساروا على خُطى أسلافهم في هذه المكرمة، فكانوا ينادون بالعشاء على فترات متفاوتة وبالأخص في سني المجاعات.

وفي القرن الماضي برز في شهرة التصويت الشيخ مقحم بن تركي بن جدعان بن مهيد المتوفى عام (١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م) لأنه صوّت بالعشاء مرتين حيث كان تصويته الأول عام (١٣٢٧هـ - ١٩١٠م) في سنة المجاعة المسماة (سنة جلغيف) والتي شهدت أربعين ليلة لم ينقطع فيها نزول الثلج.

أما تصويته الثاني فقد كان عام (١٣٣٥هـ - ١٩١٧م) في السنة المسماة (سنة الحقة) والتي صوّت فيها الشيخ مقحم بالعشاء لمدة عام كامل، وكان عدد الحضور يقدّر بالآلاف وقد أمر الشيخ أن تطفأ الأنوار عند وضع الطعام

لعلمه بأن هناك نساء فقيرات يحضرن متخفيات لتناول الطعام، وأخذ ما يتيسر منه.

ومن القصص التي تروى حول كرم الشيخ مقحم بن مهيد - رحمه الله - وتواضعه أن شاعراً اسمه كريدي القشعمي ساءت أحواله المعيشية، فقرر التوجه إليه للنيل من عطائه، وفي الطريق تعرّض لبعض المشاق والمصاعب التي زادت من سوء حاله حتى إن ثيابه قد تمزقت وأصبح في حال يرثى له، وقد صادف وصوله وجود مناسبة كبيرة في بيت الشيخ مقحم تواجد فيها جمع كثير من الناس منهم عدد من الشيوخ والوجهاء، فسلّم كريدي ثم جلس في طرف المجلس. وبعد وقت قليل من وصوله أقبل الخدم والعبيد يحملون العشاء، وبعد تهيئته وترتيبه قال عليان عبد ابن مهيد للشيخ: اقلط ياعمي أنت وضيوفك.

فقام الجميع وجلسوا على الطعام عدا الشيخ فإنه حيا بضيوفه، ثم بقي واقفا لأنه لاحظ أن كريدي لا يزال جالساً في مكانه مع الرجال الذين يعتبرون من أهل المكان. وجرت العادة أن يكون جلوسهم على الطعام بعد قيام الضيوف، لذلك فقد استنكر الشيخ على عليان عدم الاهتمام بهذا الضيف الغريب فقال لعليان: اسمع ياعليان! ترى الضيف ضيف الله ماهو ضيف «الهدوم» أي الملابس.

فاستوضح عليان من الشيخ عن الشخص المقصود، فأشار إلى كريدي الذي استغرب من ملاحظة الشيخ له رغم كثرة الناس في المكان، فتوجه عليان إليه، وحين قيامه ناداه الشيخ وطلب منه الجلوس إلى جواره. فجلس كريدي صاحب الثوب الممزق البالي إلى جانب الشيوخ والوجهاء على صينية

ابن مهيد المشهورة «أم الحَلق».

وكان الشيخ قد بدأ يبدي اهتماماً بكريدي ويعتني به ويقطع له من اللحم، وحين قام مَنْ حولهم بعد الانتهاء من الطعام طلب منه الشيخ البقاء حتى شعر بأنه قد أوشك على الشبع، حينها بادره بسؤاله عن وضعه ومطلبه؟

فقال له كريدي: أنا عاني على الشيوخ.

فرد عليه الشيخ مقحم بكلمات تدل على الكرم الخالص الذي يميزه عن كثير من الكرماء قائلاً له: «حنّا يعنون لنا ثلاثة من الناس، واحد مالت عليه الدنيا نعطيه ونستره، وشاعر نخاف من لسانه ونعطيه، وفقير له عيال جوعى نعطيه لوجه اللّه».

فقال كريدي: أنا شاعر ياطويل العمر!

فقال الشيخ: ترى جماعتي الفدعان فيهم شعراء كبار. لذلك أرى أن تكون القصيدة بيني وبينك ويجيك المقسوم إن شاء اللّه.

قال كريدي: لا يا شيخ! أنا قصيدتي طيبة. قال له الشيخ: أنت حر.

وبعد أن قاموا وجلس الناس في أماكنهم وقف كريدي وقال قصيدة جزلة في معانيها والفاظها وحين انتهى قال له الشيخ مقحم: « أنت بوجهي ياكريدي عن الفقر والحاجة ما دمت حي.. وأنا بوجه اللّه».

الملك المؤسس

بما أننا بصدد جمع القصص المؤثرة التي تتحدث عن مآثر من عُرفوا بكثرة البذل وسعة العطاء فإن الحديث عن كرم الملك عبدالعزيز - رحمه الله - وسخائه سيبين لنا أنه أحد أولئك العظماء الذين أدركوا أن الإنسان في هذه الحياة إنما يسمو بقدر ما يعطي لا بقدر ما يأخذ.

ففي كتاب «ملامح إنسانية من سيرة الملك عبدالعزيز» [(١)] الصادر عن دارة الملك عبدالعزيز حول المحاضرة التي ألقاها خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز في جامعة أم القرى بتاريخ ١٤٢٩/٣/٢١هـ، روى فيها قصصاً عن شخصية المؤسس الذي ملأ اليقين قلبه فأصبح ملكاً في كل خصلة من خصال الخير وشمائل الوفاء.

يقول: «كان عبد العزيز ينظر إلى شعبه دائماً بأنهم جزء لا يتجزأ منه، وكان يستقبل المواطنين من أنحاء البلاد في الرياض أو أينما يكونون، ليقابلوه ويستفيدوا من كرمه الفطري، وكان يعتني بهم، ويسأل عن احتياجاتهم وأحوالهم، وعندما اشتدت الأزمة الاقتصادية بسبب الحرب العالمية الثانية خصص مواقع متعددة للضيافة، وتقديم الطعام إلى المواطنين لرفع معاناتهم، وانتشرت المخيمات والمطابخ والمخابز والمبرات في أنحاء البلاد لتوفر للمواطنين احتياجاتهم الأساسية من الغذاء».

روى خير الدين الزركلي في كتابه «شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز» أنه في يوم من الأيام كان يتجه نحو عرفة، ورأى جَمَّالا، وتوقف

---

(١) ملامح إنسانية من سيرة الملك عبدالعزيز ـ الملك سلمان بن عبدالعزيز آل سعود ـ دارة الملك عبدالعزيز ١٤٣١هـ.

بالقرب منه، وجاء وسلم عليه، وسأله الملك عن أحواله، ثم ناوله صرة نقود، وبعدما تحركت السيارة قال السائق للملك: إن الصرة التي أعطيت الرجل كانت ذهباً، وليست نقود فضة.

فطلب الملك من السائق العودة إلى الرجل، وكان السائق يعتقد أن الملك سيستعيد تلك الصرة ويستبدل بها صرة أخرى، لكنه فوجئ بأن الملك يخبر الرجل أن الصرة التي أعطيت له هي صرة ذهب، وأن الواحد منها بعشرين من النقود العادية، ونبهه حتى لا يخدعه أحد لعدم معرفته بذلك، وأمر السائق أن يمضي في المسير قائلا: أعطاه الله.

وكان الملك عبد العزيز يربي أبناءه على الكرم، وذلك من خلال دروس عملية تحث على العطاء لإشعارهم منذ الطفولة بأن الجود لا يُفقر.

فقد حكى الزركلي أيضاً في كتابه أنه كان في معيته في إحدى نزهاته برفقة أخيه الأمير عبد الله وبعض المستشارين، وكان في السيارة أحد أبناء الملك في سن الخامسة، فدفع إليه الملك قبضة من دراهم الفضة، وبدأ يلعب بها الطفل، ثم قال له الملك: وزع على الإخوان الذين في السيارة، فوزعها كلها، ثم التفت إليه، وسأله: أين الدراهم؟ فمد الأمير الصغير يديه فارغتين، فقال له الملك: سيعوضك الله عنها، فأعطاه غيرها، وما زال يعطيه وهو يوزع، فأدركنا على الفور أن الأب العظيم كان يلقّن صغيره درساً عملياً في الكرم.

ويروي عبدالحميد الخطيب في كتابه «الإمام العادل» قصة عن كرم الملك عبدالعزيز فيقول:

شكا إليه رجل مضايقة الدائنين له، وأن عليه مائة جنيه ذهباً، وطلب من جلالته المساعدة بسدادها، فأمر أن يُحقق في ذلك فثبت أنه مائة جنيه،

فكتب بخطه على الطلب بإعطائه مائة جنيه، ولكنه تغلب عليه الكرم فكتب ثلاثة أصفار بدلاً من صفرين «يعني ألف جنيه» ولما وصل الأمر إلى مدير المالية لاحظ ذلك الغلط فذهب إلى جلالته لتصحيح الغلط، فما كان من جلالته إلا أن قال: «ليس القلم أكرم مني، اصرفوا له ما قسمه الله له» فأعطي الرجل ألف جنيه فأخذها وانصرف داعياً .

ومن القصص التي تروى عن كرمه أنه حين دخل الأحساء وجد مالاً كثيراً، فأمر خادمه (شلهوب) أن يوزع المال كله على الجيش، ولكن الخادم استأذن الملك أن يُبقي بعض المال احتياطاً إذا دعت إليه الحاجة، فغضب الملك عبدالعزيز وقال: «وزعه كلّه لا يَبقى شيء، أنا أريد مُلكاً، ما أريد تجارة»[1].

وكان مسافراً ذات مرة «فغرز» عدد من سيارات حاشيته، أي غاصت إطاراتها في الرمال، ورفض كعادته أن يترك مكانه حتى يتأكد من أن جميع السيارات قد خرجت من الرمل، فنزل من سيارته وجلس في ظل شجرة، وفجأة وقف أمامه بدوي لم يعرف أنه الملك لأنه كان يلبس ثوباً بسيطاً وغترة، وجلس بجانبه وقال له: أين الشيوخ؟

فأجابه الملك مبتسماً: لا بد أنهم مع الرجال الذين تراهم.

وانتظر البدوي أن تسنح له فرصة لرؤية الملك، وحينما تم إخراج جميع السيارات من الرمل قام الملك من مكانه وأخذ حفنة من الريالات وأعطاها إياه، وحينئذ مد البدوي يده وقال: السلام عليك يا عبدالعزيز.

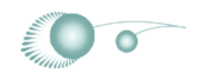
فسأله الملك: كيف عرفت أني عبدالعزيز؟

---

(١) أسد الجزيرة ـ ناصر بن محمد الهماش آل عاصم.

فقال: لا أحد يعطي بكرم مثلك[١].

وشاهدٌ آخر يدل على كرمه - رحمه الله - ما روي عن رجل وفد إلى الملك عبدالعزيز من أهل مسقط، وقدّم لجلالته نوقاً عمانية أصيلة، فأمر جلالته له بعشرة آلاف ريال وقُيد اسمه من ضمن ضيوف ذلك اليوم، وفي اليوم التالي جاء العماني صاحب النوق، وسلم على الملك عبد العزيز وسأله عما إذا كان قد تسلم العشرة آلاف، فأجاب الضيف بـ «لا»، فغضب الملك عبد العزيز، وسأل عن سبب عدم تسليم ضيفه المال المحدد، فكانت إجابة أمين المال بأنه دفع المبلغ، وأخذ إيصالاً من المستلم، ولدى التحري اتضح أن ثمة رجلا آخرِ تسلّم المبلغ لتشابه اسمه مع اسم الضيف العماني، فأُحضر هذا الرجل وأُفهم ما حدث! خشي عندها أن يسترجع منه المال الذي أخذه، لكن الملك عبد العزيز قال له: هي لك من عند الله، ولم يأمر- طيب الله ثراه - بأخذها منه، فخرج من مجلس الملك يحمد الله ويدعو له، وأمر الملك عبدالعزيز لصاحب النوق بمثلها أيضاً[٢].



---

(١) توحيد المملكة العربية السعودية - محمد المانع.

(٢) صحيفة الإقتصادية العدد رقم ٦٦٩١ وتاريخ ١٣/٣/١٤٣٣هـ.

أولـئك آبائي

نعم آبائي.. رغبت ان أختم صفحات هذا الكتاب بالكتابة عنهم، لأن التدوين في الزمن الحاضر يكتسب ثقة ومصداقية قد تتلاشى أو تقلّ بعد رحيل كبار السن الذين يشهدون الآن على دقة وصحة ما يتم كتابته وتدوينه.

فقد كانت ولادة جدّي/ يحيا بن عثمان بن إبراهيم العساف رحمه الله في مدينة عيون الجواء بمنطقة القصيم عام ١٣١٦هـ - ١٨٩٨م حيث نشأ فيها وتعلم القراءة والكتابة وما تيسر من القرآن الكريم وعلوم الدين.

توفي والده قبل ان يبلغ الثامنة من العمر، فاحتضنه ورباه أميرُ عيون الجواء الأمير/ عبد الله بن محمد العساف -رحمه الله- وهو جد معالي وزير الدولة الدكتور/ إبراهيم بن عبد العزيز بن عبد الله العساف.

وكان والده يعمل بالتجارة في بلدته، ويمهل الناس في سداد ما عليهم من مستحقات مالية، وبسبب سوء الظروف المعيشية آنذاك لدى كافة طبقات المجتمع فإن ورثته لم يتمكنوا من استيفاء حقوقهم لدى الناس، إذ اجتاحَ عامةَ البلدان قحطٌ شديد تلاه وقوعُ مجاعة عظيمة في سنة الجوع الشهيرة عام ١٣٢٧هـ التي استمر أثرها سنين عدّة حتى قرر كثيرٌ من أقاربه وأبناء عمومته مغادرةَ عيون الجواء إلى البلدان المختلفة لطلب الرزق، فخرج يحيا مع قوافل العقيلات ساعيًا إلى البحث عن عيش أفضل في وقت مبكر قبل بلوغه الرابعة عشرة من العمر.

واستقر به المقام في العراق عند الشيخ فهد بن عبد المحسن الهذال

شيخ مشايخ قبيلة عنزة رحمه الله، الذي أسّس ابنُه الشيخ متعب بن فهد الهذال في ذلك الوقت (البيرق)؛ وهو قوة قتالية للتجنيد بلغ عددها ٢٣٠٠٠ مقاتل، فالتحق بتلك القوة، وقد وافقَ وقتُ التحاقه أن الشيخ متعب الهذال كان في حاجةٍ ماسة إلى وجود كاتب خاص، فتعذّر تحقيق طلبه؛ بسبب ندرة المتعلمين آنذاك، وبما إن يحيا من الكتبة المميزين فقد عمل كاتبًا لدى الشيخ متعب الذي جعله ضمن خاصّته بعد أن لمس فيه الصدق والأمانة.

وقد جرى ليحيا -رحمه الله- موقفٌ جعله يحظى بمكانة مرموقة بين الناس في سن مبكرة في غربته؛ ذلك أن الشيخ متعب -رحمه الله- كان يضع ودائع مالية لدى بعض الرجال المقربين منه، وفي أحد الأيام كان لدى الشيخ/ متعب صرةً كبيرة مليئة بالنيرات الذهبية فناولها يحيا العساف، وبعد عدة أيام توفي الشيخ متعب بشكل مفاجئ عامَ ١٣٣٧هـ - ١٩١٩م.

وفي إحدى الليالي بعد انتهاء مراسم العزاء وانفضاض أهل المجلس دار حديث بين الشيخ فهد الهذال وابنه الشيخ محروت بيّنوا فيه استغرابهم من عدم تلقيهم شيئًا من أموال الودائع التي كان يودعها ابنه الشيخ متعب لدى الناس عدا شيء يسير منها.

وبما أن يحيا العساف كان أمينًا ذا مبادئ راسخة نتيجةَ نشأته الصالحة وانتمائه إلى أسرة كريمة من بيت أمارة عريقة في نجد؛ فقد أفادهم فورًا بأن لديه صرة كبيرة من الذهب كان الشيخ متعب قد ناوله إياها قبل وفاته بأيام قائلًا له: «خذ يا يحيا»، وكان ينوي سؤاله عنها هل هي وديعة أم عطية؟ وبما أن الشيخ متعب قد توفي قبل إيضاح هذا الأمر فإن ذمته لا تسمح له بأخذها.

وبهذا التصرف كبر في أعين الناس حوله، وأعجب به الشيخ فهد الهذال أشد الإعجاب، وأوصى ابنه الشيخ محروت به خيرًا، واختتم وصيته له بقوله: «اعتبر يحيا أخوك»، وقد نفّذ الشيخ محروت -رحمه الله- وصية والده، وأصبح يحيا كاتبًا ومستشارًا أمينًا وصديقًا مقربًا إلى درجة أنه كان يقرّبه أكثر من بعض أبناء عمومته -يشهد على هذا كثير من الرجال المعاصرين من أسرة الهذال الكريمة وغيرهم من كبار السن ممن سمعوا عن عمق تلك العلاقة-، فطاب ليحيا المقام مع الهذال وجماعتهم الحبلان المميزين بطيب الخِصال وحسن المعشر، وبعد تسع سنوات استأذن يحيا من صديقه الشيخ محروت في ترك عمله ليتفرغ للتجارة، فبقي مع الحبلان واستوثقت بينهم عُرى المحبة والتقدير، وعاش معهم كأنه فرد منهم مدةً جاوزت أربعين عامًا، وما تزال المحبة والألفة والرابطة القوية تجمع بين أبناء يحيا العساف وأحفاده وأسرةِ الهذال وجماعتهم الحبلان ومَن حولهم.

ومما يحسب ليحيا -رحمه الله- تصديه لأصحاب العقائد الباطلة من المعممين وغيرهم ممن كانوا يترددون على مجالس شيوخ القبائل وأعيانها بهدف نشر شركهم ومعتقداتهم الباطلة، فكان حريصًا أشد الحرص على مواجهتهم؛ لكشف زيفهم وتفنيد أباطيلهم.

أما تجارته فقد شمِلت بيع المؤن للبادية، وجلب الإبل والغنم من العراق إلى بلاد الشام، وكان يرافقها بنفسه، ثم بدأ يرسلها مع ابنه الأكبر عبدالله الذي شهد له كلٌّ من عرفه بقوة الشخصية منذ صغره، إضافة إلى كونه مُهابًا لا يهاب المخاطر، فقد تحمّل عن والده كثيرًا من المسؤوليات قبل زواجه عامَ ١٩٤٢م وهو في الرابعة عشرة؛ إذ تولى رعاية حلال والده من الإبل التي

كان يرافقها زمنًا يصل أحيانًا إلى أربعة أشهر، ورافق مراتٍ كثيرة تجارةَ والده من الغنم سيرًا على قدميه إلى الأسواق المعروفة آنذاك؛ مثل سوق (عذرا) في سوريا، وسوق (أجفور) في الأردن، ولم تخلُ تلك الرحلات من التعرض لبعض المواقف الخطيرة بسبب كثرة الأحداث في تلك المدة على حدود بعض الدول العربية.

وقد وردت قصة شيّقة في سبع صفحات من كتاب (سنوات من عمري) للمؤلف: حماد بن سليم البلوي، وهو من الموظفين القدامى في الحكومة السعودية، وتدور القصة حول ركوبهم طائرةَ نقل عسكرية سعودية دخلت خطأً إلى الأراضي العراقية، وبسبب نفاد الوقود نزلت الطائرة في مطار (النخيب)؛ وهي قرية صغيرة غرب العراق، وحصلت لهم مواقف كثيرة مع السلطات العراقية، فتدخل يحيا العساف وابنه عبدالله -رحمهما الله- في هذا الأمر بعد أن عرفا أن الطائرة سعودية؛ إذ كفلوا ركاب الطائرة وطاقمها، ثم تردد عليهم عبدالله بن يحيا وأخذهم في سيارته إلى بيت والده على دفعات لتناول طعام العشاء الذي كان في عدة صحون، وفي كل صحن خروف وظبي كاملين، وقد بقي طاقم الطائرة محلَّ اهتمامهم وحفاوتهم حتى سمحت لهم الحكومة العراقية بالمغادرة.

وتجدر الإشارة إلى أن يحيا -رحمه الله- كان على تواصل مع أقاربه طوال مدة غربته؛ يتابع أخبارهم، ويواسي محتاجهم حتى عاد إلى السعودية ونزل في بلدة (الجديّدة) الحدودية، فكان مكانه مقصدًا للناس في تلك المدة التي وقع فيها قحط شديد تأثر بسببه أغلب أهل البادية سنةَ ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م، وكان -رحمه الله- على عادته في ترك بصمات واضحة في كل موقع

يحل فيه؛ فقد استضاف جموعًا من الناس، ووزع الطعام على المحتاجين حوله ممن يترددون على موارد الماء القريبة، حتى لقبه الناس بـ(فرّاج)؛ لكثرة مساهماته في أعمال الخير في تلك السنة، وكان -رحمه الله- حريصًا على إظهار شعائر الدين؛ ومن ذلك أنه حين سمع في المذياع نبأ وفاة الملك عبد العزيز -رحمه الله- جمع الناس حوله وصلّى بهم صلاة الغائب.

وفي عام ١٣٧٧هـ انتقل إلى مدينة عرعر في السنوات الأولى لإنشائها على خط الأنابيب (التابلاين)، فسكن فيها مع أسرته كلها، ولم يفارقْه ابنه الأكبر عبدالله الذي يُعَد رفيقَ دربه، وساعِدَه الأيمن وعضيدَه، فقد استمر في تحمل كامل أعباء أسرته، وتلبية جميع متطلبات عمل والده؛ لعدم وجود من يسانده فالذي يليه في السن من إخوانه لم يتجاوز آنذاك العاشرة من عمره.

وقد أصبحوا من وجهاء عرعر ومؤسسيها، وكانت أبواب منزلهم مشرّعة في جميع الأوقات حين كان كثير من الناس في أمسّ الحاجة إلى الطعام والمأوى، فيجتمع في بيتهم دائمًا الشيوخ والوجهاء وذوو الحاجات والفقراء ليحظوا جميعًا بالرعاية والتكريم على حد سواء، كما أن بيتهم كان ملاذًا للعجزة والضعفاء، وفي ذلك يقول الشاعر بشير الحجر:

يوم البيوت عشاش وقصور طينا ... بيتك يا ابن عسّاف بالخير معتاد
قدام بابه يبركن الهجينا ... وقت الصباح وتالي الليل هجّاد
بيتٍ نعرفه من قديم السنينا ... من سيّسوا عرعر قديمين الأجداد

أما الأملاك التي ورثها يحيا في بلدته (عيون الجواء)، وحقوقُه لدى

الناس فقد أقام عليها وكيلًا من أقاربه؛ وهو العم محمد العلي العساف -رحمه الله- ليستوفي حقوقه من المقتدرين، ومن ثم يعيد توزيعها على المحتاجين، وجرى بينهما مراسلات (محفوظة) تؤكد إحداها توجيهه بمحو جميع الديون عن غير المقتدرين لوجه الله تعالى، وقد توفي -رحمه الله- في مدينة عرعر في شهر رمضان عامَ ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

ونعود للأبن الأكبر (والدي عبدالله) الذي كان رفيقَ درب والده وتحمّل عنه أغلب المسؤوليات في وقت مبكر حتى بعد استقرارهم في مدينة عرعر فمع أنه كان متزوجًا وله عدد من الأبناء والبنات، فقد ذكرنا سابقاً انه استمر بالسكن مع أسرته ومزاولة عمل والده بأعمال صرافة العملات مع مهام أخرى مختلفة؛ مثل نقل البضائع بين حدود الدول، وكان هذا العمل يحقق كثيرًا من الأرباح والمكاسب بسبب ما يتطلبه تنفيذها من تعب وسهر مصحوب بمجازفات كثيرة وخطيرة، وتلك مهام يعرف تفاصيلَها بعضُ كبار السن، فكان -رحمه الله- كالعامل الأمين يسلّم والده جميع مكاسبه دون أن يُنقص منها أي شيء، وحينما انتقل والده بعد عدة سنوات إلى منزل آخر ترك له المنزل القديم تقديرًا لجهوده، وأعطاه أحد المحلات التجارية التي يمتلكها ليستقل بعمله الشخصي.

وبعد مدة وجيزة حدث أمر وضّح شدة برّ عبد الله بوالده وحرصه على طاعته؛ فقد طلب منه والده أن يعيد البيت والدّكان اللذين أعطاه إياهما؛ لأنه سمع عن عدم جواز تخصيص الوالد أحد أبنائه بعطاء دون بقية إخوانه، وقد أثار هذا استغرابَ بعضِ من حولهم؛ بسبب معرفتهم التامة بجهودَ عبد الله الذي تعب وسافر وسهر وخاطر وأفنى زهرة شبابه في خدمة

والده وأسرته، وهو صاحب الدور الرئيسي في تنمية تجارة أسرته وجمع تلك الممتلكات! ومع ذلك فقد نفّذ رغبة والده، وأعاد إليه الدكان والبيت دون أي نقاش أو تردد؛ لِما يعلمه عن والده -رحمه الله- من وَرع وتَديّن.

ثم بدأ بالعمل الدؤوب لحسابه الخاص بعد مشاركته بعضَ التجار، وقد بارك الله له في تجارته وأعماله؛ فاتجه إلى العمل في استيراد السيارات من ميناء طرطوس في سوريا وبيعِها وتسويقها في المناطق الشمالية للملكة، وكان من المشهود لهم بالسماحة في بيعه وشرائه مع إمهاله المعسرين في سداد ما عليهم من مستحقات مالية، وكان له الفضل بعد فضل الله على أغلب من شاركوه في أعماله التجارية أو رافقوه في أسفاره، كما كان حريصًا على مد يد العون والمساعدة لمعارفه الذين يلتقي بهم في سوريا، والقادمين إليها بهدف استيراد شاحنات المرسيدس متوسطة الحجم التي كان لها رواج كبير لدى أبناء البادية في بداية السبعينيات الميلادية، فكان يتولى رعايتهم وتوجيههم بما لديه من خبرات لتعريفهم بأسرار تلك المهنة، ويأخذهم إلى بعض مواقع البيع المعروفة هناك؛ مثل المنطقة الحرة في دمشق وغيرها، ويعلمهم طريقة الفحص والشراء، وإجراءات التخليص الجمركي وإعادة التصدير.

وكان يقبل باليسير من حقه في شراكاته التجارية المختلفة إذا تبين له وجود أي لبس أو خطأ، وقد أمضى أغلب حياته في مدينة عرعر التي كان من أبرز وجهائها وأعيانها، وامتاز بكثرة صداقاته وعلاقاته التي جعلت منزله مفتوحًا للجميع يتردد عليه الضيوف والعابرون الذين يستقبلهم بحفاوة بالغة مع بشاشته المعهودة التي يستقبل بها جميع زائريه سواءٌ أكان الضيف أميرًا أم فقيرًا.

وفي عامَ ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م انتقل إلى المنطقة الشرقية، وقد أجمع معارفه وجيرانه هناك على محبته وتقديره، فكانوا يَعُدّونه بمنزلة الأب، ويستمعون لنصحه وتوجيهاته، ويجتمعون في مجلسه، وكان يُولي إصلاحَ ذات البين عنايةً وأولويةً خاصة؛ إذ سافر مراتٍ كثيرة لهذا الغرض.

توفي والدي عبدالله -رحمه الله- في مدينة الدمام عام ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م تاركًا سمعته الطيبة ورصيدًا وافرًا من الأوفياء الذين جمعته بهم علاقاتٌ مميزة في مراحل عمره، وقد تأثر لوفاته كثير من الناس؛ منهم الشاعر: فرحان بن قيران ابن هندي أحد أبناء أصدقائه القدامى، الذي رثاه بقصيدة طويلة منها هذه الأبيات:

فقدوا العسّاف رجّال باللازم يبين ... مثل نجم الجدي بين النجوم الساريات

حَرّ قلبي كلما اذكر رجالاً راحلين ... بالعواصف يشبهون الجبال الراسيات

مثل عبدالله عوين اللي ماله عوين ... ما يردنه دموع العيون الجاريات

نعم أولئك آبائي..

الذين مهدوا الطريق لمن خلفهم من الأبناء والأحفاد ليسيروا على نهجهم بعد أن غرسوا فيهم حب الخير وبذل المعروف حتى صاروا مثلًا في الرجولة والعطاء وعلوّ الهمة، ومن خيرة رجال الوطن الذين خدموا البلاد في كثير من المجالات، فشهِد لهم كل من عرفهم بالنخوة والحميّة مع الإخلاص في أداء أعمالهم، والحرص على قضاء حوائج الناس، إضافة إلى حسن التعامل مع جميع فئات المجتمع، فأكسبهم هذا رضا الناس ومحبتهم.

وأكتفي بإشارة يسيرة فقط إلى من يكبرونني سناً وقدراً.. وهم:

العم/ صالح بن يحيا العساف:

شخصية مرموقة وقامة شامخة ﰲ المجتمع، وهو أحد أبرز رجال الأعمال بمنطقة الحدود الشمالية، وعضو سابق ﰲ مجلس المنطقة، تولى رئاسة الغرفة التجارية الصناعية بمنطقة الحدود الشمالية مدة اثني عشر عامًا، وهو صاحب مبادرات اجتماعية، قدَّم لأهله ومجتمعه الكثير، ويتميَّز بشخصية تمتلك حضوراً قويّاً ومهيباً، ويحظى بعلاقات واسعة مع كل أطياف المجتمع.

كما ان ديوانه مفتوحاً على الدوام أينما أقام سواء ﰲ منزله بمدينة عرعر أو منزله الآخر بالظهران، وكذلك ﰲ أثناء سفره خارج المملكة، إذ إن ديوانه عامراً بأهله وضيوفه ومن حوله من المصطافين الذين يترددون على البيوت المملوكة له ﰲ مصيف صلنفة بسوريا ومدينة طرابزون بتركيا.

الأخ/ عبد العزيز بن عبد الله بن يحيا العساف:

من وجهاء منطقة الحدود الشمالية وأعيانها، وعضو سابق ﰲ مجلس المنطقة، عمل قبل إحالته على التقاعد رئيسًا لفرع وزارة الحرس الوطني بمنطقة الحدود الشمالية، ويُعدُّ من الشخصيات الراقية بأخلاقه وتعامله، وله ثقل واحترام ﰲ أسرته ومجتمعه.

وهو صاحب أيادٍ بيضاء وروح نقية، ويتميَّز بشخصية هادئة ورزينة معها الكثير من خصال الخير، وقد تحمّل المسؤوليات ﰲ سنٍّ مبكرة من عمره، وفتح منزله منذ بداية شبابه، وما يزال مجلسه عامرًا بروداه بعد صلاة الجمعة، وكذلك بعد صلاة المغرب يوميًّا.

العم اللواء م/ محمد بن يحيا العساف:

عمل في المديرية العامة لحرس الحدود، ثم قائدًا لقوة الطوارئ الخاصة في منطقة الحدود الشمالية، ثم قوة الطوارئ الخاصة بمنطقة المدينة المنورة، ثم مساعدًا لمدير شرطة منطقة الحدود الشمالية، وعمل أيضًا في شرطة منطقة حائل ومنطقة نجران، ثم انتقل للمنطقة الشرقية وتدرج في المناصب حتى جرى تعيينه مديرًا لشرطة المنطقة الشرقية.

عرفه الناس مضيافاً ليّن الجانب مخلصاً في أداء الأعمال الموكلة إليه، مع شدة طيبة قلبه المقرونة بطيب أفعاله.

الأخ اللواء م/ عثمان بن عبد الله بن يحيا العساف:

كريم الفِعال والسجايا، لطيف المعشر، دائم التفقد لمن حوله، خدم الوطن بإخلاص في مواقع أمنية مختلفة، ويُعدّ من المؤسسين للمديرية العامة لمكافحة المخدرات، كُلِّف بالعمل مديرًا لإدارة المكافحة الخارجية، وشارك في إعداد اتفاقيات دولية مع تمثيل البلاد في كثير من المؤتمرات والمحافل، وكانت جهوده محل إشادة دول كثيرة بعد نجاحه في إحباط خططِ لبعض شبكات المخدرات الدولية وأعمالِها، حصل على درجة الماجستير في العلوم الأمنية، ثم جرى تكليفه بالعمل مديرًا لإدارة شؤون المكافحة في المديرية العامة لمكافحة المخدرات، ثم عُيِّن مديرًا للإدارة العامة لمكافحة المخدرات بمنطقة الرياض.

ويُعَتبر من الرجال الأكفاء الذين اعتمدت عليهم الدولة في كثير من الأمور الهامة والحسّاسة؛ مثل المشاركة في إعداد إستراتيجية المملكة في مكافحة المخدرات المرفوعة عامَ ١٤٢٦هـ إلى مقام مجلس الوزراء.

الأخ اللواء م/ ابراهيم بن عبد الله بن يحيا العساف -رحمه الله-:

عمل في إدارة الأحوال المدنية في مدينة عرعر، ثم التحق بمدارس الحرس الوطني، وعمل بعد تخرجه في مواقع مختلفة خلال مراحل التطوير، بعد ذلك جرى تكليفه بالعمل مديرًا للإدارة العامة لمكافحة المخدرات في وزارة الحرس الوطني، وأدارها بكل إخلاص وتفان، وحققَ كثيرًا من الإنجازات في محاربة تلك الآفة الخطيرة التي تستهدف الوطن والأسرة والمجتمع، توفي -رحمه الله- في شهر رمضان من عام ١٤٤٢هـ ٢٠٢١م، وكان خبر وفاته صادماً ومؤلماً لكل أقاربه ومعارفه ومحبيه، ولعل سر تلك المحبة هو نقاء سريرته وطهارة قلبه التي يؤكدها حرصه الدائم على حفظ لسانه عن الخوض في أعراض الآخرين أو التدخل في خصوصياتهم.

العم/ عبد الكريم بن يحيا العساف:

تم تعيينه في وزارة المالية منذ عام ١٤٠٤هـ، وتدرّج في الترقيات حتى المرتبة الرابعة عشرة، وكان موضعًا لثقة رؤسائه؛ إذ أُسندت إليه مهام كثيرة، ومثّل الوزارة في الاجتماعات واللجان الهامة، وعمل مديرًا لإدارة القروض في وزارة المالية مدةَ ستة عشر عامًا، وهي من الإدارات الهامة المعنية بدعم المشاريع الكبرى؛ كالمستشفيات، والجامعات الخاصة، والفنادق وغيرها، فكان مثالاً يحتذى به في الصدق والإخلاص، فقد قام بإدارة هذا العمل بشفافية تامة ونزاهة مشهودة جعلتِ المُراجع يحصل على حقوقه وفق الأنظمة بكل يسر وسهولة، أما غير المستحق فلا يحصل على شيء مهما بذل من الشفاعات المزوجة أحيانًا ببعض الإغراءات التي لم تُثنِه عن نهجه ومساره في أداء أمانة العمل الوظيفي حتى استكمل مدة الخدمة النظامية ليتقاعد من عمله طاهرَ العِرض نظيفَ اليد.

الأخ العقيد م/ سليمان بن عبد الله بن يحيا العساف:

تم تعيينه في جوازات منطقة المدينة المنورة، ثم انتقل للعمل في منفذ جديّدة عرعر على الحدود العراقية، وانتقل بعد ذلك إلى جوازات المنطقة الشرقية وجرى تكليفه بالعمل مديرًا لجوازات محافظة حفر الباطن، وامتاز بإدارة ملف القبائل (العائدة) بكفاءة عالية امتزج فيها إخلاصه لعمله مع سعة اطلاعه ومعرفته التامة بالقبائل وشيوخها وتاريخها وأحلافها، فكانت جهوده محل تقدير المسؤولين والمواطنين؛ بسبب سعيه الدائم إلى نفع الآخرين برفع المرئيات والمقترحات إلى مقام وزارة الداخلية، هادفًا إلى وضع الحلول وتذليل الصعوبات التي تعترض آلية تطبيق بعض أنظمة ولوائح العمل.

وانتقل بعد ذلك للعمل في إدارة المتابعة بجوازات المنطقة الشرقية، وبعد تقاعده استقر في محافظة حفر الباطن، واستمر على نهجه المعروف في الحرص على استضافة الأقارب والمعارف وغيرهم في المخيمات الربيعية.

الأخ العميد دكتور/ يوسف بن عبد الله بن يحيا العساف:

عمل في إدارة جوازات مدينة عرعر بمنطقة الحدود الشمالية، ثم انتقل للعمل في جوازات المنطقة الشرقية، وأُسندت إليه مهامٌّ وأعمالٌ ميدانية كثيرة، وشارك في العديد من اللجان الهامة، ثم جرى تكليفه بالعمل مديرًا لجوازات منفذ البطحاء الحدودي مع دولة الإمارات العربية المتحدة، واختتم عمله الوظيفي قائدًا لدوريات الجوازات بالمنطقة الشرقية.

استكمل مسارات التعليم وحصل على دبلوم عالي في التحقيق الجنائي، ودبلوم عالي في الرعاية الاجتماعية، وعلى درجة الماجستير في العدالة الاجتماعية، ودرجة الدكتوراه في القانون العام، يضاف إلى ذلك أنه سخيّ اليد ويمتلك شخصية جذابة ومؤثرة تلفتُ انتباهَ الناس من حوله، كما تفوّق في مجال الرماية وحصل على العديد من الجوائز والميداليات.

بسم الله الرحمن الرحيم

من يحيى العساف الرحيم إلى جناب الأخ المكرم محمد العلي الحمد العساف حفظه الله

بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام أدام الله علينا وعليكم نعمت
الإسلام مع السؤال عن الأحوال أحوالنا من فضله تسركم من جميع الوجوه
ثم نفيدكم حقنا من ريع الطينه وأصل الذي في القصيبه والقليب الذي
في أثال وجميع ما يخصنا في أطرافكم كنا موكلين عليه العم إبراهيم العبد العزيز
العمر رحمة الله عليه ولما توفي صار اختياري أنك وكيلنا على جميع الذي لنا
تجمعه في دفترك وتأخذ ثلث من جميع ما تجمع عوضا تعبك والثلثين
تنفق على الذي يستحقها من الجماعه الأقرب فالأقرب وحسب الحاجه
كامرأة أو شايب أو عيال صغار ولهذا رجوتك تقوم بالواجب
وتجعلنا ممنونين هذا وارجو لك الدعاء [illegible]
لأمير وجميع الجماعه صغيرهم وكبيرهم كما من عندنا عبد الله اليحيى وصالح
[illegible] محمد اليحيى وعبد العزيز العبد الله اليحيى يخصونك بالسلام ودمتم بالسرور

٧ جماد الأولى ١٣٧٠

أخيك
يحيى العساف الرحيم

ودار أبوي أجرتها إلى عبدالله
المحمد اليوسفي على شرط أنه يعمرها جميع ما تحتاج إليه
ومقابل ذلك يسكنها خمسة عشر عام بدون دفع أجره
هذا ما [illegible]

صورة رسالة من يحيا العساف مؤرخة في العام ١٣٧٠ هـ ١٩٥٠ م

حول تحصيل حقوقه من المقتدرين ثم توزيعها على المحتاجين

بسم الله الرحمن الرحيم

الى حضرة الولد المكرم محمد العلي الف في المجذر حفظه الله

نبعث السلام عليكم ورحمة الله وبركاته والسؤال عن صحتكم اسئل المولى
ان تكونو بخير وعافية وان سئلتم عنا فلله الحمد والمنة باحسن
حال ثم وصلنا كتابكم الشريف وحمدنا الله على سلامتكم تذكر
بان الوالد رحمه الله طلب ابراهيم الـ ح الله يرحمه مائة شوكي
ولما سئلنا وجدنا اولاده يريدون تتصدقون عليه بالوفا
ولهذا عزمنا ترك المبلغ لوجه الله تعالى راجين ثوابه من الله الى
الوالد ويكفي ولله الحمد بخير كذالك الطلبات الذي عنده الذي
يجدون عليه طلب وهو غني خوذ وتم والصدقوا به على المحتاج
والذي ما هو غني اتركوه والحوالة عليه لوجه الله هذا
ما لزم هدوا سلامي الى اولادكم والاخوان وعموم الجماعة كبارهم
وصغارهم كما من عندنا اعيالنا عبدالله واخوانه والعم علي الفريد
وعبدالله العشان وعموم الجماعة السلام عليكم

صورة رسالة أخرى من يحيا العساف حول محو الديون عن غير المقتدرين لوجه الله تعالى





ملحق

كرماء من الشعوب



كرماء من الشعوب

في الأجزاء القادمة من هذا الكتاب سيتم - إن شاء الله - تخصيص ملحق خاص قبل نهاية كل جزء حول شعب من الشعوب نتناول فيه **الجانب المشرق** من حياة كرام تناقل الناس أخبار جودهم وحرصهم على العطاء بكافة صوره وأنواعه.

وعلى ذلك فسوف أورد هنا إشارة موجزة إلى ما سنتطرّق إليه بمشيئة الله في الجزء الثاني حول عدد من كرماء الغرب.

ولو التفتنا إلى الوراء لوجدنا في تاريخنا إشارات إلى كرمهم، فهذا عمرو بن العاص رضي الله عنه الذي كان من أعرف الناس بخصال الروم قد أشاد ببعض طباعهم، واصفاً إياهم بقوله: «إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرّة بعد فرّة، **وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف**».

نعم؛ إن من يتحلى **بتلك الصفة** وهي الحرص على مد يد العون للمسكين واليتيم والضعيف.. سيشعر مباشرة بحاجات من حوله مهما علا شأنه أو كبر منصبه أو بلغت أرقام أرصدته، وقد انعكس أثر هذا على مجتمعاتهم التي تمكن أغلب أفرادها من العطاء كل حسب جهده.

أما بعض أثرياؤهم فقد ضربوا أروع الأمثلة في الإنفاق والبذل، فمنهم من بلغت تبرعاته مليارات الدولارات، كما نجد بينهم عدداً كبيراً ممن قاموا بفتح دور الرعاية الاجتماعية وملاجئ الأيتام والمدارس والمستشفيات إضافة إلى التكفل ببعض النفقات الباهظة لبعض الأبحاث والبرامج الطبية

والعلمية، وغير ذلك من المنافع التي تجاوزت حدود بلادهم لتشمل عدداً من الدول الفقيرة.

و أما وارن بافيت وهو من كبار المتداولين في البورصة فقد كان له شأن كبير في البذل والعطاء حيث تبرع بـ ٨٥٪ من ثروته التي تقدّر بنحو (٤٤) مليار دولار بهدف المساهمة في تحسين الصحة والتغذية والتعليم.

وقبل عدة سنوات طالعتنا وسائل الإعلام المقروءة والمرئية بخبر عن بيل غيتس مالك شركة مايكروسوفت الذي تبرع بـ ٥٠٪ من ثروته التي بلغت آنذاك (٥٦) مليار دولار، ولم يكتف بذلك بل سعى مع زوجته مليندا فرينش حتى تمكنا من إقناع أربعين مليارديرا بالتبرع بنصف ثرواتهم.

وسوف نذكر بمشيئة الله شيئاً من قصصهم وعجائب كرمهم، منها تفاصيل لقصة فتاة تطوعت في مساعدة اللاجئين أثناء حرب البوسنة، وسرعان ما تمكنت من إنشاء منظمة خيرية بلغ عدد أفرادها ثلاثة الآف متطوع، وحين أدهشها ما تلقاه أمامها دوماً من تسهيلات تفوق حتى توقعاتها قالت: (افعل الخير ينفتح لك من الأبواب الموصدة ما لم تكن قرعته).



الشيوخ الجدد

في الماضي كنا نعرف نوعين فقط من الشيوخ لهما اتصال مباشر بالإمارة أو العلم الشرعي، ولكن في زماننا ظهر نوع جديد؛ هو شيخ المال الذي منحه بعض الناس هذا اللقب؛ لكثرة أرصدته واستثماراته التي (قد) تحقق له القدرة على نفع الناس.

وقد شمل هذا الكتاب كثيرًا من الآيات والأحاديث والقصص التي تؤكد أن فعل الخير وبذل المعروف يحقق لفاعله المجد والسؤدد في الدنيا مع عظيم الأجر في الآخرة.. ولكننا نتوقف هنا لنورد عبارة ترددها المذيعة الأمريكية أوبرا وينفري قد تساعدنا في تقييم هؤلاء الشيوخ، ومعرفة مدى استحقاق بعضهم هذا اللقب بعد أن نتأمل أفعالهم وأحوالهم؛ فهي تقول: «املأ كأسك حتى تفيض لتعطي الآخرين».

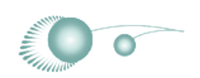
وقد عملت هي بمقولتها تلك، وسوف نورد في الجزء الثاني -بمشيئة الله- قصصًا تدور حول كرمها، وشدة حرصها على نفع الآخرين، ومواساة المحتاجين، وإمطار الخير على من حولها، وقد رآها كثير من الناس عبر الشاشات حين أهدت سيارة من نوع بونتياك لجميع ضيوف إحدى حلقات برنامجها البالغين (٢٧٦) فردًا بعد ترتيب مسبق لدعوة كثير من الأسر الفقيرة.

وعلى النقيض من ذلك فإننا نرى بعض أرباب الأموال والثروات الذين

يبجّلهم الناس ويشيّخونهم دون وجود أي أفعال ملموسة يمكن أن تؤهلهم لنيل هذا اللقب، بل إن بعض هؤلاء الشيوخ الجدد يصدُقُ فيه وفي ماله المثل الشعبي: «مال حماده.. له ولأولاده».

كما ان الناس لم يلحظوا أبدًا فوائضَ كؤوس هؤلاء الشيوخ، وأظن أننا لن نراها؛ وكيف لنا ان نراها وهم دائمو السعي إلى توسعتها كلما أوشكت أن تفيض! وحتى إن فاض كأسُ أحدهم يومًا وجدناه يضع تحته إناءً ليجمع فيه هذا الفائضَ ليتمكن من توظيفه فيما يحقق له منافع مادية لاحقة، أو على الأقل مكاسبَ معنوية ذاتَ مردود إيجابي على وجاهته وسمعته بين الناس.

وفي الأجزاء القادمة من هذا الكتاب سيُخصَّص -بمشيئة الله- ملحقٌ لسرد قصص ومواقف طريفة وعجيبة عن البخلاء الذين أعطاهم الله قُدُرات لم ينتفعوا بها، ولم ينفعوا بها غيرهم، مع إيضاح أوجه الاختلاف بين البخل والتدبير، وبين الكرم والتبذير.



قبل الختام

منذ ثمانية قرون قال العماد الأصفهاني:

إنّي رأيتُ أنّه ما كَتَبَ أحَدُهُم في يَومه كتاباً إلا قالَ في غَده: لوغُيِّرَ هذا لَكانَ أَحسن، ولو زيد كذا لَكانَ يُستَحسن، ولَو قُدِّمَ هذا لكانَ أفضل، ولو تُرِكَ ذاك لَكانَ أجمل، وهذا مِن أعظَمِ العِبر، وهو دَليلٌ على استيلاءِ النّقْصِ على جُملَةِ البَشر.



الخاتمة

كلنا ندرك أن أغلب قصص الكرام تشبه الكنوز المدفونة في صدور من حولهم من الأقارب والمعارف، والواقع يؤكد أن هناك أجوادًا يشهد لهم القاصي والداني بمكارم الأخلاق، ومع ذلك لا يتداول الناس أي قصص مؤثرة عنهم يمكن كتابتها ونشرها.

وأن من أعظم واجبات هؤلاء المحيطين بالكرام المشاركةَ بما لديهم من قصص ومواقف عنهم، لأننا إن لم نتعاون ونتدارك تلك القصص بالتدوين فسوف تندثر مع ما فيها من عِبر ودلالات عظيمة على الخير.

لذا.. فإنني أدعو القراء الأفاضل إلى إرسال ما لديهم من قصص عن الكرام ليتم نشرها كاملة إن شاء الله في أجزاء قادمة من هذا الكتاب، وعند الحاجة إلى إعادة صياغة أي قصة فسيتم التعديل بضمان عدم الإخلال بمحتواها أو شيء من عناصرها، ليتم بعد ذلك اعادتها إلى المشارك للاطلاع عليها قبل اعتماد نشرها.

وحفظًا للحقوق..

سيتم إبراز اسم صاحب المشاركة في حاشية الصفحة كمصدرًا للقصة، مع تزويده بنسخة من الكتاب حال صدوره باعتباره شريكًا في إعداده.

،،،والله ولي التوفيق

خالد بن عبدالله بن يحيا العسّاف

0505818030



المصادر والمراجع

١) أدب الدنيا والدين ـ أبو الحسن علي بن محمد الماوردي الشافعي، تحقيق ياسين محمد النواس ـ دار ابن كثير، الطبعة الرابعة ١٤٢٦هـ.

٢) أبطال من الصحراء ـ الأمير محمد بن أحمد السديري.

٣) إتحاف النبلاء بأخبار وأشعار الكرماء والبخلاء ـ ابن المبرد جمال الدين الدمشقي الحنبلي ـ دراسة وتحقيق يسري عبدالغني عبدالله، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ.

٤) بهجة المجالس وأُنس المجُالس وشحذ الذاهن والهاجس ـ أبو عمر يوسف بن عبدالله القرطبي، تحقيق محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٥) حديث الصحراء ـ ناصر السبيعي وإبراهيم الخالدي.

٦) عيون الأخبار ـ أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري ـ ضبط وتعليق الداني ابن منير آل زهوي، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ.

٧) فضل الإنفاق في سبيل الله ـ عثمان السعيد الشرقاوي، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ.

٨) فضل العطاء على العسر – أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري.

٩) قصص العرب ـ محمد أحمد جاد المولى وعلي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ١٤٢٦هـ.

١٠) قصة مثل ـ ناصر بن عبدالله المسيميري.

١١) قصة وأبيات ـ إبراهيم بن عبدالله اليوسف.

١٢) لطائف الأخبار وتذكرة أولي الأبصار ـ القاضي أبو القاسم علي التنوخي، تحقيق الدكتور علي حسين البواب، دار عالم الكتب، الرياض ١٤١٣هـ.

١٣) مراقي الجنان بالسخاء وقضاء حوائج الإخوان ـ يوسف المقدسي، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ.

١٤) مكارم الأخلاق ـ أبو بكر عبدالله بن أبي الدنيا البغدادي، تحقيق ياسين محمد النواس، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى١٩٩٩م.

١٥) مكارم الأخلاق ـ شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق عبدالله بدران ومحمد عمر الحاج، المكتبة العصرية، بيروت ١٤٢٧هـ.

١٦) من أخلاق النبي – د.أحمد محمد الحوفي.

١٧) من أحاديث السمر ـ عبدالله بن خميس.

١٨) من آدابنا الشعبية في الجزيرة العربية (عشرة أجزاء) ـ منديل بن محمد الفهيد.

١٩) من القائل ـ عبدالله بن خميس.

٢٠) من روائع القصص والقصائد الشعبية ـ مرزوق بن محمد الوهبي.

٢١) من شيم العرب (أربعة أجزاء) ـ فهد المارك.

٢٢) موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية (الكرم) ، أ. د. مرزوق بن صنيتان بن تنباك، دار رواح للنشر والتوزيع.

٢٣) نوادر القصص عند العرب ـ فؤاد قميحة ، دار الفكر اللبناني، الطبعة الأولى ١٩٩٠م.

٢٤) هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين حقاً ـ محمود محمد الخزندار، دار طيبة، الطبعة العاشرة ١٤٢٦هـ.

٢٥) الأسخياء والبخلاء ـ الدكتور يحيى شامي ـ دار الفكر العربي، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٩٥م.

٢٦) البخلاء – أبو عثمان عمرو بن بحر (الجاحظ).

٢٧) الخلق الكامل – محمد أحمد جاد المولى.

٢٨) الشح والبخل ـ الشيخ جماز بن عبدالرحمن الجماز ـ دار طيبة، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ.

٢٩) العقد الفريد ـ أحمد بن عبدربه الأندلسي، شرح كرم البستاني (الأيدي السخية) دار المسيرة ١٤٠١هـ.

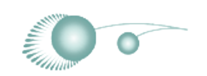
٣٠) الكرم والجود والسخاء ـ سمير حسين حلبي ـ دار الصحابة للتراث، طنطا، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

٣١) المجموعة الكاملة لكتاب قطوف الأزهار ـ عبدالله بن دهيمش بن عبار العنزي.

٣٢) المستجاد من فعلات الأجواد ـ أبو علي المحسن بن علي التنوخي، تحقيق محمد كرد علي، دار صادر ١٩٩٢ م.

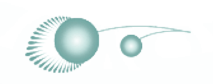
٣٣) المستطرف في كل فن مستظرف ـ بهاء الدين محمد بن أحمد الإبشيهي ـ دار الفكر العربي، بيروت، الطبعة العاشرة ٢٠٠٤م.

٣٤) المحاسن والمساوئ ـ الشيخ إبراهيم بن محمد البيهقي ، دار إحياء علوم الدين، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.





الفهرس







إن من أعظم صور الوفاء للكرام أن نسعى إلى تدوين مآثرهم، ونتعاون في نشر فضائلهم، ليقتدي الناس بهم، ولا ينقطع الدعاء لهم.